

دار اليفطة العربية للناليف والترجمة ونشر

ستيفان زويانج

تولستوي

« ليس هناك ما يترك في النفس انطباعا
أعمق ويوحد بين الناس في عاطفة واحدة
بصورة أمتن ، مثل نتاج حياة إنسان كاملة ،
وبالنتيجة مثل هذه الحياة نفسها »

تولستوي

« المذكرات » ٢٣ آذار ١٨٩٤

ترجمة

فؤاد أيوب

سلسلة عميون الأدب العالمي

جميع حقوق
الطبع والنشر والاقتباس
محفوظة



ستيفان زفايج

۱۸۸۱ - ۱۹۴۲

ابوہدء

مکسیم چورکی

سٹیفان زوشاچ

تصدیق

أن الفكر العربي ليتطلع أكثر فأكثر ، في تفتح المستمر وازدهاره الدائب ، نحو آداب الشعوب الأخرى يريد أن ينهل من معينها السثر ، وأن يسكر من نشوة خمرتها اللذيذة ، محدود الإدراك الوطيد بأنه لن يستطيع ارتفاعاً الى المسكانة التي يطمح اليها في مراتب الأدب العالمي ما لم يتفهم هذا الأدب العالمي جيداً ويتمثله بصورة حسنة ، بحيث يوطد الأسس التي يقوم عليها ، لا بتقليد آداب الشعوب الأخرى ، بل باستمداده العون منها كي يدخل أعمق فأعمق الى غور الاشياء ، ويزداد نفوذاً الى لب الامور ، ويتجرد عن كثير من السطحية ما يرح يطغى على أدبنا ، ويجعل أن يكون تراثنا الفكري هو الأدب وحده تقريباً ، دون سائر ميادين النشاط الفكري الأخرى .

وفي الحقيقة ، هل كانت النهضة الأوروبية تعقل دون ماحله الى الغرب اولئك العلماء الهاربون من وجه العثمانيين لدى فتح القسطنطينية ، بالإضافة الى سائر العوامل الأخرى ، الاجتماعية منها والسياسية على حد سواء ، المتوفرة لاوروبا في ذلك الحين بالضبط ؟ ومن قبل ذلك هل كانت نهضة الفكر العربي ، في العصر العباسي خاصة ، تعقل دون ترجمة الآثار الفلسفية الإغريقية واللاتينية الى لغة الضاد ، بالإضافة الى مختلف العوامل الاجتماعية والسياسية الأخرى أيضاً ؟ ومن بعد ذلك هل كان ازدهار الفكر والأدب الروسيين يعقل دون ذلك الانصباب ، المنقطع النظير ، على الآثار الفكرية الغربية بعد إصلاحات بطرس الكبير ؟ ولم تصاب آداب كل امة وفنونها بنكسة قوية من حين لآخر ، بينما هي تعتقد أنها قد بلغت الأوج من التطور ، فلم يعد النشاط الفكري لاية أمة أخرى يستطيع أن يطاولها أو يسبقها ، فهي في غنى عنه اذن ؟ مما لا ريب فيه أن الحواجز بيننا وبين آداب الامم الأخرى يجب أن تنهار بالضرورة ، وأنه لا بد لنا - ونحن نحفظ بطابعنا وشخصيتنا القوميين - من

أن نستقي من تلك الينابيع ، لكن بشرط أن نعرف كيف نستقي .
وفي الواقع إننا بحاجة إلى الآداب الأجنبية ، ولكن علينا أن نختار غيرها دون
شرها ، يجب أن نستقي ، لأن الانتقاء هو الشرط الأساسي للفائدة في
هذا المضار .

ولقد أحست « دار اليقظة العربية » هذه الحاجة الضرورية الملحة ، فقررت أن
تبذل الجهد الكافي لتشارك في ملء جزء من الفراغ في حدود طاقتها وامكانياتها ،
فطلبت إلى نخبة ممتازة من الأدباء والمفكرين والأساتذة أن ينقلوا إلى اللغة العربية
عمون التراث العالمي .

ولقد باشرت الدار في إنجاز هذا المشروع العظيم وانتقت عدداً من الآداب
والمفكرين الروسيين ، والألمانيين ، والفرنسيين ، والبريطانيين ، والإيطاليين ،
والإسبانيين . . . كان من عدادهم الكاتب النمساوي الشهير ستيفان زفايج الذي
قال عنه الروائي الفرنسي الكبير جول رومانس « إنه أحد المفكرين السبعة الأكثر
عمقاً في أوروبا بأسرها » ، والذي تقدمه اليوم إلى القراء في إحدى دراساته المشهورة
التي كتبها عن الروائي الروسي الأعظم ، ليون تولستوي .

* * *

وولد ستيفان زفايج في فيينا ، عاصمة الامبراطورية الجارية حيث تلقى علومه ،
في الثالث والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٨١ ، وكان في الثالثة والعشرين عندها
نال شهادة الدكتوراة في الفلسفة بأطروحة عن الناقد الفرنسي الشهير تين ، كما فاز
في الوقت نفسه بجائزة بوير نفيلد للشعر ، وهي إحدى الألقاب الأدبية الرفيعة في
النمسا في ذلك الحين ، اثر إصداره مجموعة من الأشعار ، وترجمته لبعض فصائيد
الشاعر الفرنسي فرلين الشهيرة ، وتأليفه لبعض الأناجيب ، ووضع مسرحية
شعرية أيضاً . ولكنه كان يرى « ان الأدب ليس هو الحياة » ، بل لا يعدو حكاية

« وسيلة للسمو بها ، وسيلة لإدراك مأساتها بصورة أكثر وضوحاً وتفهماً ». كان يطمح الى السفر بصورة خاصة ، الى « إعطاء وجوده السعة ، والكمال ، والقوة ، والمعرفة ، والى ربطه في الوقت ذاته بجوهر الأشياء وأعماقها » . وهكذا نجده عام ١٩٠٤ في باريس ، حيث أقام مدة طويلة من الزمن في فترات مختلفة ، وارتبط مع عدد كبير من الكتاب الفرنسيين ، وجول رومانس بصورة خاصة ، بأواصر الود ، والصدقة ، والمحبة . . ومن ثم غدا الى بلجيكا حيث زار الشاعر فراهيرن في داره المتواضعة الريفية - وقد ترجم حياته فيما بعد ، ونقل مؤلفاته جميعاً الى الألمانية - وتقل بعد ذلك في ايطاليا ، واسبانيا ، وافريقيا ، وانكلترا ، والولايات المتحدة ، وكندا ، والمكسيك ، وكوبا ، بله الهند أيضاً حيث قضى عاماً كاملاً . ان هواه الجامح للمعرفة ، هذا الفضول الذي لا يبدأ ولا يرتوي ، هذا الشيطان المتأثر الذي يريد ان يرى ، وأن يعرف ، وأن يعبد سائر الحيات على الاطلاق ، وان يحتك بمختلف المدنيات دون تفریق ، كان يدفعه دوماً الى عدم الاستقرار في مكان واحد ، فهو يلتمس الكتب والبلاد جميعاً ، يجمع التواقيع أثناء ذلك - كانت لديه مجموعة منها رائمة للغاية حفاً - متعطشاً الى اكتشاف سر الرجال العظماء ، نهماً الى سبر اغوار عواطفهم العظيمة ، توافقاً الى ائارة غوامض إبداعاتهم الكبيرة ، وفضح ما أخفوه عن الناس في حرص شديد ، ولم يعترفوا به البتة . وان رومان رولان - الذي كان صديقاً حميماً له - يشبهه بذلك الصياد الحاذق ، الذي يدور حول حفاف الغابة العذراء ، يرهف اذنيه في انتباه زائد ، متلصصاً خافق القلب ، كي يسمع غريبات الاجنحة الحفية ، او حفيف الاغصان المتحركة في لطف ، منتظراً عودة الطريدة الى عشاها - والطريدة هي كل نفس كبيرة - كي يصطادها ، حية ، ولا يقتناها بعد ذلك ابداً . ان حياته لتتمتج امتزاجاً وثيقاً بحياة هذه الغابة العكيفة ، وكيثونته تختلط كل الاختلاط بكيثونة العالم العظيم .

وفي أثناء ذلك كان يكتب دون انقطاع ، ومن دون ادنى جهد ان صح التعبير . انه يقول : « اني لا اذكركم ، بالرغم من سائر الجهود الطيبة التي أبذلها ، اني اشتغلت أثناء تلك المدة . ولكن الرقائق تناقض ذلك ، مادمت قد ألفت كتباً عديدة ، ووضعت مسرحيات مثلت جميعاً في سائر مسارح ألمانيا تقريباً ، وفي الخارج أيضاً حتى درجة بعيدة . وفي الوقت نفسه كان يترجم بودلير ، وفرلين ، ورامبو ، وفرهايرن ، وسوياريس ، ورومان رولان ، الذين احبهم جميعاً ، وأغنى لغته الام بأثارهم الرائعة .

وكانت الحرب العالمية الاولى التي تركت في قلبه جرحاً عميقاً للغاية . فقد كان دوماً رجلاً محباً للسلام ، اوروبياً بكل معنى الكلمة ، يؤمن ايماناً وطيداً بجماعية أوروبا الفكرية ، وبالاصداقة العقلية التي لا تعرف حدوداً او فوارق على الاطلاق . وهكذا لجأ في عام ١٩١٩ الى مدينة سالزبورغ الصغيرة في النمسا حيث قضى عشرين عاماً تقطعها الاسفار ، يرسل من هناك الى انحاء العالم أجمع رسائله ومؤلفاته : « اربع وعشرون ساعة من حياة امرأة » (كان جوركي يقول عن هذه القصة إنه لا يبتدكر أنه قد قرأ شيئاً أشد عمقا منها ...) و « أموك » (١) ، و « اختلاط العواطف » ، و « الخوف » ...

وفي اقل من عشر سنوات نشر زفايج - هو الذي لم يكن يرى في العمل إلا شعاعاً بسيطاً من الحياة ، شيئاً ثانوياً ان صح التعبير ، عشر أم من الافاصيص ، وعدداً كبيراً من الدراسات عن دستوفسكي ، وتولستوي ، ونيتشه ، وفرويد ، وستندال ، والشاعرة الفرنسية مارسولين ديورد فالمر ، وفرهايرن ، وبلزك ... تبرهن جميعاً عن اتساع المدى الثقافي لهذا الفنان الاصيل ، وتؤكد أن سائر اولئك العمالقة الذين كتب عنهم قد وجدوا فيه مترجماً لحياتهم جديراً بهم كل الجدارة . ومن ثم كانت سلسلة كتاباته التاريخية : « فوشيه » ، « ماري

() كلمة تعني الجنون بلغة أهل الملايو .

انطوائيت « ماجلان » . . . التي رفعت منذ الوهلة الاولى الى مصاف المعلمين الكبار .

وفي الحقيقة انه لم يترك مقولة واحدة من المقولات الادبية إلا وطرقها ، وكان استاذاً فيها . ولقد كتب رومان رولان يقول عنه ، في عام ١٩٣٦ ، حين أخذ الناس في فرنسا يقبلون على مؤلفات زفايج بصورة تفوق التصور : « ليس استيفان زفايج واحداً من أولئك الكتاب الذين لم يرفعوا فوق المستوى العادي الا بأمواج الحرب ، وبالجد اليأس المبذول لمقاومتها ، بل هو بالأحرى ذلك الفنان الذي ولد فناناً ، والذي تستقل عنده الطاقة الخلاقة عن الحرب ، وعن السلم ، وعن سائر الشروط الخارجية الأخرى ، الذي يوجد كمي يبدع ، الذي هو شاعر حسب المفهوم الجوتي ، الذي الحياة مادة الفن بالنسبة اليه ، والفن تلك النظرة التي يرسلها في صميم الحياة . انه ليس بتابع لأي شيء كان ، وليس شيء بغيره عنه ، لا شكل من أشكال الفن ، ولا شكل من أشكال الحياة » .

ويضيف رومان رولان أيضاً : يقولون ان الود هو مفتاح المعرفة ، وهذا صحيح بالنسبة الى زفايج ، ولكن العكس صحيح أيضاً : ان المعرفة هي مفتاح الود . انه يجب بالاعتق ، ويفهم بالقلب ، فاذا الاعتق والقلب اللذان يختلطان معاً يضيفان على الفضول الانساني اللاهب مميزات « الهوى الجسدي » كما نعرفه عند بطل « أموك » مثلاً .

واستولى هتلر على الحكم في ألمانيا ، وراحت أعمال العنف ضد المتمردين تتكرر وتتضاعف دون انقطاع . وما لبثت النازية ان اجتاحت النمسا بدورها ، فاضطر زفايج الى مغادرة بلاده الى اسكترا . ولكن نفسه ، التي طغى القلق عليها وراح يعذبها ، لم تترك له فرصة للراحة منذ ذلك الحين ، فهو ينتقل بين اميركا الشمالية ، والبرازيل ، وانكلترا ، والنمسا (حيث عذب النازيون امه حتى الموت) ، وفرنسا ، ساعياً وراء الاستقرار ، والهدوء ، والطمأنينة ، دون أن يجد سبيلاً اليها جميعاً قط . وما أسرع ما استعلت شرارة الحرب ، فاذا

فرنسا تقي هزيمة نكراء ، واذا ما كان يجثاه دوماً يتحقق ، واذا الظلمات تجسح اوروبا بأسرها . ولنسمع اليه بأية مرارة أليمة يصف تلك الفترة من الزمان التي عاشها نبهاً لعذاب موجع حتى الدرجة القصوى :

« إن الزلازل قد قلبت بيتي ووجودي ثلاث مرات متواليات ، وانترعتني بكل عنفها المفجع من ماضي ، وأتت بي في هاوية الفراغ ، في هذا البعد اللامتناهي التي سبقت معرفتي له ، حيث الاضطراب يدفع المرء الى الهتاف في أسى : « اني لا أعرف اين اذهب . »

« وان يكن في العالم انسان قد انتزع من سائر الجذور ، بسله من ذات الأرض التي غذت تلك الجذور ، فذلك الشخص هو انا بالضبط . لقد ولدت في عام ١٨٨١ في امبراطورية عظيمة جبارة ، امبراطورية آل ها بسبورغ . ولكن يجب ألا ننقش عنها في الحارطة اليوم ، لأنها قد امنت منذ زمن بعيد دون ان تترك وراءها ادنى أثر على الاطلاق . وترعرت في فيينا ، العاصمة التي يرجع تاريخها الى ألفين من السنوات ، والتي كانت تسود على امم عديدة ، والتي اضطرت الى مغادرتها مثل مجرم قبل ان تذلل وتهان حتى لاتعود اكثر من مدينة في مقاطعة ألمانية ليس غير . اما آثاري الأدبية فقد اجملت كومة من الرماد في اعتمها الأصلية ، وفي ذات البلاد التي اكتسبت كتي فيها ملايين من القراء والاصدقاء . وهكذا لم تعد لي صلة في بقعة من هذا العالم ، بل اصبحت غريباً في كل مكان ، ضعيفاً على الاكثري في البلد الذي يضر لي العداوة الأقل . لابل ان الوطن الحقيقي الذي اختاره قلبي ، اوروبا ، قد ضاع بالنسبة الي منذ ان راح يمزق نفسه للمرة الثانية ، وقد فلكنه حمى الانتحار ، في قتال يتذابح الاخوة فيه . ولقد كنت شاهداً ، بالرغم من إرادتي ، على أهرب هزيمة مني العقل بها ، وعلى أوحش انتصار ظفرت النسوة به ، انتصار لم يعرف الزمان اكثر وحشية منه على الاطلاق . ايس جيل قد سقط قط . وأنا لا أذكر ذلك في غرور ، بل في شعور من العار بالاحمرى - مثلما

تردى جيانا من العظمة العسكرية في مثل هذا الانحلال الاخلاقي . لقد حدث خلال هذه السنوات القليلة التي انقضت بين غوليتي واجتياح المنسيب لها ، خلال نصف القرن الاخير ، حدث من التبدلات الجذرية اكثر مما يحدث في ازمان اخرى طوال عشرة من الاجيال البشرية ، الأمر الذي يحسه كل منابوضوح : ان اموراً كثيرة ، قد وقعت ! ان يومي يختلف كثيراً عن كل من ايامي الماضية ، في صعودي وسقطاتي المتعاقبة ، حتى لا اعخال أحياناً اني لم اعش وجوداً واحداً ، بل عدة حيوات مختلفة جداً عن بعضها البعض . ذلك أنه يحدث لي احياناً ، حين اقول دون انتباه : « حياتي » ، ان ارواح اتساءل بالرغم مني : « اية من حياتي ؟ » . أهي حياتي قبل الحرب العالمية ؟ أهي حياتي قبل الحرب الاولى ام الثانية ؟ ام هي حياتي في الوقت الراهن ؟ ثم اواجى نفسي وانا اقول : « بيتي » ، فلا استطيع ان اجزم بمباشرة ايأ من بيوتي السابقة قد عنيت ، أهو بيت باث ام بيت سالزبورغ ، او انه البيت الامومي في فيينا . او اني اتذكر مرتعشاً ، عندما اقول احياناً : « عندنا » ، اني لم اعد من صلب أناس وطني اكثر مني من صلب الانكليز او الاميركيين ، وانني لم اعد متصلاً عضوياً بأوائلك ، وانني لن استطيع قط أن أجد ههنا مركزي ومكاني الوطيدين . ان العالم الذي ترعرعت في وسطه ، وعالم اليوم ، والعوالم التي تندس بين هذين الطرازين ، لتنترق عن بعضها البعض أكثر فأكثر في شعوري ، كي تصير عوالم متعيزة عن بعضها كل التميز .

« اي شيء لم تره » ، ونعشه ، ونتمصل وطأته ، نحن الذين قد بلغنا اليوم الستين من عمرنا ، والذين ما برح لنا الحق في بعض سنوات اخرى من الحياة ؟ لقد حررنا حقن سائر الكوارث التي يمكن للتخيل ان يتصورها من اقصاه الى اقصاه ، ولم نقلب الصفحة الاخيرة حتى الآن . وانا وحدي قد كنت شاهداً على اكبر حربين حطمتا الانسانية ، وعشتها في جهتين مختلفتين ، الاولى في الجبهة الالمانية ، والثانية في الجبهة المقابلة . ولقد عرفت ما قبل الحرب ارفع شكل للحرية الفردية

اسمى دويجة لها ، ومن ذلك الحين عرفت أسوأ المخطاط شاهدته البشرية منذقرون عديدة . لقد مجدت ، واصبحت طريد القانون ، لقد كنت حراً ومستعبداً ، غنياً وفقيراً . ان سائر جياذ سفر الرؤيا الشاحبة قد انطلقت عدواً عبر وجودي ، الثورة والمجاعة ، ندهور العملة والارهاب ، جائحات الامراض والهجرة . لقد شاهدت أساليب التفكير الكبرى تنمو تحت اعيننا ، وتنتشر بين الجماهير : الفاشية في ايطاليا ، والقومية الاشتراكية في ألمانيا ، والبلشفية في روسيا ، وقبل كل شيء القومية ، طاعون الطواغين هذا ، التي سمعت زهرة ثقافتنا الاوروبية . لقد كنت مجبراً على ان اكون الشاهد العاجز ، المجرّد عن كل دفاع ، على هذه العودة التي لا يتصورها العقل ، والتي رجعت بالانسانية الى حال من البربرية كنا نظن انها قد اصبحت في حكم النسيان منذ زمن طويل جداً ، وذلك بعقائد وبرامج مضادة للانسانية ، وموضوعة في وعي تام من اصحابها . لقد كان مقدراً لنا ان نرى من جديد بعد قرون من الحروب المشتعلة دون اعلان للحرب ، معسكرات الاعتقال ، واساليب جهنمية للتعذيب واغتصاب الجماهير ، وتدميراً وحشياً للمدن المجرّدة عن كل وسيلة للدفاع ، وكل هذه الأفعال من الحيوانية التي لم تعرفها الأجيال الخمسون الاخيرة ، والتي لن تتحمل وطأتها - فلنترج ذلك - الأجيال المقبلة أيضاً . والامر المتناقض حقاً اني رأيت هذه الانسانية نفسها ، في الوقت الذي كان عالماً فيه يعود القهقري أخلاقياً قرناً كاملاً ، ترتفع فيه بالدكا والتكنيك الى اعاجيب لم يسبق لها مثيل ، متجاوزة بضربة جناح واحدة كل ما انتجته ملايين السنوات : غزو الاثير بالطائرة ، نقل الكلمة الارضية الآتي على كل مساحة كرتنا الارضية ، والانتصار بذلك على المكان الذي يحيط بنا ، وانقسام الجوهر ، والانتصار على اكثر الامراض شراً وخفية ، والتعقيق الذي يكاد يكون يومياً لكل ما كان يبدو مستحيلاً البارحة فقط . ان الانسانية لم تبد ابدأ حتى عصرنا هذا اكثر شيطانية منها اليوم ، كما انها لم تحقق قط هذا المقدار من المعجزات الذي يرفعها الى مرتبة الالوهية .

هكذا إذن قد ذهب هباءً منثوراً كل ما عاش هذا الإنسان من أجله . وانه ليترجى في المستقبل ، ولكنه رجاء يأس على اية حال . إن جيوش النازيين قد دخلت شوارع ستالينغراد ، وهي تدق ابواب القاهرة ، تثقل على الدنيا بأسرها بجزمتها الرهيبة . ان المقاومة عبث ... وقلق زفانج الفكري أقسى من ان يصمد في وجهه . وهذا هو يكتب ، في الثاني والعشرين من شباط عام ١٩٤٢ ، رسالة الوداع :

« قبل ان اغادر الحياة بلاء ارادتي ، متمتماً بسائر قواي العقلية ، أحس الحاجة إلى انجاز واجب أخير : أن أوجه شكري الجزيل إلى البرازيل ، هذا البلد الرائع الذي وفر لي ، كما وفر للعالمي ، راحة صدقة للغاية ، ومضافة حتى الدرجة القصوى . لقد تعلمت يوماً بدم يوم أن احب هذا البلد أكثر فأكثر ، حتى اني لم اكن لافضل ان أبني لي في اي مكان آخر وجوداً جديداً ، بعد أن زال عالم لغتي بالنسبة إلي حالياً ، وبعد ان دمر وطني الفكري ، أوروبا ، نفسه بنفسه .

« ولكن المرء يحتاج ، بعد ان يتجاوز الستين ، الى قوى استثنائية كي يبدأ حياته مجدداً من أولها . ولكن قواي قد نضبت بعد سنين طويلة من التشرد ، بحيث أجد من الافضل لي أن اضع حداً ، مرفوع الرأس ، لوجود كان العمل الفكري فيه هو الفرحة الاصفى دوماً ، وكانت الحرية الفردية فيه هي انثروة المثلئ لهذا العالم في كل حين .

« إنني احببي سائر أصدقائي . ألا فائروا الفجر مرة اخرى بعد الليل الطويل . أما أنا فقد فرغ صبري ، ولذا فاني أسبقهم » .

ستيفان زفانج

بتروبوليس ، ٢٢-٢-٤٢

وفي الغداة، لم يعد زفايج من هذا الوجود ...

فؤاد أيوب

المقدمة

« ليس الكمال الاخلاقي الذي يبلغه المرء ما
يهمنا ، بل الطريقة التي يبلغه بها ... »

تولستوي

مذكرات الشيخوخة

« كان »
إنسان يعيش في أرض عوص ، يخاف الله ويتجنب الشر . وكانت مواشيه سبعة آلاف من الحراف ، وثلاثة آلاف من الجمال ، وخمسة أتان ، أما خدمه فكثيرة عظيمة . ولقد كان هذا الرجل اعظم بني المشرق على الأطلاق .

هكذا تبدأ قصة أيوب الذي كثرت خيراته وتعاظمت حتى الساعة التي رفع الله فيها ذراعه ضده واصابه بالطاعون كىما يفتق من البجوضة الفظة السمجة التي ينعم بها ويرفل ، ويتألم في صميم روحه بعذاب موجع ، ويتقدم امام وجهه في ديتونة رهيبة قاسية . وهكذا تبدأ القصة الروحية التي عاشها ليون نيقولايفيتش توستيري ، هذا الانسان الذي كان هو الآخر اعظم بني وطنه وعصره ، والذي كان هو الآخر « يجلس عالياً » بين اقوياء الأرض والمتسلطين فيها ، يعيش في ثراء فاحش ورفاهية منقطعة النظير في داره العتيقة الموروثة عن الآباء والاجداد .

كان جسده يطفح صحة وقوة وعزماً ، كما استطاع ان يقترن بالفتاة التي يحبها ويرواها قلبه ، فأنجبت له ثلاثة عشر ولداً . وإن أعمال يديه وروحه سخالدة على مر الزمان تضيء يبريق شديد ساطع فوق العصر الذي عاش فيه ، وفلاحي يسانيا بوليانا (١) ينحنون في اجلال عظيم عندما يمر الاقطاعي الجبار من امامهم يعدو جواده به خبيماً ، والكون بأسره يطأطأ هامته في احترام كبير امام مجده المدوي . وإن ليون تولستوي ، مثله مثل أيوب قبل التجربة ، لا يشتهي في الدنيا شيئاً على الاطلاق ، لانه لم يبق في الدنيا ما يشتهيه ، بل هذا هو يكتب ذات يوم في احدي رسائله اكثر الكلمات الانسانية جسارة وتهوراً : « اني سعيد حتى ابرمد حدود السعادة » .

(١) ملكية تولستوي .

وفجأة ، في إحدى الليالي الخائكات ، يفقد كل هذا معناه ، ويضع قيمته وجدواه أيضاً . ان العمل ينفر بعد اليوم هذا العامل الذي لا يتعب ، وامراته تصبح غريبة عنه ، وامور ابنائه لاتعنيه في كثير او قليل .. انه يغادر فراشه اذا ما جن الليل ، مضطرب النفس مبل الفكر ، ويروح بذرع ارض غرفته في جيئة وذهوب ، مثل مريض يضنيه الداء ويعذبه ، لا يعرف للراحة طعاماً ، ولا الى السكون سبيلاً . واذا ما اشرق النهار جلس امام طاولة العمل متلبد الحاطر ، جامد النظرات ، مشلول اليدين ، لا يدري ما يفعل او ما يكتب . وهذا هو ذات مساء ينهب السلم اربعاً اربعاً كي يقلل باب دولابه على بندقية صيده ، خوفاً من ان يوجه ، في اية لحظة ، السلاح الرهيب ضد نفسه .. وانه ليزجر في بعض الاحايين فكأن الصدر منه يتفجر ، وفي احايين اخرى يبكي كالطفل الصغير في غرفته المظلمة . ولم يعد يقرأ الرسائل التي ترد اليه ، ولم يعد يستقبل أياً من الاصدقاء الذين يأتيون لزيارته ، بينما ابناؤه يتطلعون في رهبة ، وزوجته في يأس ، الى هذا الرجل الذي اظلم كل شيء فيه على حين غرة ، وبدون سابق انذار .

ما هو السبب في هذا التبدل المفاجيء ؟ هل الداء يقضم حياته خفية ؟ هل اجتتاح الطاعون جسده ؟ هل نزل السوء بساحته من الخارج ؟ ما الذي اصابه ، هو ليون نيقولايفيتش تولستوي ، الاقوى بين الجميع ، حتى يحرم بغتة من الفرح والسرور ، وحتى ييأس على هذه الصورة المفجعة الاليمة وهو اعظم ابناء الارض الروسية طراً ؟ وهذا هو الجواب الرهيب ... لا شيء ! ان شيئاً لم يحدث له ابدأ ، او بالأحرى - وهذا اكثر هولاً ايضاً - ان ما صادفه هو العدم . ان تولستوي قد رأى العدم وراء الاشياء . ان في نفسه لصداً ، وفي باطنه فتح لشقاء ، شقاءً ضيقاً مظلماً ، فاذا عينه الغريفة تنظر ، بالرغم منه ، في ذلك الفراغ بشبات وجود ، تنظر في هذا العدم الذي لا اسم له ، هذا اللاشيء ، هذه اللاكينونة المحوفة ... هذا الحضور الآخر ، الغريب ، البارد ، القاتم ، المعصي على الادراك ، والقائم فيما وراء حياتنا الخاصة ، الدافئة والمستبعدة بالدم ... انه يرى الى العدم الخالد خلف الكينونة الفانية .

ان المرء الذي امعن النظر مرة في هذه الهاوية الفائقة الوصف ، لن يستطيع بعد ذلك ان يجيد ببصره عنها ابداً . . . ان الظلمة تجتاح حواسه وتختنقها ، وضياء الحياة ولونها ينطفئان بالنسبة اليه ويتلاشيان ، والضحك يتجمد في فيه ويخرس ، فيصبح عاجزاً عن بلوغ اي شيء كان دون ان يحس الصقيع يسري في اوصاله ، من اصابعه المرجفة حتى قلبه المرتمش ، عاجزاً عن التأمل في اي شيء كان دون ان يفكر ، في الوقت نفسه ، في الآخو ، في العدم ، في اللاشيء . . . إن الاشياء تسقط زاوية معدومة القيمة خارج منطقة الاحساس الذي كان دافعاً بعد ، حتى قبل لحظة واحدة فقط ، والمجد يصبح عبثاً خلف دخان هباء ، والفن يتقلب لعب مجانين لا يفقهون ، والمال يصير زهداً تافهاً اصفر اللون ، بله ان الجسد ذاته ، وقد كانت حار الانفاس طافحاً بالصحة ، لم يعد الآن الا مرتعاً للديدان تنهش اوصاله وتلتهمها . . . إن هذه الشفة ذات المرشف الاسود الخفي تنتزع ، من سائر خيرات هذا العالم ، مذاقها وحلاوتها . إن الكون يقشع من البرد عندما يفغر ذلك العدم المضني ، الجشع ، الاسود ، فاه امام عيني الكائن الفاني بكل عذاب الخلوq البدئي . انه ماييلستورم « (١) إدجار آلان بو الذي يأتي في طريقه على كل شيء ولا يخلف وراءه شيئاً ، « هاوية » باسكال التي يفوق عمقها كل ارتفاع يمكن للفكر ان يبلغ اليه .

عبث السعي وراء الاختباء والتخفي . . . وكذلك لن يفيدك شيئاً ان تخفي على هذا الظل الذي يلتمسك صنتي الالهي والمقدس ، ولن يفيدك شيئاً ايضاً محاولاتك ستر هذا الثقب الاسود بوريقات الانجيل . . . ان تلك الظلمات لترشح من سائر الاوراق وتنسرب ، وتنفخ على سائر شعور الكنيسة وتطفئها ، فمثل هذا البرد القادم من قطبي الكون لا يمكن ان يدفاً بانفاس الكلمة الانسانية الحارة . . . لن يفيدك شيئاً ، كي تبرقع هذا السكون المرهق حتى الموت ، ان تأخذ بالتبشير بصوت رنان ، مثل اولئك الاطفال الذين يرفعون عقيرتهم بالغناء ، في قلب الغابة الشاسعة الابعاد ، كي يضلوا قلوبهم ويحتالوا على ذعرهم . . . ان العدم الساكن ، الاسود ،

(١) اعصار مائي على شواطئ النروج ، وبالتالي قوة دمار منقطعة النظير .

الأسن ، لن يبرح يخلق غير مقهور فوق الوجدان ، فوق سائر جهوده على الاطلاق ، ولن تستطيع اية حكمة ان تطمئن القلب الموجه المتألم الذي عرف مرة معنى القوة الرهيبة المرعبة التي تملكها تلك الاكسينونة وتمتاز بها . لقد شاهد تولستوي للمرة الاولى ، وهو في الرابعة والخمسين من سني حياته الدنيوية ، ذلك العدم الشاسع ، فأدرك انه المصير المقدر له لسائر البشر اجمعين . وهو لن يفعل ، منذ ذلك الحين حتى الموت ، الا الشغوص بثبات الى هذا الثقب الاسود ، هذا الدخيل الممتنع على الادراك ، الرابض وراء كينونته الخاصة . ولكن نظرة ليون تولستوي ، حتى اذا استدارت نحو العدم ، تظل تملك وضوحاً نفاذاً حاداً . . . انها نظرة لم يعرف زماننا اكثر منها بصيرة وتشرباً للروح . إن انساناً لم يأخذ قط على عاتقه ، بمثل هذا الاندفاع الشديد ، قضية النضال ضد ما لا يمكن وصفه ، ضد عذاب الخلق البشري . إن انساناً لم يقابل ابداً بمثل هذا العزم القضية التي يطرحها القدر على الانسان بقضية الانسانية التي تسأل قدرها . إن انساناً لم يتعذب يوماً بمثل هذه القسوة بسبب تلك النظرة الفارغة التي تلتهم النفس شيئاً فشيئاً ، تلك النظرة القادمة من العالم الآخر . ابداً لم يتحمل انسان تلك النظرة بمثل هذه العظمة ، لان وجداناً طافحاً بالعنفوان يجابه هنا التساؤل القائم الذي تلقيه تلك الحدقة المظلمة ، يجابه بنظرة براءة ، مقدامة ، نظرة الفنان التي تراقب الاشياء بعزم وثبات . ابداً ، حتى ولا لحظة واحدة ، لم يطرف ليون تولستوي بعينه او يغمضها جيناً امام ما في القضاء من مفرج وألم ... هاتان العينان هما اكثر ما عرفه فننا الحديث بقطعة ، واخلاقاً ، وعصياناً على الفساد ... وبالتالي ليس اعظم من هذه المحاولة البطولية لاعطاء معنى خلاقاً حتى لما يخرج عن حيز الادراك ، وإسباغ الحقيقة على ما يستحيل تنجيته والحلاص منه .

لقد عاش تولستوي ، طوال ثلاثين عاماً ، من العشرين حتى الخمسين ، في

خلق مؤلفاته ، حرراً لمباليّاً .. وطوال ثلاثين عاماً أخرى ، من التحسين حتى الوفاة ،
لم يجيأ إلا كي يعرف معنى الحياة ويفهمه ، مناخلاً ضد ما لا يمكن إدراكه ، مقيداً إلى
ما يهسر البلوغ إليه .. ولقد ظلت مهمته يسيرة سهلة حتى اليوم الذي أخذ فيه على
كاهله هذه الرسالة الهائلة : ان يخلص ، بنضاله في سبيل الحقيقة ، ليس شخصه فحسب ،
بل الانسانية بأسرها ايضاً . وإن إقدامه على هذه الرسالة يجعل منه بطلاً ، بله
قدسياً تقريباً ، اما سقوطه في غمرة النضال في سبيل تحقيقها فيجعل منه أكثر الناس
انسانية على الاطلاق ..



صورة أولستوي

« كان لي حيا فلاح عادي »

وهيم اشبه ما يكون بالغابة الكثيفة ، الآجام فيه اكثر عدداً من الفسح العاريات ، تسد كل منفذ الى الرؤية الباطنة ، ولحية عريضة مسترسلة اشبه ما تكون بلحية بطيريك مهيب عظيم الوقار ، تتزاحم حتى اعلى الوجنتين وتتدافع ، وتغطي بأموائها - طوال عشرات من السنين - الشفة الغامضة الشهوانية ، وتقع القشرة المخططة التي تكسو الجلد ذا الغضون السمراء . والى الامام من الجهة يتربع حاجبان جباران ، غليظان كالاصبع ، متشابكان كجذور الاشجار المتعاقبة ، بينما تزيد فوق الرأس كتلة مضطربة من خصل شعر كثيف متلاحم اشبه ما تكون بموجة مجرية عاتية رادية اللون ... انها كثرة الاشعار الشائكة ، الاستوائية ، المنتصبة في كل مكان ، تشر على غرار الاله بان فيض العالم البدائي . وان الناظرين لاتشاهدان للوهلة الاولى في عيا تولستوي - تماماً مثل موسى ميكيل أنجلو ، هذه الصورة التي تمثل اكثر البشر عنفواناً ورجولة - الا الموجة المتدفقة المبيضة الزبد لتلك اللحية العملاقة التي اشبه ما تكون بلحية الآب الابدي .

وعندئذ ، كي ترفع اللثام عن نفس هذا الانسان ، كي تكشف عري وجهه هذا كساؤه ، كي تدبر أغوار جوهره الممتع ، لا بد لنا من تفكيك سبائك آجام تلك اللحية (وصور الشباب المرءاء تساعد كثيراً على هذا الاظهار المرئي) . اننا لنفعل ذلك اذن ، فاذا نحن نخاف ونذهل ونعجب ، لان محيا هذا النبيل ، هذا الابن البار للفكر المتوفد - ولا بد لنا من الاعتراف بهذا الواقع الذي لا سبيل الى نقضه - لذو بنية فظة غليظة ، لا يفترق في شيء عن سبائك ابي فلاح تضادفه على قارعة الطريق .. ههنا قد اختارت العبقرية منزلأ لها ومصنعاً كوخاً حقيراً ، ملطخاً بالهباب ، والدخان ، كيميكا (١) روسية حقيقية .. من وضع تصميم مسكن هذه الروح

(١) اسم بيوت الفلاحين الروسين ، وهي متشابهة في كل انحاء البلاد تقريباً .

العظيمة ؟ انه ليس لها اغريقيا خالفاً ، بل إن هو إلتجار قروي كثير الاممال ، عديم البالاة والاكتراث ... ان كل شيء فيه منحوت في ثقل وخشونة ، فحسور الجبهة الراططة - فوق النافذتين اللتين يمتلان العينين - نخبنة العمدة كبيرة اللببات ، اشبه بالشب المتشابك المتداخل في بعضه البعض ؛ والجلد ليس الا تراباً وطيناً ، قائماً معدوم البريق ؛ وفي وسط هذا المربع الخالي من الجمال ينهض أنف مفتوح المنخرين كثيراً ، واسع حتى ليكاد ان يشبه كتلة من اللحم مسلوقة ، مسطح و كأنما تلقى لكمة جبارة شديدة قاسية ؛ والى الخلف من الشعر الاشعث اذنان مشوهتان مهتلتان ؛ وبين جوفى الوجنتين الغائرتين فوه أنبس غليظ الشفتين ... سياء يعمرها جميعاً ضياء الروح ، إن هي في الحقيقة الاملامع عادية ، مشتركة ، تكاد ان تكون عامية ايضاً .

في هذا الوجه المنفجع الذي يحض بالأحرى عاملاً يدوياً ، لن نجد الا الظل والعتمة ، الا الابتذال والفظاظة ... عبثاً تبحث عن الانطلاق او الحنين ، عن شعاع من النور أو عن تحليق روحي جريء ، هذه الامور جميعاً التي تجدها في القبة الرخامية التي يرسمها جبين دستوفسكي . ههنا لا ينفذ النور في اي مكان ، ولا يتألق اي بريق على الاطلاق - وكل إنكار لذلك إن هو إلا ادعاء وتزييف ، وكذب فاضح ... كلا ، ليس ههنا ، بكل تأكيد ، إلا وجهه واطىء مغلق ، لا يمكن أن يكون للفكر هيكلأ ، بل هو بالأحرى محبس مظلم كئيب ، خال من الفرح ، مجرد عن الجمال ... وإن تولستوي الشاب ليدرك ، في وقت مبكر جداً ، ان صفحة سيائه ناقصة ، فلا يطبق اية اشارة الى حياه ، بله يرتاب في إمكان وجود سعادة ارضية لامرئ ، له مثل هذا الانف المسطح ، مثل هاتين الشفتين الغليظتين ، ومثل هاتين العينين الصغيرتين الرماديتين . ولذا فان الفتى يسرع ، مبكراً ، فيخفي هذه الملامح المقيمة خلف ذلك القناع السميك من اللحية المسودة التي لن تفضضها السنوات وتضفي عليها الجلال الا في وقت متأخر ، ومتأخر جداً في الحقيقة . إن السنوات العشر الاخيرة من حياته وحدها تبدد هذه السحب القائمة وتبعثرها ، فلا

يقع شعاع رقيق من الجمال على هذا المشهد المجمع الا في ضياء مساء الحريف المتقدم .
ان العبقرية ، المتجولة ابدأ ، قد اقامت عند تولستوي ، كما في فندق متواضع ،
بين جدران مسكن منخفض قبيح ، في محيا اي انسان كانت ، محيا روسي عادي
يمكن ان نفترض وجود كل شيء وراءه ، ما عدا وجود المفكر ، والشاعر ، والمبدع .
ان تولستوي ، طفلاً كان أم مراهقاً ، رجلاً أم شيخاً طاعناً في السن ايضاً ، يترك
في النفس دوماً تأثير امرى . عادي من عداة ملايين الناس العاديين . ان كل لباس ،
وكل قبعة ، يلائمها تماماً . . . والمرء يستطيع بهذا الوجه المغفل ، وجه انسان روسي
قديم الفردية ، ان يرأس اجتماعاً وزارياً ، مثلما يستطيع ان يسكر ويعر يد ماشاء له
هواه في حانة مشبوهة يرتادها المتشردون ؛ يستطيع ان يبيع الحبز الابيض في
السوق ، مثلما يستطيع - واذلا في الحرير والدمقس كالمطران في القديس الاحتفالي -
ان يرفع الصليب يبارك به الجماهير الجاثية في خشوع . . ابدأ ان يكون هذا الوجه
في غير مكانه ، في اي بقعة كانت من الارض الروسية الواسعة الارجاء ، وفي اية
مهنة واي كساء . . لقد كان تولستوي ، طالباً ، يشبه جميع رفاقه مثلما تشابه
قطرتان من الماء ، وعندما أصبح ضابطاً كان يشبه سائر الذين حملوا السيف او تحضروه ،
ثم رجع الى الريف يشرف على املاكه فاذا هو لا يختلف في شيء عن اي اقطاعي
عادي . . . واذاما كان في العربية ، والى جانبه خادمه الاشيب البعيع ، فلا بد لك من
الامعان طويلاً في صورته قبل ان تستطيع تمييز الكونت من السائق بين ذينك
الجالسين في مقعد العربية . . . واذا وقعت على رسم يمثله وهو يتجاذب اطراف
الحديث مع الفلاحين ، فان تستطيع ابدأ - ان كنت به جاهلاً من قبل - ان تخمن
ان « ليون » هذا - الذي يتوسط تلك الحلقة من الرعايع - هو كونت رفيع المرتبة
عريق المحدث ، وانه يفوق بلايين المرات سائر هؤلاء الفلاحين ، من جر مجوري الى
ايفان ، ومن إلياس الى بيوتو ، الذين يحيطون به من كل جانب ومجفون . . .
وانت تقول عندئذ ، لشدة ما يبدو محيا مغفلاً ، خالياً من أية سمة تميزه عن سواه ،
ان هذا الرجل هو في الوقت نفسه سائر الباقين ، فكأن العبقرية عنده لم تترد فناع
فرد خاص ، بل تنكرت في الشعب بجموعه . . . ان تولستوي لا يملك وجهاً خاصاً ،

بالضبط لانه يجتوي روسيا بأسرها ، بل يملك بكل بشاشة وجه الانسانية
الروسية بكاملها . . .

وهكذا فان الناظر اليه للمرة الاولى يصاب ، للوهلة الاولى ، بحبيبة شديدة
قاسية . . . لقد جاؤوا من بعيد جداً ، بالقطار اولاً حتى تولا ، ومن هناك بالقرية
حتى ياسنايا بوليانا ، وهم ينتظرون الآن في قاعة الاستقبال قدوم المعلم ، ينتظرون
في اجلال عظيم واحترام لاحدوده ، وكل منهم يتخيل في نفسه انه سيقابل بعد
برهة وجيزة كائناً مهيباً عظيم الجلال ، فيروح الفكر يتصوره سلفاً رجلا بهي الطلعة ،
ذالحة مسترسلة كالحية الآب الأبدى ، عالي القامة ، فخور الملامح ، عملاقاً وجنياً
في شخص واحد . وهذه قشعريرة الانتظار ، منذ الان ، تثقل على كتفي كل من
الحاضرين ، وهذه العين ، منذ الان ، تطرقه بالرغم منها امام جيروت البطريك الذي
ستشاهده بعد لحظة قصيرة . . . واخيراً ، هذا الباب يفتح . . . ماذا نرى ؟ ان رجلا
صغيراً قصير القامة يدلن الى القاعة في عجلة حتى تترنح لحيطه ، يدفد بخطى قصيرة
سريعة حتى ليكاد ان ينجب خبيماً . . . ثم هذا هو يتوقف ، وعلى شفتيه تسبح ابتسامة
لطيفة حبيبة ، امام الزائر المدهوش ، ويروح يتحدث اليه في لطف وبصوت سريع
الزبرات ، وهو يوافق كلاً من الموجودين فيقدم اليهم يده بجرعة سريعة ميسورة ،
فيتناولون ثم تلك اليد الممدودة اليهم وفي صميم افئدتهم خوف دفين . . . كيف ؟
هذا الانسان الصغير الذي يتحرك في مرح عذب لطيف ، « هذا الاب الصغير ،
الرشيق الحركة ، الابيض اللحية كالثلج الناصع » ، أهو حقاً ايون نيقولايفيتش تولستوي ؟
ان القشعريرة التي احسها المرء سلفاً امام جلال الرجل العظيم تتلاشي الآن وتزول ،
بينما يرتفع النظر نحو وجهه وقد دبت الشجاعة فيه ، وسرت الجرأة في اوصاله .

ولكن الدم يكف بغتة عن الجريان في عروق اولئك الذين يتطلعون اليه
هكذا . ان نظرة رمادية قد قفزت عليهم ، كالافى ، من وراء دغل الحاجبين
الاشعثين ، هذه النظرة الفريدة التي تنطلق من عيني تولستوي ، والتي لا يستطيع اي
رسم ان يعطي عنها ادنى فكرة على الاطلاق ، والتي يتكلم عنها بالرغم من ذلك

سائر الذين ألفوا يوماً ما بانظارهم على بحيا الرجل الشهير! هذه النظرة تسمرك في مكانك ، فكأنها طمئة نجلاء من سكنين قاسية النصل ، براءة مثل الفولاذ الصقيل . وهذه الحركة تصبح عليك مستحيلة ، وكذلك الافلات من تلك النظرة ، بل لا بد لكل انسان ، وقد اطبقت عليه أغلال قوة مغناطيسية لانقاوم ، من الخضوع لهذه النظرة التي تخترقه حتى اعماق باطنه . ليس من سبيل الى الهرب امامها ، ولا من ملجأ للاختفاء منها ، بل هي تثقب — مثل القذيفة — سائر دروع التمويه والتخفي وتنفذ منها ، وتقطع مثل الماس كل ما تصادفه من جليد وتحطمه . . . ان احداً لا يستطيع (وهذا ما يؤكد تورجنيف وجوركي ومائة آخرون) ان يكذب امام نظرة نولستوي الحادة النفاذة .

ولكن هذه العين لا تحتفظ بنسوتها المتفحصة الا ثانية واحدة فقط ، بل ما اسرع ما تلين قزحيتهما وتطلق بريقاً رمادياً ، ثم تروح ترتعش كالغراشة بارتسامة متحفظة ، او تضيء بلعان عذب يطفع رقة وعطفاً . . ان سائر تبدلات العاطفة وتحولاتها تلعب باستمرار وقرح ، مثل ظل السحب على وجه المياه ، في هاتين الحدقتين السمريتين اللتين لاتعرفان الراحة ابدآ . ان الغضب قد يفجرهما في شرارة جليدية وحيدة ، والاستياء قد يجمدهما في بلورة باردة نقية ، والحنان قد يدفئهما بشماعة الحار ، والهوى قد يشعلهما بلهبه المتأثر . هذان الكوكبان العجيبان قد يبتسمان بفعل نور باطني دون ان يتحرك الغم القاسي ابدآ ، فاذا ما ارسلت الموسيقى فيها لينا ورقية يستظبعان ان « يسحاسبلا من العبرات » ، كما تفعل عينا فلاحه شقية بائسة . انهما يقدران ان يستقيا النقاء والصفاء في رضى الفكر واكتفائه ، او يظلما حزناً على حين غرة ، اذا ما دبت الكتابة اليها ، كي يتقلصا من جديد ويظللها الغموض ، فيعودان بمنعنين على الادراك عصيين على الفهم . انهما يقدران ان يلاحظا الاور ، باردين قاسيين لا يعرفان معنى للرحمة او الشفقة ، مثلما يقدران ان يقطعا كالشرط ، وان يشما ككنار روتنجن ، كي يجتاحها في اللحظة التالية

انعكاس مترافص ، انعكاس فضول يشوبه المرح ولا يبرأ من البهاشة ايضاً .
 هاتان العينان ، انها تتكلمان سائر لغات العاطفة ، وهما ابلاغ الاعين التي التمتعت
 ابدأ تحت جبين بشري واقواها تعبيراً . رانه جووكي الذي يجسد ، مثله دوماً ،
 اصدق كلمة كي يصفها عندما يقول : « ان تولستوي ، في هاتين العينين ، يملك
 مائة عيناً ، » .

هاتين العينين ، وهما وحدهما ، تبدو العبقرية في وجه تولستوي وتجلي .
 ان كل القوة الاشعاعية التي يملكها هذا الانسان الذي كان نظرة كله ، تتمركز في
 الف صفيحات عينية فقط ، مثلما يتمركز جمال دستوفسكي - الرجل الفكري -
 في الصورة الرخامية الجانبية لجبينه الرائع . وكل شيء آخر في وجه تولستوي ،
 الاحية والشوك معاً ، لا يزيد عن ان يكون غلظاً فقط ، فراغاً واقياً يخفي في محق
 سحق المادة الثمينة لهذين الحجرين المضيئين ، الساحرين والمغناطيسيين ، اللذين
 يتلعنان الكون فيها ، ثم يشامنه خارجاً عنها ، فلا يعرف زماننا طيفاً للكون اكثر
 منها دقة وامانة . . . ان العالم ليخلو ، في الحقيقة ، من كل صغير دقيق لا تستطيع
 هاتان العدستان ان تبيانه للعيان بوضوح وجلاء . . . هاتان العينان تستطيعان ،
 مثل السهم الموتر ، او مثل العقاب الذي ينقض من الاعالي المفرقة في البعد على فأر
 يولي الادبار ، ان تنفضا على كل صغيرة ، مثلما تستطيعان في الوقت ذاته ان تعانقا
 - في نظرة واحدة - سائر آفاق الكرة الارضية . انهما تستطيعان ان تشعا في
 احياء العالم الفكري ، مثلما تستطيعان ان تضربا - دون عثار - في ظلمات النفس
 الحالكة فلا تحططان ، وكأنهما تتجولان في ملكة الهواء الحرة العظيمة . هاتان البلورتان
 المتألفتان ، انها تملكان من الحرارة والطهارة ما يكفي لكي تشاهدا الله في حليق
 اشراقي ، مثلما تملكان الشجاعة ايضاً على سبر أغوار العدم السحيقة - رأس ميدوز (١)

(١) احدى آلهة اليونان . . . كانت مشهورة بجبالها ، وجال شعرها بصورة خاصة . غضبت
 منيرفاعليها ، فصوت شعرها الى افاعي سامة ، وجعلت لعينها قوة تستطيع ان تحيل حجراً كل من
 يقع بصرها عليه . ولقد قطع بيرسي رأسها وحمله في سفراته كي يخيف به اعداءه .

الخوف هذا ، الذي ترافقنا بحياه المذهول بانتباه وامعان عظيمين . ليس شيء مستحيلاً بالنسبة الى هذه العين ، اللهم الا شيء واحد ربما ، ألا وهو البقاء في جمود وبلادة ؛ النوم والانعفاء في احضان الفرح المهادىء النقي ، بين ذراعي سعادة الحلم وغبطنه . . . كلا ، ان الجفنين لا يكادان يتباعدان حتى تنطلق هذه العين ، بصورة قاهرة ، تفتش عن فرسة لها ، وقد افاقت في عنفوان جبار ، وطردت الهم دوننا رحمة او اشفاق . . . انها تخرق كل خرافة ، وتكشف اللثام عن كل كذب ، وتسحق كل عقيدة . . . فالكل يتجرد امام عين الحقيقة هذه ويتعري . . . وانه سيكون امرأ رهيباً حقاً اذا ما رفع تولستوي هذا الخبير الفولاذي الرمادي اللون ضد نفسه . . . أن شفرته لتغور اذن ، قاتلة ، حتى اعماق القلب . . .

ان من يملك مثل هذه العين يرى الحقيقة ، والعالم وكل المعرفة ملك يديه . ولكن المرء لا يكون سعيداً بمثل هاتين العينين ، الصادقتين ابدأ ، اليقظتين في كل الاحايين .

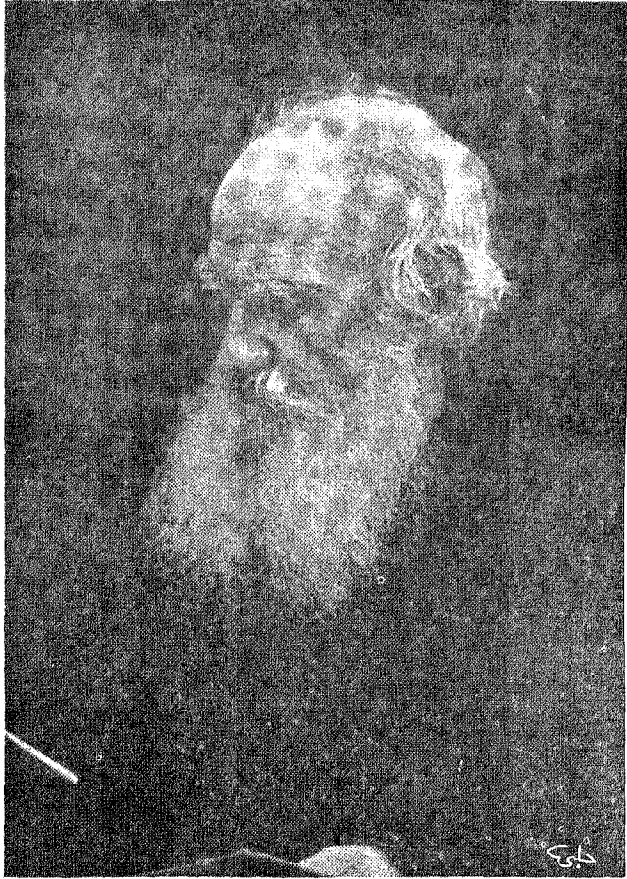


هيويتة تولستوي ونقيضها

« اودا ان اعيش طويلا، طويلا جداً، وان فكرة الموت لتتلأني رهبة طفولية وشعرية . »

تولستوي

من رسائل الصبا



ليونہ نولستوي ، عام ۱۹۱۰

صحة مكتملة ، وجسد قد حتى يعيش قرناً كاملاً ، وعظام متينة مشبعة بالنخاع ، وعضلات عقدية ، وقوة تمينة بدب حقيقي : ان تولستوي الفتي يستطيع ، وهو متمدد على الارض ، ان يرفع في الهواء بيده الواحدة جندياً ثقيلاً ... واورتار مرنة ، فهو في المدرسة يقفز - دون انطلاق وبسهولة تامة - فوق اعلى حبل يتمرن الطلاب عليه ، ويسبح مثل السمكة ، ويمطي الجواد كأحد القوزاق ، ويحصد مثل فلاح قضى العمر كله في الحقل ... ان هذا الجسد الحديدي لا يعرف تعباً الا ذلك الذي ينشأ من الفكر .. كل عصب موتور يهتز حتى الحد الاقصى مرناً ومقاوماً في وقت واحد ، فكأنه شفرة (طليطلية) ، وساكن الحواس حادة يقظة منبهة لا يسطو النوم عليها ابدأ ... ليس ثمة ثلثة ، او فجوة ، او نقص ، او عيب ، في هذا الحاجز المستدير من القوة الحيوية ، وبالتالي فان الداء لم ينجح ابدأ في اقتحام هذا الجسد المبنى من الحجارة المنحوتة .. ان صحة تولستوي العجيبة لا تبرح حصينة ضد كل ضعف ، مسورة ضد كل شيخوخة .

وحسبوية لانظير لها : ان سائر فناني العصور الحديثة لبيدون - الى جانب هذا العنفوان التوروي المجلل بلحية هادرة ، فلاحية ، بربرية - نساءً ضعيفات ويفعاناً ناهلين ، بله ان اولئك الذين كانوا يساؤونه في القوة الخلاقة حتى اسن متقدمة جداً ، هؤلاء ايضاً قد شاهدوا جسدهم يشيخ ويتعب تحت ثقل الفكر المتحرك ابدأ ، الساعى دوماً وراء صيد جديد . وان جوتته الذي يتفق واياه - ان بتاتل يوم الولادة ، الثامن والعشرين من آب ، او بالنظرة المبدعة الى الكون ، والذي تماسك ايضاً حتى الثالثة والثلاثين - ان جوتته ، في الستين ، قد تصلب وامسى يخاف الشتاء ويرهبه ، فهو منذ زمن بعيد لا يرى الى العالم الا من وراء نافذته المغلقة بعناية فائقة واحكام تام ، .. اما فولتير ، وقد تعظم واشبه طير آ ينذر فآله بالويل والثبور اكثر منه

مخلوقاً انسانياً، فيحك الورق على مكتبه ويحكه دون جدوى أو فائدة؛ بينما كانت، وقد تعب وقسا عوده، يذهب ويجيء مثل مومياة ميكانيكية على طول سمره في كنتسبرغ؛ في حين ظل تولستوي، هذا المعجوز الذي يطفح قوة وعزماً، يغمس جسده الأحمر من البرد في الماء المتجدد وهو ينتفض كالعصفور بالله الندى، ويشذب الأشجار في الحديقة دون كلل، كما يركض بخفة ورشاقة خلف الطابات في ملعب الناس؛ ويروده الفضول، وهو في السابعة والستين، فيريد ان يتعلم امتطاء الدراجة؛ وفي السبعين يروح يتزحلق في الساحة المتألقة برشاقة تامة؛ وفي الثمانين يدرّب يوماً عضلاته في تمارين رياضية عنيفة؛ وفي الثانية والثمانين، وهو على قاب قوسين من الموت، يلوح بعد بالسوط فوق رأس فرسه اذا توقفت عن الركض، او تارت احتياجاً بعد عشرين فرسخاً قطعها في عدوٍ سريع. كلا، ليس هناك مقارنة ممكنة، فالقرن التاسع عشر لا يعرف ابداً مثيلاً لمثل هذه الحيوية القمينة بالصور الاولى من العالم.

وهذه العصون قد بلغت سماوات السنوات البطريكية، دون ان يحف جذر واحد في شجرة الحور هذه، العملاقة في الارض، المنتفخة بالنسغ حتى آخر ليف يها. ان العين تظل ثابتة حتى ساعة الموت، فتولستوي عندما يكون مهتماً بجواده ترى نظراته الطلعة اكثر الحشرات دقة ترحف على قشر الاشجار، كما انه في غنى عن المنظار كي يلاحق طيران العقاب في السماء العريضة، والاذن منه تظل حادة السمع، كما ان خيشوميه الواسعين، الحيوانيين تقريباً، يمتصان كل رائحة لذيدة ويبتلعانها في نهم شديد وجشع لامثيل له. ان نوعاً من النشوة تطبق دوماً على هذا الشيخ الابيض اللحية عندما يستنشق بغمّة، اثناء زهاته الربيعية، الرائحة القوية المتصاعدة من الدمن والمختلطة بدمرة الارض التي تتعري عن الجليد، فيشهد عندئذ في ذاكرته، بكل وضوح، ثمانين ربيعاً من الزمان القابر يضع كل منها انطلاقه الخاص، اولى دفعات أبحرته، في هذه الدفقات من العطر الوحيد... ان الاحساس الذي ينتابه اذن لشديد الحيوية، شديد التأثير حتى تبطل عيناه على حين غرة وتدعمان...

ان ساقيه المعصبتين، ساقى الصياد في حدائي الفلاح المرهقي الثقيل، يذرعان في كل حدب وصوب التربة الندية، ويده الثابتة لاتعرف ارتعاش الشيوخ وتردد دم،

وخطه في رسالة الوداع يحمل بعد تلك الخطوط الكبيرة والشطحات الطفولية التي يتميز بها في سنه الاولى ؛ وفكره ، هو ايضاً ، ما برح يدوم دون هراة ، سليماً بصورة رائعة مدهشة مثل اوارده واعصابه ، فهو في الحديث يتألق ويشع ويتجاوز الجميع ، بينما تحفظ ذاكرته - بدقتها المرعبة - حتى انفه التفاصيل ، فلا يفلت شي من قبضتها المتينة ، ولا يستطيع محك السنوات القاسية ان يمحو اي بروز او يلين من حدته . وان حاجبي الرجل العجوز ليرتجفان بعد غضباً كماً لقي موارضة ، بينما يدور الضحك الرنان شفته الغليظة ، ولسانه ما برح خصباً بالصور المبتكرة ، بينما الدم الحار ابدأ يطلب ان يكتفي ويشبع . وعندما اعترض احدهم ، اثناء مناقشة عن « السوناتا الى كروتزر » ، على الرجل البالغ السبعين من العمر بأنه يسهل في مثل سنه ان يقلع المرء عن الشهوانية ، اذا عين العجوز القعد تلقى شرر الكبرياء والغضب ، واذاهو يهتف : « هراء ! ان الجسد ما برح قوياً بعد ، وما زلت حتى الآن اقاوم ! » .

ان مثل هذه الحيوية الراسخة ، العصبية على الزوال ، تستطيع وحدها ان تفسر تلك القوة الخلاقة التي لاتعب او تكلل ابدأ ولا ينضب لها معين او يحف قط . . ليست هناك سنة واحدة بين السنوات الستين من جهاده الدنيوي قد ظلت مجدبة غير مثمرة ، كما ان هذا الفكر لم يعرف سبيلاً الى الراحة ابدأ ، وهذه الحماسية المستيقظة بصورة رائعة ، الالهضة بصورة عجيبة ، لم تذق يوماً طعماً للنوم او للناس . . ان تولستوي ، حتى في ايام شيخوخته ، لا يعرف معنى المرض الحقيقي ، والاعياء لا ينال ابدأ - بصورة جديدة - هذا العامل الذي يشتغل عشر ساعات في النهار ، وحواسه الناشطة دوماً لاحتياج الى لسعة سوط المنبهات من خمر او قهوة ، مثلما هي في غنى عن الاستدفاء بالكحول او اللحوم ، حواسه المروضة هذه سليمة جداً ، مستعدة ابدأ للهجوم ، والفرح يغمرها ، متوترة على الدوام بصورة شديدة المرونة ، عامرة جداً بالطاقة الداخلية في كل الاحايين حتى لتروح تهتز لدى ادنى احتكاك ، وحتى لتكفي قطرة واحدة كي تطفح بها . . ان صحته الجبارة لاتمتع بشرته من ان تكون حساسة (كيف كان يمكن ان يكون فناً لو لم تكن له هذه الاثارة القصوى ؟) فلان مس مفاثيح اعصابه ، السليمة في جوهرها ، لا يحدو

شديد ، لأن عنف ارتكاسها هو بالضبط ما يجعل سائر انفعالاته شديدة الخطورة ،
عظيمة الانفجار ...

ولهذا فهو (مثل جوته وأفلاطون) يخشى الموسيقى ، لأنها تثير بعنف شديد
امواج شعوره العميقة الخفية .. انها تهاجم دون هوادة اعصاب اهوائه المنتفخة
بدماء حيويته ، او كما يقول عنها : « انها تؤثر في بصورة رهيبية » . وفي الحقيقة ، فبينما
عائلته تجلس حول البيان تصغي في لطف وعدم اكتراث الى الالخان العذبة ، يأخذ
خيشوما تولستوي بالارتحاف بصورة مخوفة ، وينقبض حاجباه ويتخذان موقف
الدفاع ... انه يحس « ضغطاً غريباً حول عنقه » ، فلا يلبث ان يستدير بعنف ،
على حين غرة ، ويسرع الى الباب هارباً ، لأن المبررات قد انبثقت في عينيه .. قال
مرة ، وهو مذعور من نفس انتصاره : « ماذا تريد مني هذه الموسيقى ؟ » . انه يحس
انها تريد شيئاً مانه ، انها تهدد بسلبه ما قرر ألا يسلمه قط للآخرين ، شيئاً يحتفظ به
في احماق دولاب عواطفه الخفي ، فاذا اختار عنيف يحدث في باطنه بالرغم من ذلك ،
انثائق يده بأن يتجاوز السدود ويحطها ...

ليس من يدري اي شيء فائق الجبروت ، قوته وافراطه يخيفانه ويلقيان
الذعر في قلبه ، يأخذ بالحركة فيه والفوران ... انه يحس بالرغم منه ، في اعماق احماق
كينونته ، ان موجة الشهوانية تطبق عليه وتحمده به - عنوة - عن الصراط
المستقيم ... ولكنه يبغض (او يخشى) - بسبب ذلك الافراط الذي لا يعرفه ،
بكل تأكيد ، أحد سواه - شهواته الخاصة ، الأمر الذي يدفعه الى مطاردة
« المرأة » ايضاً بمجد الناسكين ، فقد لا يمكن ان يكون طبيعياً عند رجل سليم .
ان المرأة لاتبدو له « عديمة الاذى إلا عندما تنهك في امور الامومية ، اذا كانت
متواضعة ، او اذا اضفى عليها السن جلالاً ووقاراً » ، يعني فيما وراء تلك العاطفة
الجنسية التي « احس بها طوال حياته كعيب في جسده ثقيل مرهق » ... ان
ان المرأة ، مثلها مثل الموسيقى ، تمثل بالنسبة الى هذا العدو للاغريقية ، هذا

المسيحي المصطنع ، هذا الراهب بالرغم منه ، تمثل الشر ولا تمثل شيئاً سواه . . .
ان هذه ، وتلك ، المرأة والموسيقى ، يجيدان بنا بواسطة الشهوانية « عن ميزاننا
الاصيلة من شجاعة وعزم وعقل وعدالة » . . . انها تقودانا ، كما « سيدشر الاب »
تولستوي فيما بعد ، « الى الخطيئة الجسدية » . . . انها « تتطلبان منه شيئاً ما » يرفض
أن يعطيه . انها تلمسان فيه شيئاً خطراً يخشى إيقاظه . .

وليس من حاجة الى كثير من الذكاء ليخمن المرء ان المعنى ههنا شهوانية
شيطانية قد كبح تولستوي جماحها بصبر وعزم في نضال دام سنوات طويلة ،
لكن دون ان ينجح في خنقها بصورة نهائية وسحقها بصورة تامة ، حيث بقيت
- بعد ان روضها واستعبدها وهزمها وأرقتها بالنسوة دون شفقة - رابضة في
زاوية خفية من كينونته ، ترتعش أظافرها وهي على اهبة الاستعداد للقفز في اول
لحظة تنعدم فيها المراقبة عليها . . . الموسيقى : هذا رباط الارادة يرتخي ، فاذا
« الحيوان » ينتصر . النساء : هذه الكلاب تعوي وتزجر متمطشة الى الدم ،
وهي تمزق قضبان السجن الحديدية . . . بهذا القلق الرهباني المجنون ، بهذه القشعريرة
الخبولة اللذين يجتاحان تولستوي تجاه الشهوانية السليمة والصافية ، العارية
والطبيعية ، هذين الشينين وحدهما يستطيع المرء ان يخن ذلك العنفوان الجدير
بالاله بان ، ذلك الثوران الجامح ، ثوران الحيوان الانساني المختبئ فيه والذي
انطلق على هواء ، في ايام شبابه ، في إفراط همجي (انه ينعت نفسه في خطاب الى
تشيخوف بـ « الزاني الذي لا يتعب » كي يظل فيما بعد حسيباً بالرغم منه طوال خمسين
عاماً تحت قيب الاقبية - مسوراً ولكن غير مؤرد . . . ان امرأً واحداً في العمل
الاخلاقي المطلق الذي حققه تولستوي ، يكشف اللثام عن كون شهوانية هذا الرجل
ذي الصحة المائتة قد بقيت مفرطة طوال حياته ، وذلك هو خوفه من « المرأة »
بالضبط ، الجرية ، هذا الخوف الذي يذكرنا بأبار الصحراء ، هذا الخوف الهادر
والاكثر من المسيحي الذي يضطاره بالرغم منه الى غض ناظره ، والذي ليس هو

في الحقيقة الاخوف من نفس شهواته التي تسخر فيما يبدو من سائر الحدود وتجاوزها .
 دوماً وفي كل مكان نحس الشيء نفسه : ان تولستوي لا يخاف من اي شيء ،
 مثلما يخاف من نفسه ، من قوته القمينة بدب جبار .. ان نشوة السعادة التي كثيراً
 ما ترسلها في اوصاله صحته فوق العادية ليعكس صفوها ، بصورة محتومة لا مفر منها ،
 الرعب الذي يبعثه فيه جبروت حواسه الحيواني العاتي .. لقد صبح جاح هذه
 الحواس ، بكل تأكيد ، كما لم يفعل احد من قبله قط ، ولكنه يعرف حق المعرفة
 ان المرء لا يكون - عبثاً - انساناً روسياً ، الرجل الشعب وابن شعب متطرف ،
 ان المرء لا يكون - عبثاً - مجنوناً بالمتطرفات ، عبثاً لكل ما يتجاوز الحدود
 الطبيعية . وهذا هو السبب في ان ارادته العاقلة تتعب جسده ، وهذا هو السبب في
 انه يشغل حواسه دون انقطاع ، فيفسح الميدان لها ، ويقدم اليها العبا غير وؤذية ،
 ويفيض عليها بالهواء والسرور ، وما ذلك كله الا كي يغذيها ويشبعها .. انه يرقى
 عضلاته بمجدد بربري في استعمال المنجل وقيادة المحراث ، ويتعبها بالرياضة البدنية ،
 والسباحة والفروسية ، كي ينتزع منها زعافها ، ويجعلها عديمة الأذى ، عاجزة عن
 الضرر ... انه يدفع قوته الخطرة الى الخروج من الحياة الخاصة كي تنتشر في الطبيعة
 حيث ينطلق في هياج لاحدود له كل ما تلجحه طاقة ارادته في حياته الباطنة ..

ولذا كان الصيد هوى احواله .. ههنا نجد سائر الحواس ميداناً لها ، ان كانت
 بناتاً للنور ام بناتاً للظلمة ... ان غرائز قديمة جداً ، موروثه عن اجداد وسكوفيين
 وربما تترين ايضاً ، موروثه عن اجيال من الفرسان الرحل والمحاربين المهجيين ،
 لتستيقظ اذن بصورة شيطانية في دماثة الحبيسة عادة ... ان الشهوانية المخوفة ترفع
 رأسها وتناجح ، وتولستوي الذي لم يصبح رسولاً بعد ، يسكر عندئذ براحة الجياد
 الناضجة عرفاً غزيراً ، ويهياج العدو الجنوبي ، وبالسباق والجولات المجنونة التي تبسط
 الاعصاب وتحمل اليها الراحة ... لابل انه يسكر (وهذا امر يمتنع على الفهم عند
 ذلك الذي سيصير مجنون الاشفاق في ايامه المقبلة) بذعر الفريسة الصريعة وعذاباتها ،

الفريسة الدامية التي يبدو ان نظرتها الجامدة المحطمة تتأمل السماء الواسعة الابعاد حيث كانت تحلق قبل لحظة قصيرة .. وانه ليعترف ، عندما يحطم جمجمة ذئب كاسر بضربة من هراوته ، بأنه يحس « لذة حقيقية رائعة لدى مشهد آلام الحيوان الذي يلفظ انقاسه الاخيرة » . . . وان المرء ليخمن ، من هذه الدفقة الهلابة من التعطش الى الدم ، سائر الغرائز الحيوانية التي كبح جماحها في نفسه طوال حياته ، اللهم الا في سنوات صباه المجنونة . .

ان يديه ما برحتا ترتجفان بالرغم منه وكأنها تريدان ان تطلقا النار، حتى بعد زمن طويل من زهده في الصيد عن قناعة اخلاقية ، اذا مارأى ارنباً برياً ينطلق على حين غرة امام عينيه عبر الميدان الفسيح . . انه الحيوان الاموي ، السكائن الفريزي الذي يشد على سلاسله . . ولكنه يكبح بعنف ، وبصورة دائمة ، هذا الهوى مثلما يفعل بكل هوى آخر ايضاً . واخيراً ، فان الفرح الذي تمنحه الامور الجسدية الى حواسه يكتفي بتأمل الحياة البسيطة وتصويرها فقط . . . ولكن اي فرح جامع جلي هو هذا ايضاً ! ويا لحواسه السكرى بانطلاقها ، كيف تمدو ، تنشر امواجها وتطبق على فريستها ، منذ اللحظة التي يقودها فيها الى الطبيعة الحرة ! وما أقل ما يلزمها كي تهتاج وتأثر ! ان ابتسامه راضية تباعد كثيراً ما بين شفتيه كلما مر قرب جواد جميل ، فبروح - في لذة شهوانية تقريباً - يرت على اعطافه الدافئة الحربية ، ويسمع عليها حتى تسيل من بين اصابعه حرارة الحيوان الحافظة . . . ان كل ماهو حيواني خالص يلاؤه تمللاً وإشراقاً ، حتى انه ليتأمل - مسحور العينين - رقص الفتيات طوال ساعات عديدة ، مأخوذاً فقط بما في هذه الاجساد اللدنة من الرشاقة والالطف والليونة . . . واذا ماالتقى برجل جميل ، او بامرأة صبوحة الوجه ، فانه يتوقف عن المسير او عن الحديث ، لاشيء إلا كي يرضي دهشته الفرحة ، ويهتف في حماسة واندفاع : « ما أروع الجمال الانساني ! » . ذلك انه يجب الجسد ، هذا الخوض للحياة الحية ، هذا السطح الذي يحسن النور ويعكسه ، هذا العضو التنفسي للهواء الحلو

المذاق ، المتدفق من الف ينبوع وينبوع ، هذا الغلاف للدم ذي الدوران المحرق ..
لانه يهواه في مجموع خفقانه الجسدي لانه يجد فيه معنى الحياة وجوهرها ..

بلى ، انه ليحب الجسد ، هذا الذي لم يعرف الادب العالمي مغرماً بالحيوانات
اكثر تأججاً منه ، مثلما يحب الفنان آله الموسيقية .. انه يحب الكائن الحكيم
لأنه يجد فيه اكثر اشكال الانسان طبيعية ، ويحب ذاته في جسده البدني اكثر مما
يجب ذاته في نفسه الهشة التي تتحدث بلغة مضاعفة . انه يحبه في سائر الاشكال وسائر
الأزمان ، منذ البداية حتي النهاية ، وملاحظته الاولى الواعية عن هذا الهوى الذاتي
(وهو ليس بالخطيئة) لتعود الى السنة الثانية من حياته ...

ويجب ان نصر على هذه الناحية كي نفهم جيداً بأي وضوح واي جلاء تظل
سائر الذكريات مرتبة عند تولستوي ، مثلها مثل حصوة تحت تيار الزمن . وينسا
يكاد جوته وستندال ألا يتذكر انطباعات سنهها السابعة او الثامنة ، يحس تولستوي
— وهو بعد في الثانية — مشاعر تبلغ من التعقيد ما يبلغه الفنان الذي كان مدعوآلان
يصير اليه ... مشاعر تتوسطها ، بقوة عظيمة ، وفرة حواسه وتعددها ... فلنقرأ
هذا الرصف لاول انطباع تركه فيه جسده : « اني اجلس في محم من الخشب ،
تحيط بي من كل حدب وصوب رائحة جديدة بالنسبة الي ، ولكنها ليست كريهة ،
رائحة سائل يفر كون به جسدي ... لا ريب انها مياه النخالة التي كانوا يستعملونها في
اغتسالي ... وان جدة هذا الانطباع تؤثر في ، فألاحظ للمرة الاولى ، في حنان ،
جسدي الصغير ، وقد بانت اضلاعه في القسم الامامي من الصدر ، كما ألاحظ وجنتي
مرضتي الفاتمين للمساوتين واكمامها المرفوعة ، وكذلك مياه النخالة الحارة الداخنة
ورشرساتها . ولكني لآنسى ، بصورة خاصة ، ذلك الاحساس من المادة المصقولة
الذي يرسله اللحم في كاسها مررت بيدي الصغيرة على جوانبه .

وإذا اردنا الآن ان نحلل ذكريات الطفولة هذه ونصنفها حسب مناطقها
الحواسية ، لدهشنا اذن من ذلك الكمال التام الذي يشاهد به تولستوي العنالم

الخارجي ، وهو في هيكل اليرقة الصغيرة لطفل في الثانية من عمره . انه يرى تلك التي تعنى به ، انه يشم رائحة النخالة ، انه يميز منذ الآن ذلك الانطباع الجديد ، انه يحس حرارة الماء ، انه يسمع الضوضاء ، انه يتلمس جذر الخشب المصقول ، واذا سائر هذه الانطباعات المتواقة لختلف الجبال العصبية تؤدي الى تأمل الطفل ، « بجنان » إجماعي ، لجسده الصغير ، باعتباره سطحاً جماعياً تعبر به كل احساسات الحياة عن نفسها .. واننا لنرى كيف تلتحم محاجم الحواس بالوجود في وقت مبكر جداً ، وبأية قوة واية دقة في الوجدان ينفصل ادراك العالم عند الطفل منذ الآن الى انطباعات متميزة مفترقة ... ولقي وسعنا ان نقدر منذ هذه اللحظة مبلغ ما يمكن لهذه العضوية ، اذا ما أصبحت بالغة يوماً ، ان تضيفه من الحدق والشدة معاً على كل انطباع يوم يكمل الطفل نضوجه ، وتنتفخ حواسه بالتخاع والقدرة العضلية ، ويشهد الوعي احساساته ، ويوتر فضول الحياة المصابه ويشدها .. وعندئذ سوف يزدهر هذا الارتياح البدئي الذي يهب الطفل اللعوب الاحساس العميق بجسده الصغير في المحم الضيق ، عندئذ سوف تزدهر لذة بالغة بالوجود ، لذة همجية تكاد تكون سكرة ... وان الرجل البالغ ، مثله مثل رضيع الأمس ، سوف يختلط ، في شعور وحيد بالنشوة ، الخارج والباطن ، الكون والأنا ، الطبيعة والحياة جميعاً ...

وفي الحقيقة ، ان هذه النشوة بالأنا المتعددة بشمول الاشياء ، كثيراً ما تنطبق على تولستوي الذي بلغ الرجولة ، فكأنها هذيان مسمر ... يكفي ان نقرأ ان هذا الانسان الجبار ينهض احياناً في الليل ، وينادر فراشه كي يفدو الى الغابة يتأمل العالم الذي اختاره من بين ملايين الاحياء كي يحسه بقوة ووضوح يتفوقان احساس الآخرين به ، وانه ينفخ صدره على حين غرة باسراق عظيم ، ويمد ذراعيه ويفتحهما واستغيتين عريضتين وكأنه يستطيع ان يمكس اللانهاية التي تعذب نفسه في الهواء الطي الطنان من حولها ، او انه ينحني ايضاً ، وهو لا يقل انفعالاً بأحقر الاشياء منه بما تداد الكون العظيم ، كي يرفع عن الارض نبتة صغيرة سحقتم بعض الاقدام ، ويسوي

اوراقها في عطف وحنان فائقين ، او كي يتأمل مسأخوذاً الأعيب حشرة صغيرة مضطربة الطيران ... ومن ثم ، اذ يرى ان بعض الاصدقاء يراقبونه ، يستديو جانباً بسرعة كيلا يفضح الدموع المتوقفة في عينيه . ان احداً من الشعراء المعاصرين ، حتى والْت وهايتان نفسه ، لم يحس بمثل هذه القوة ماتبعته الاعضاء الارضية والجسدية من لذة حكيمة عاتية فينا . وليس بينهم من اجتذب اليه ، من احضان الابددي ، بكل هذا الروضر والحدة ، سائر التفاصيل على الاطلاق (وهو ينظر ، ويحس ، ويشم الاشياء في وقت واحد) مثل هذا الروسي ، مجيها شهوانيته القيمة بالاّله بان ، باله قديم حاضر في كل مكان . وعندئذ نستطيع ان نفهم هذه الكلمة التي هتف بها بكل فخر واعتزاز : « اني ، انا نفسي ، الطبيعة ! » .

هذا الروسي المتفرع الاغصان ، الذي يؤلف كوناً مستقلاً قائماً بذاته في هذا الكون الذي يحيط بنا ، كوناً تمتد جذوره قوية متينة في تربته الموسكوفية ، ليخيل اليك ان شيئاً في هذا العالم لا يمكن ان يززع ثباته الراسخ ، الجسدي والفكري جميعاً ... ولكن الارض نفسها قد ترتجف في بعض الاحيان بفعل زلزال يهزها في اعماق باطنها ، وهكذا تولستوي ايضاً يترنج احياناً في ملء يقينه الثابت الوطيد الاركان .. هذه عيذه نجمد على حين غرة ، وهذه حواسه تتأرجح ولا تجد امامها الا الفراغ وحده ، الفراغ الخفيف ، لان شيئاً منها - غريباً غير مألوف - قد دخل ساحة بصره ، شيئاً تعجز الحواس عن اهرالك معناه ، شيئاً يظل خارجاً عن حدود الكمال الدافئ الذي يتمتع به كلا الجسد والحياة جميعاً ، شيئاً لا يفقه له معنى بالرغم من توتر اعصابه التام ، شيئاً يخرج عن متناول يده ، هو رجل الحواس ، لأنه ليس بالشيء الارضي ، بل هو عنصر لا يستطيع ان يتصه وان يمزجه بنفس مادته وعناصره الخاصة ، شيئاً يلقي ظلاً غريباً وراء كل ما يعمل الانسان سعيداً ، وكل ما يمكن للاحساس ان يبلغ اليه ، شيئاً لا يقبل ان يس او يوزن ، ويرفض ان يدخل في شعور الكون الشامل ، هذا الشعور الصادق ابدآ ، المتعطش دوماً ... وفي الحقيقة ، كيف

السبيل الى الامساك بهذه الفكرة المحرقة التي تشق ، على حين غرة ، الفراغ المستدير الذي يؤلف مسرحاً تجري الحوادث على خشبته ؟ كيف السبيل الى تصور هذه الحواس المتدفقة الحفاقة بالحياة وقد انقلبت يوماً ما خرساء صماء ، وهذه اليد وقد اضعفت معرفة من اللحم مجردة عن الاحساس ، وهذا الجسد العاري الجميل الذي يلتهب في هذه اللحظة بنيار الدماء الجارية في عروقه وقد امسى مرعى للديدان تنمش فيه ، وهيكلأ بارداً كالخجر الأصم لايحس ولايعي ؟ ماذا يحدث ياترى لو انبتش عنده ايضاً ، هذا اليوم او غداً ، ذلك العدم ، ذلك الشيء الاسود الرابض خاف الحياة ، ذلك الشيء الذي لايمكننا ان نقاومه وندافع عن انفسنا ضده ، كما لايمكننا في اي مكان ان ندركه بوضوح وجلاء ؟ ماذا يحدث ياترى لو ان ذلك الحضور ، المتمتع عن الحواس ، تسرب الى داخله ، هو الذي مايزال يقطع بعد بعصارات الحياة وعنفوانها ؟

ان الدم يجمد في عروقه ويكف عن الدوران كما تملكته فكرة الفناء ... كان طفلاً بعد عندما التقى بهذا الفناء للمرة الاولى ، وذلك يوم قاده الى قرب جنائن امه ... كان شيء بارد صلب يضطجع هناك ، والحياة بالامس فقط كانت تدب في اوصاله طرية دافئة . ولم يستطع ، طوال ثمانين عاماً ، ان ينسى تلك الظاهرة التي عجز يومذاك عن تعليلها ، ان بالشعور او بالفكر ايضاً . ولكن ذلك الطفل البالغ من العمر سنته الخامسة ليطلق صيحة ، صيحة ذعر رهيبية ، ومن ثم يولي الاديان هارباً في فزع مجنون تلاحقه سائر آلهة الخوف وجنياته . وان فكرة الموت لتسقط عليه ، في كل مرة ، بالعنف نفسه اشبه ماتكون بصدمة شديدة ، او بقوة تضيق الحناق عليه حتى لتسكاد ان ترهق روحه ، ان لدى وفاة اخيه ام منية ام مية ام موت عمته ، كما ان تلك اليد الجلدية تطبق على عنقه ، في كل مرة ، وتجلده جالداً لارحة فيه ، فيحس أعصابه جميعاً وكأنها تتمزق تحت قبضتها القاسية الرهيبية .

وفي عام ١٨٦٩ ، قبل حدوث الازمة بفترة قصيرة ، وصف تولستوي ذلك

الربع الاصفر الشاحب» (وهذا هو نفس تعبيره) الذي ينتابه لدى كل انبثاق مماثل : « كنت احاول ان انام ولكني ما ان اضطجعت حتى تملكني ذعر عظيم ، واخذني ارتعاش شديد اجبراني على النهوض من فراشي . ذلك احساس من العذاب كالذي ينتاب المرء قبل ان يقيء ... ان شيئاً يحطم وجودي ارباً ارباً ، ولكن دون ان يأتي عليه تماماً ويفنيه ... حاولت مرة اخرى ان انام ، ولكن الربع كان حاضراً هناك ، احمر وابيض ... ان شيئاً ما يمزق كينونتي ويجتاح كل اوصالي بالرغم من ذلك . » ان الحادث الرهيب قد تحقق ، فقبل ان يرفع الموت اصبعاً واحدة على جسد تولستوي ، قبل موته الحقيقي بأربعين سنة ، كان الاحساس السابق به يتسرب الى نفس الحي دون ان يستطيع اي شيء ان يطرده منها بصورة نهائية . ان عذاباً عظيماً يعتمد في الليل حافة سريره ، انه يقضم كبد فرحة الحياة عنده ، انه يتسلل بين صفحات كتبه ويلتهم افكاره السوداء التي شرع النفسح ينال منها .

وهكذا نرى ان رهبة الموت عند تولستوي رهبة فوق إنسانية ، مثلها مثل حيويته التي كانت تفوق حيوية البشر . ولواننا نعتناها بالرهبة العصبية الشبيهة مثلًا بالخوف الناشئ عن الوهن العصبي الذي نجده عند اشجار ألان بوس ، او الشعور الصوفية اللذيذة الاثر التي نلقاها عند نوفاليس (١) ، او الاككتاب المبتسئ الحزين الذي نراه عند لوردو (٢) ، لكان في وصفنا هذا شيء كثير من الحياء والوجل . ههنا يتظاهر رعب بربري ، حيواني ، عاري ، ذعر خالص لاخليط فيه ، عاصفة جبارة من القلق ، خوف من غريزة الحياة التي تلاشت في التور واللحظة . ان تولستوي لا يرهب الموت كإنسان مفكر او كروح بطولية رجولية العنقوان ، بل انك لتقول عنه انه وسم بالحديد الاحمر فأصبح بعد الآن عبداً لذلك الربع يرتجف امامه بكل ذرة من ذرات كينونته ، ويطلق صيحات عنيفة حادة دون ان يستطيع ان يتمالك زمام

(١) شاعر ألماني صوفي النزعة من الشعراء القرن التاسع عشر .

(٢) شاعر ألماني معذب حزين ولد في هينغاريا (١٨٠٢ - ١٨٥٠)

نفسه ويستعيد هدوءه .. ان رهبته تنفرغ بشكل انفجارات من الملع الحيواني والجن المترنح ، بشكل صدمات شديدة لاتبقي ولا تندر ... وذلك هو العذاب البدني للخليفة وقد تجسد في انسان واحد ، ذلك هو الرعب الذي تعبر عنه - في جنون وخبل - اجيال عديدة تتكلم بلسان نفس واحدة . انه لا يريد ان يتسلم لتلك الفكرة ، لا يريد ذلك بل يرفضه ، فيحطم الرعب مفاصله بوحشية فائقة ، اذ يجب ألا ننسى انه قد هاجمه على غير انتظار ، بينما هو يرتع في هدوء لامتناه معدوم الحدود ، بحيث ان الانتقال بين الحياة والموت يعوز هذا الدب الموسكوفي الرابض في جبه بأمان وطمأنينة . ان الموت ، بالنسبة الى هذا الكائن الصحيح تماماً ، لشيء غريب عنه بصورة مطلقة ، بينا الانسان المتوسط يجد عادة جسراً ينتصب بسين الحياة والموت كثيراً ما يعبر ، وذلك الجسر هو المرض .

ان معظم الاشخاص ، عندما يقاربون الحسنيين ، يجدون في انفسهم عنصراً من عناصر الموت في حال الكمون ... فوجود الموت بالنسبة اليهم لم يعد شيئاً خارجياً تماماً ، مفاجأة ان صح التعبير .. ولذا فهم لا يرتشون لدى هجمته الاولى العنيفة على تلك الصورة الرهيبة .. خذ مثلاً دستوفسكي الذي ربط الى عمود الاعدام ، وقد عصبت عيناه ، ينتظر طلقات الرصاص التي ستضع حداً لحياته ، والذي كان يتردى في كل اسبوع فريسة لاختلاجات صرعية ، حتى لقد اعتاد هكذا على للمذاب ، واصبح يجابه ففكرة الموت بثبات اعظم من ذلك الذي لم يشك بها لحظة واحدة لانه يطفخ دوماً صحة وحيوية ، فلا يحمد ظل هذا الرعب الذليل تقريباً ، والذي ليس من ثقل يعمله ، دماءه يمثل الشدة التي يحتاج بها دماءه لتولستوي ، هذا الذي ينتابه الارتعاش لمجرد سماعه صدى الكلمة ، او لمجرد اقتراب فكرة الموت منه ... انه لا يحدد اكتمال قيمة الحياة الا في ازدهار اناه ، في « نشوة الحياة » على حد تعبيره ، ولذا فان اقل انقاص لهذه الحيوية يصبح في نظره نوعاً من الداء (كان في السادة والثلاثين ينعت نفسه « بالرجل العجوز ») . وذلك هو السبب في أن هذا الشعور الجديد - يتخترقه كالغذيفة من الجانب الواحد حتى الجانب الآخر .

أن من يحس الوجود بكل هذا الجبروت الجبوي يستطيع وحده، من دون سواه -
 وبفضل حادثة مكملة لذلك الاحساس ليس غير - ان يخشى اللاكينية بمثل تلك
 الشدة ، كما لا يمكن الا هذه الصحة التي تتجاوز كل حدود ان تدع بمثل هذه النعمة
 المهتاجة امام واقع الموت الذي يفوقها قوة وبطشاً . ولكن قيام حيوية شيطانية
 ههنا في وجه دعر من الموت شيطاني بدوره ، هو بالضبط السبب في حدوث مثل ذلك
 النضال العملاقي بين الكينونة واللا كينونة عند تولستوي ، هذا النضال الذي لا نجد
 له مثيلاً في الآداب العالمية جميعاً ، لان الطبيعة العملاقية تستطيع وحدها ان تبدي
 مقاومة جبارة عملاقة ايضاً . ان انساناً متسلطاً ، صنيدي الارادة ، مثل تولستوي ،
 لا يستسلم ويلقي السلاح - ببساطة وخضوع - امام العدم ، كما لا يبحث في جين عن
 مأوى له خلف ابواب الكنائس ، بل انه يتالك نفسه سريعاً بعد الصدمة الاولى ،
 ويقطع عضلاته ويشجدها كي يغلب هذا العدو الذي انتقض عليه بصورة مفاجئة من
 حيث لا يدري . كلا ، ان مثل حيويته الطافحة المرنة لاتقبل بالهزيمة دون قتال ، فهو
 لا يكاد يستيقظ من دعره الاول ، حتى يتحصن خلف متاريس الفلسفة ، ويرفع
 الجور ، ويروح يصب على العدو الحفي - بغية طرده - قذائف المنجنيق التي يتناولها
 من مصنع منطقته . وان الازدراء هو اول وسائل دفاعه : « اني لاستطيع الاهتمام
 بالموت ، لسبب رئيسي هو عدم وجوده مادمت على قيد الحياة » ويروح ينغته بأنه « لا
 يستأهل التصديق » ، ويدعي في كبرياء انه « لا يخاف الموت ، بل الخوف من الموت
 فقط » ، ويؤكد دون انقطاع (طوال ثلاثين عاماً !) انه لا يخشاه ، وانه لا يفكر
 فيه في عذاب وقلق ابدآ . ولكن هذه الاقوال جميعاً ينقضها بكل وضوح حقيقة
 انحصار عنايته ، منذ سنه الخمسين ، في قضية الموت وحدها ، بصورة مستمرة دائمة
 تفلت من نطاق ارادته - ليس بصورة سطحية عابرة ، بل « بكل قوى نفسه » ،
 دون ان ينجح بالرغم من ذلك في خداع اي انسان كان ، حتى ولانفسه ايضاً ..
 ليس في ذلك ادنى ريب ... ان فجوة قد حدثت في حاجز هدوئه الاخلاقي

والحكيم منذ اول هجرم شنه عليه ذلك الخوف النفساني ، فاذا سائر اعصابه وسائر افكاره تقع تحت رحمة هذه الجهات ، فهو لا يقاتل بعد سنته الحمين الاعلى انقاص الثقة التي كان يملكها فيما مضى بجيائه الخاصة . لابل ان وعيه استعالة الافلات من قبضة تلك الفكرة يزداد ويتفاقم بقدار ما يبذل من الجهود المسميتة كي يتترع نفسه من هذا الوسواس الذي يرهقه ويثيد عليه . ولم يكن امامه بد من الاعتراف ، وهو يتقهقر خطوة خطوة ، بأن الموت ايس مجرد « شبح » و « فزاعة » فهسب ، بل هو خصم يستحق عظيم الاحترام ، خصم لا يمكن اخافته بالكلمات البسيطة ... وعندئذ يجرب تولستوي ان كان يستطيع ان يجيا في احضان ضرورة الفناء التي لاغنى عنها ، وان كان يستطيع ان يعيش مع الموت مادام لا يستطيع ان يعيش وهو يناضل ضده .

وتبدأ ، بفضل هذا النور الجديد ، مرحلة ثانية ، خصبة هذه المرة ، في علاقات تولستوي مع الموت . انه « لا يتخبط ابدأ » ضد وجود هذا الاخير ، ولا يفذي قط الهم بامكان تنحيته بالمعالطات والسفسطات او قوة الارادة ايضاً ، وبامكان ابعاده عن عالم افكاره والخلص منه بصورة نهائية ، بل يسعى الى ادخاله في وجوده ، الى صهره بشعور حياته ، الى التجهر ضد ما لا بد منه ، الى « الاعتياد » عليه .. ان الموت لا يقهر ، وعملق الحياة الذي هو تولستوي يجبر على الاعتراف بهذه الحقيقة المرة ، ولكن الحشمية من الموت ليست كذلك ايضاً ، فهو يجند اذن كل قواه بعد الآن ضد هذا الخوف فقط . ومثل المتدينين الاسبانيين الذين ينامون في القبور كي يقتلوا في باطنهم كل فرق من الموت ، يروح تولستوي يارس ، بتدريب للارادة عنيد ويومي على غرار الايجاه الذاتي ، تقويماً للموت مستمراً لانقطاع فيه .. فيجبر نفسه على التفكير في المثبة على الدوام ، دون ان يهرب جانها ابدأ . ان كل مقطوعة من مذكراته تبدأ بأحرف ثلاثة غامضة : ا . ب . ح . (« اذا بقيت حياً ») .. وطوال سنوات عديدة يبدأ كل شهر من حياته بهذه الملاحظة ، هذا التذكير الموجه

الى ذاته : « اني اقترب من الموت » ، فيعتاد هكذا على التطلع اليه وجهاً لوجه دون وجل ... ولكن العادة تلين ما في الشيء من غرابة وتحفف من حدته ... انها تنصرف على الموت ! وهكذا فان الفكرة الغربية في البدء لانتبت ، في ثلاثين عاماً من النضال ضد الموت ، ان تصير باطنة متحدة بجوهر الحياة ، والبدو يصبح صديقاً حتى درجة ما ، لان تولستوي يجتذبه اليه ، يجتذبه الى باطنه ... انه يجعل من الموت عنصراً اخلاقياً من عناصر حياته ، وبذلك يصبح العذاب البدئي « مساوياً الى الصفر » ، والانسان يصير اشيب الشعر في هدوء وبكل طيبة خاطر ايضاً ، والحكيم ينظر في وجه الفزاعة التذرية دون هيبة او هلع ... « ليس من حاجة الى التفكير في امره » ، لكن يجب ان نراه دوماً امامنا .. ان الحياة بأسرها تصبح عندئذ اكثر خطورة واهمية ، وفي الحقيقة اكثر خصباً وبهجة .

ان الضرورة قد اصبحت فضيلة ، وتولستوي (هذا الينبوع الابدي للفنان !) قد تغلب على ذعره عندما جعله موضوعياً . لقد ابعده الموت والخوف من الموت بتجسدهما في مخلوقات اخرى ، في اشخاص مؤلفاته .. وهكذا فان ما كان في البدء يسعى الي سحقه فيما يبدو قد امسى الآن يفيد في مضاعفة الحياة عمقاً ، ويضفي على فنه - مجادته لم يكن ابداً في الحسبان - اتساعاً رائماً عظيماً .. ذلك انه يعرف ماهية الموت ، منذ ادرك انه مقدر له بالضرورة فلا مفر منه . وهكذا يصبح ، بفضل محاولاته الاستكشافية المعذبة ، بفضل آلاف المرات التي تصور فيها نفسه يجتضر ويموت ، هو اكثر الاحياء تعطشاً وتأججاً ، افضل من وصف الموت ، سيد سائر الذين صوروا يوماً ما قضايا المنية . ان القلق ، هذا الذي يسبق الواقع ويتقدم عليه ، الذي يسأل سائر الامكانيات محمواً متأثراً . هذا الذي يملك اجنحة الخيال ، لهو دوماً - بكل تأكيد - اكثر ابداعاً من الصحة الحرساء الفظة ... ما القول اذن بقلبي مرتعش على هذا الفرار ، مذعور حتى هذه الدرجة ، محتد منذ عشرات السنين؟ ما القول اذن بالرعب والذهول المقدسين ، رعب احد عمالقة الفكر وذهوله؟ انه يدري بفضل الموت كل باعراض الانعدام الجسدي ، يعرف كل ممة وكل اشارة



بيوره نولستوي

برسهما منقاش ناناوس (١) في الجسم الذي سيفنى ويتلاشى ، يعرف كل شعيرية
وثل اعصار من الرعب يجتاحان النفس التي تبتلعها الظلمات : ان الفنان يشعر ويتأمل
بقوة عظمى بفضل معرفته الخاصة .. ان موت ايفان ايلييتش (٢) الذي يزجج بصورة
رهيبة : « لا اريد ، لا اريد ! » ، ونهاية اخي ليفين (٣) المفجعة ، والمنايا المتعددة التي
يصفها في رواياته ، و« الاموات الثلاثة » اخيراً ، كل هذه الحركات التي يقوم بها فكر
في المرصاد ابدأً ، يبيل على حافة الوجدان القصوى ، كل هذا - وهو افضل مزينة
نفسانية لتولستوي - كان يظل عصياً على الادراك دون ذلك التزعزع الهائل ، دون
تشرب الكاش مجموعته بالرعب الذي احسه هو نفسه ، دون هذه الشعيرية الجديدة ،
المجبوولة من اليقظة والريبة ، هذه الشعيرية التي تسمو فوق هذا العالم وتعلو عليه .
هل يمكن لأقل اختلاف في الفكرة ولاقل تغير حكي ان يرتسا بكل ذلك
الوضوح الا في هذا التناقض مع ينبوع الضياء الذي لا ينضب
بالمسبة الى الفنان ، ينبوع صحته القائم ؟ ان قوة قد حطمها الرعب بكل هذا
العنف الفائق الرفض حتى اعتمت جواهرها ، هذه القوة وحدها تستطيع بعد ان
ترتجف على هذا الغرار ، بكل من أليافها ، لانها ارادت ان تظل يقظة لاتمام . ان
العطف يتطلب دوماً ان يسبقه الشعور ، وتولستوي - كي يصف هؤلاء الاموات
المائة - كان مضطراً قبل ان يعيش الموت في نفسه المضطربة ، وان يحسه ، ويزجج
تحت وطأته مائة من المرات ... وبالتالي فان العبث الظاهري القائم في ذلك
الاطلام المفاجيء الوجود هو بالضبط ما يشعل عند الفنان الذي هو تولستوي معنى
جديداً ، لأن قلقة وحده ، المصنوع من الحدس والاحساس السابق ، قد رفع فنه من
السطحي ، من مجرد ملاحظة الواقع ونسخه ، الى اعماق المعرفة ... ان هذا القلق

« ١ » اله الموت عند الاغريق .

« ٢ » قصة لتولستوي .

« ٣ » احد شخصيات آناكارينا .

وحده ، بعد كمال الموضوعية الحسية ، على غرار روبنز (١) ، هو الذي علم تولى شوي ذلك الضياء - الميتافيزيائي ان صح التعبير - القادم من الباطن ، في وسط الظلال المفجعة ، ذلك الضياء الذي يميز رامبرانت بصورة خاصة .. ولأن تولستوي قد عاش الموت بحميا تفوق حميا سواء من الناس ، عاشه في ملء المادة الحية ، لهذا السبب وحده قد احال الموت حياً لنا جميعاً ، كما لم يفعل سواء قط .

ان كل ازمة هدية . من القدر الى الانسان الخالق ... وهكذا يتحقق اخيراً في موقف تولستوي الروحي من الكون وفلسفته ، تماماً مثلما حدث في فنه ، توازن جديد اكثر ارتفاعاً وسمواً ... ان المتناقضات تتداخل ، والنزاع الرهيب بين الرغبة في الحياة ، وتقيضها المفجع يفسح المكان لتفاهم حكيم متوافق ... ان الحياة التي تنطفئ ببطء ، والموت الذي تقترب ظلاله ، يمتزجان - الموجة في اثر الموجة - بصورة جميلة خصبة ، في القيلولة البطولية لسنوات شيخوخته ... والشعور - وقد هدأ في النهاية واستبكان - يرتاح بمجموعه ، حسب مفهوم سينوزا ، في توازن خالص بين الرهبة وبين رجاء الساعة العظمي : « ليس حسناً ان نخاف الموت ، وليس حسناً ان نرغب فيه ، بل يجب ان نضع ابرة الميزان عمودية ، فلا تتغلب اي من الكفتين علي الاخرى ... تلك هي افضل الشروط لحياة جيدة » .

ان النشاز قد انسجم اخيراً ، والعجوز تولستوي لم يعد يغذي الحقد على الموت ، ولم يعد فارغ الصبر تجاهه ... انه لا يهرب منه ولا يبغضه ، بل هو يحلم به فقط في تأملات عذبة - مثلما يشتغل الفنان سلفاً ، بفكره ، في عمل غير مرئي ، لكنه حاضر بالرغم من ذلك منذ الآن .. وذلك هو السبب ، على وجه الدقة ، في ان هذه الساعة العظمي ، المرهوبة جداً ، تهبه النعمة الكاملة ، نعمة موت عظيم مثل حياته - موت سوف يكون اعظم اثر من آثاره ...

١٦ صاحب «التزلزل عن الصليب» و«صاحب القديس بطرس» . فلندي المولد (١٥٧٧-١٦٤٠) «١٦»

الفنان

« ليس من لذة حقيقية الا تلك التي تنشأ عن الخلق .
ان صنع المرء افلاماً ، ام احذية ، ام خبزاً ،
ام اطفالاً ، يعني كائنات حية ، فليس من لذة حقيقية
بريئة من الألم ، من العذاب ، من تأنيب الضمير
ومن المذلة دون الخلق ابدأ » .

من رسائل تولستوي

لا يبلغ الاثر الفني ارفع درجات الكمال الا عندما ننسى منشأه المصطنع فنعود نحال وجوده الحقيقة المجردة العارية ... وما اكثر ما يتحقق هذا الوهم السامي عند تولستوي ، حتى لا نجرؤ ابدأ ان نفترض - لشدة ما يتبدو لنا اقاصيله مزدهرة بألوان الحقيقة الحسية - ان رواياته من نسج الخيال وحده ، وان شخصياته من صنع الابتكار ليس غير . ان المرء ليتصور ، وهو يقرأه ، انه انما يتطلع الى العالم الواقعي من نافذة مفتوحة المصراعين تطل عليه من عل .

وبالتالي ، لو لم يكن هناك إلفانون على غرار تولستوي ، لسهل جداً وقوعنا في خطأ الاعتقاد ان الفن شيء يسير للغاية ، وان الحقيقة الفنية امر طبيعي تماماً ، وان وضع مؤلف ادبي يرجع بكل بساطة الى نقل نسخة امينة عن الواقع ، الى نوع من الرسم البسيط الذي لا يتطلب عناء فكريا عظيماً ، وانه لا يلزم في سبيل ذلك - حسب تعبير تولستوي نفسه - اكثر من « موهبة سلبية ، ألا وهي عدم الكذب » . ذلك ان آثار تولستوي تنتصب امام اعيننا ، بوضوح عظيم ، وبكل ما في المشاهد الطبيعية من طبيعي ساذج ، تنتصب امام اعيننا اذن ، ثرية هدارة ، اشبه بطبيعة جديدة ، لانقل عن الطبيعة الاخرى صفة وصدقاً ونصيلاً من الحقيقة . ان سائر قوى حميا الالمام ، حميا الاثقال والولادة ، حميا الرؤى المتألقة والخيال الجريء ، المقدام ، اللامنطقي في اغلب الاحايين - هذه العناصر الاساسية لكل مبدع - ان سائر هذه القوى الخفية تبدو نافية ، عديمة الجدوى وغائبة في آثار تولستوي الملحمية ، حتى ليجهل المرء على التفكير انه ليس في حضور شيطان سكران ، بل في حضور انسان جلي الخاطر ، رابط الجأش ، يصنع دون جهد - بالمشاهدة البسيطة الدقيقة والتصوير المتأبر الذي ينسخ الطبيعة - به - نسخة ثانية عن الواقع الملوس ، ولا يفعل شيئاً اكثر من ذلك .

ولكن كمال الفنان يتجدع وهنا الفكر الذي يستمع به في امتنان وعرفان بالجميل ،

اذ هل اصعب من الحقيقة ، وهل اكثر عناء من الوضوح ؟ ان المخطوطات الاصلية تثبت ان السهولة لم تغد تولستوي ابداً ، بل هو في الحقيقة اجدر الشغيلة بالاعجاب والتقدير ، ومن اكثرهم صبراً واجتهاداً وعكوفاً . وان التصاوير الرائعة التي وضعها عن الكون لأشبه ماتكون بفسيفساء عظيمة الفن قد استهلكت عناء لا يقل عظمة عن الفن المتجلي فيها ، فسيفساء صنعت بتراكب احجار صغيرة لاعدها ولا حصر ، يحمل كل منها في ذاته عنصراً من اللون لامتناهياً ، يعني بكلام آخر انها صنعت باتحاد ملايين المشاهدات الدقيقة حتى الدرجة القصوى والتي لا تفلت منها كبيرة او صغيرة من وقائع الحياة .

هنا ، وراء وضوح الخطوط ، هذا الوضوح الذي يتحقق في الظاهر دون عناء كبير ، يخفي اصعب عمل ينجزه شغيل عنيد صعب المراس ، ليس هو بالمهم ابداً ، بل بالاحرى سيد للصبر يشغل في ببطء وموضوعية ، مثل الرسامين الالمانيين القدماء ، فيعطي دوما في البدء طلاء اولياً لكل صورة ، ومن ثم يقيس الابعاد في هدوء وتمهل ، ويبنى في حذر شديد مختلف الامتدادات والخطوط ، واخيراً يضع السماء ، الواحدة تلو الاخرى ، قبل ان يعطي في النهاية - بتلاعب دقيق للظلال والانعكاسات - آثار نور الحياة لخرافته الماحمية .

ان « الحرب والسلام » ، هذه الملحة الضخمة التي تعد ألفي صفحة ، قد نسخت سبع مرات متتاليات ، اما المسودات والملاحظات التي تتعلق بها فتصلأ وحدها صناديق كبيرة عديدة . ان التدقيق والتجسس قد شملا ، بعناية فائقة ، كل حدث تاريخي مهما تضائل شأنه ، كل صغيرة مادية مهما تفهت قيمتها ... فتولستوي يعدو على متن جواده ، كي يعطي وصف معركة بورودينو (١) دقة موضوعية ، طوال يومين كاملين حول ميدان المعركة ، وخريطة اركان الحرب في يده ، ويمتاز بالقطار آلاف الفراسخ كي يستقي ، من فيه احد المحاربين الاحياء بعد ، بعض التفاصيل الزهيدة التي لن تقبده الا في سبيل الزينة وحدها ... وهو لا ينقب في سائر الكتب ويستكشف مختلف المكاتب فحسب ، بل انه يتوجه بالاسئلة الى عائلات ندية ،

« ١ » المعركة التي انصرت فيها جيوش نابليون على الجيوش الروسية على ابواب موسكو .

ويتناول من القرائيس المحفوظة وثائق مجهولة ، ويطلع على رسائل خاصة ، وكل ذلك كي يحصل - بكل بساطة - على حبة صغيرة من الواقع ، بالاضافة الى ماكدسه منها حتى الآن .. وهكذا تتجمع ، سنة بعد سنة ، الحبيبات الزئبقية لعشرة آلاف ، لمائة الف من الملاحظات الصغيرة جداً ، حتى اللحظة التي تتحد فيها وتختلط ، شيئاً فشيئاً ، ودون حاجة الى بذل اي جهد في سبيل جمعها الى بعضها ، فتخاق بذلك شكلاً مدوراً ، نقياً ، كاملاً . ومن ثم ، عندما تنتهي تلك المعركة في سبيل الحقيقة ، يبدأ النضال في سبيل الوضوح . ومثلما يفعل بودليو - هذا الشاعر المغني - بكل بيت من ابيات شعره ، يفعل تولستوي بنثره - بتموس العامل المنزه - فيبرده ويصقله ويضعه ويطرقة ويشدبه ... ان جملة واحدة لاتنسجم مع المجموع ، نغنا واحداً لايقع في مكانه بصورة تامة ، بين النفي صفحة المؤلف الضخم ، يمكن ان يقلقاه ويشغلا باله حتى الدرجة القصوى ، فيبرق بسرعة ، مذعوراً ، الى الناشر - بعد ان ارسل المخطوط اليه - يطلب اليه توقيف الطبع حتى يستطيع ان يعدل ايضاً ايقاع الموضوع الذي عرض له ... وهكذا يرمي ذلك النص الاول بعد طبعه في بوتقته الفكرية ويصهره مرة اخرى ، ثم يصبه من جديد ... كلا! ان يكن هناك ابدأً فن لم يكلف عناء واجهاذ فبهو لا يمكن - بالضبط - ان يكون فن هذا الكاتب ، الاكثر طينعية في الظاهر بين سائر الكتاب . ان تولستوي يشتغل ، طوال سبع سنوات ، ثمانى ساعات ، عشر ساعات في اليوم ، دون راحة على الاطلاق . فهل من عجب اذا انهار نفسانياً - وهو الذي لا يوجد انسان اسلم منه اعصابا - بعد كل من رواياته الكبرى ؟ ان المعدة ترفض العمل بقعة ، والحواس تضطرب وتترنح ، وشعوراً من الضيق ، من عدم الاكتفاء ، شبيها الى حد بعيد بكآبة فظة غليظة ، يحتاجه في كل مرة ينهي فيها ، ولغنا كبيراً ... ولا بد له عندئذ من اللجوء الى العزلة المطلقة ، بعيداً عن كل حضارة ، هقيم في اكواخ ريفية صغيرة ، كي يستعيد التوازن الاخلاقي بعداوة صارمة بشراب الكوميس (١) .

ان هذه العبقرية للمحمية - شقيقة هوميروس - هذا الحاكي الطبيعي الأمثل ،

«١» شراب خاص يصنعه الفلاحون الروسيون من حليب الفرس بالاضافة الى بعض الحماض .

الصابي كالمياه المتفجرة من الصخر الاصم ، والبدايي تقريبا على صورة الشعب ومثاله ،
 يخفي بالضغط تحت دثاره فنانا معدبا ، نالما حتى الدرجة القصوى ، لا يعرف الرضى
 سبيلا الى فؤاده مطلقا (وهل من فنان إلا وهو على هذا الغرار ؟) ... ولكن
 صعوبة الخلق - وههنا يكمن جماله الاسمى - تظل خفية غير مرئية في حياة الاثر الكاملة .
 ان هذا النثر الذي لم نعد نحس وجود الفن فيه ليلوح ، في قلب زماننا الراهن - وفيما
 وراء كل زمان ايضا - خالداً ابدياً نوعاً ما ، لا يعرف اصولاً ولا سناً مثله مثل الطبيعة
 نفسها ... انه لا يجمل في اي موضوع منه طابع عصر معين ، حتى لو وقعت بعض
 روايات تولستوي بين يدي القارىء للمرة الاولى دون ان تحمل اسم المؤلف ، فلن
 يجرؤ احد اذن فبشير الى الحقبة - بله الى القرن - اللذين خلقت فيها تلك الروايات ،
 لشدة ما تشكل اسلوبا في الحكاية يخرج تماما عن حدود الزمان . ان الحرافات الشعبية
 عن « الرهبان الثلاثة » و « كم يحتاج الانسان من الارض » ، يمكن ان تكون
 معاصرة لرعاوث وايوب ، قد ابدعها الخيال قبل اختراع الطباعة بألف سنة ، في
 العصور الاولى من معرفة الكتابة ... و « موت ايفان ايليتش » و « بوليكي »
 و « بائع الاتمة » نخص القرن العاشر او الثلاثين مثلما نخص القرن التاسع عشر على
 حد سواء ... ذلك ان روح العصر واهله لا تتجلى في تلك المؤلفات ، كما هي الحال
 عند سنندال اروسواو دستويفسكي مثلا ، بل ما يتجلى فيها هو بالاحرى الروح
 البدائية ، روح سائر الازمنة والعصور ، الروح التي لا تخضع لاي تطور ، النفخة الارضية ،
 الحساسية البدائية ، عذاب الانسان العميق امام الانهائية ووحدته الاصلية .. وتاما
 مثلما يحدث في احضان المكان المطلق ، يحدث بالنسبة الى الانسانية في احضان المكان
 النسبي لفعاليتها الادبية ، فاذا سطوة تولستوي الاجماعية والمنظمة تحو الزمان
 وتبطل مفعوله ..

لم تمس الحاجة لتولستوي يوما الى تعلم فنه في الحكاية ، كما انه لم ينكر فنه ذلك
 ابداً ... فعبقريته الطبيعية لا تعرف غواً او تدهوراً ، تقدماً او تقهقراً ... ان وصف
 الطبيعة في « القوزاق » عند الشاب البالغ الرابعة والعشرين من عمره ، وذلك الصباح
 المتألق في « البعث » الذي لا يمكن للنسيان ان يتطرق اليه ابداً - وقد صوره عندما
 كان في السنين ، بعد مرور اجيال صاحبة عديدة من البشر - كلاهما يتفانان نضارة

الطبيعة نفسها ، القريبة والمحسوسة من سائر الاعصاب ، يتنفسان ذات حساسية العالم العضوي واللاعضوي المتصنف بالمرونة ، والواقع تحت الحس مباشرة .. ليس في فن تولستوي تلمذة ، كما انه خال من نسيان ماسبق علمه . ليس فيه ذروة ، ولا فيه زوال ، بل ان ذات الكمال الموضوعي يثابر فيه ويستمر طوال نصف قرن ونيف ... ومثلما تزح الصخور هناك امام الله ، مهيمية دائمة جامدة لا يطرأ عليها اي تبديل كذلك تتصب مؤلفات تولستوي وطيدة الاركان في قلب الزمان المتقلقل المتبدل .

ولكن ذلك الاحساس المنتظم ، والمجرد بالسالي عن كل ماهو شخصي انانيا ، هو السبب بالاضبط في اننا لانكأ نشعر بالوجود الحي للكاتب في مؤلفاته ... ان تولستوي لا يبدو لنا مخترعاً لحوادث خيالية ، بل بكل بساطة مقرر أعظماً لواقع مباشر ليس غير ... وفي الحقيقة ، اننا كثيراً ما نتردد في وصف تولستوي بالشاعر ، لأن هذه الكلمة المنجحة ، تعني مها اختلفت اقوال البشر ، نوعاً من الكينونة مختلفاً ، شكلاً من الانساني سامياً ، شيئاً مرتبطاً بصورة عجيبة وخفية بالخرافة والسحر ، تعني المكان في حالة الاشراق ، تصدر عنه في نشوة الرؤيا كلمات جذرية بالكاهنة بيتياً (١) ، وحقائق لا يبعد اليها ولا يستطيع البشر العاديون بلوغها ... هذه الكلمة تشير الى العبقرية الطافية بالحس العبقرية التي تعري كل ما يفوق الوصف ويتجاوزه ، وذلك بفضل موسيقاها الشجية التي نقلت من قبضة الفكر وتمرد عليه ، بفضل الرمز الذي يشكل روحها وجوهرها . ولكن تولستوي ، على العكس من ذلك ، ليس انساناً « من منطقة عليا » ابدأ ، انه متأصل في هذا العالم عميق الجذور في تربته ، لا يجلي فوق هذه الارض البتة ... انه مادة كل ماهو ارضي وعنصره ، لا يتجاوز في اي مكان المنطقة الضيقة لما يقع تحت الحس ، ما هو محسوس وقابل للحس . ولكن اي كمال عظيم يبلغه في نطاق هذا الميدان ! انه لا يتجلى بميزات تختلف عن ميزات بقية البشر ، ميزات يستمددها من آلهات الشعر او من آلهات السحر ، بل ان ميزاته عادية تماماً ، ومألوفة لكنها صارت عنده الى قوة عظيمة لامتناهية ... انه يكتبني بامتلاك فكر قد تضاعفت شدته كثيراً ، فهو يرى ويسمع ويشم ويحس بصورة اوسع واوضح وأجلى واكثر

١ : كاهنة ابولون في دلفيس ، كانت تعلن الى البشر ارادة الآلهة في آيات راقية الجمال ..

وعياً من الانسان الطبيعي ،ويتذكرا أكثر منه وابعده،وبصورة اعظمى منطقاً وعقلاً، ويفكر بصورة اسرع واحذق وادق . . . وباختصار فان كل صفة انسانية تجسد في ذلك الجهاز المنقطع النظر في كماله ودقته - والذي هو عضويته - بشدة تفوق مائة مرة مثلها عند الطبيعة العادية . ولكن تولستوي لا يتخطى ابدأً (ولذا فقلة هم الذين يجرؤون على تسميته «عقربياً» بينما الكلمة طبيعية جداً بالنسبة الى دستوفيسكي) حدود الطبيعي ، ولا يدخل قط العالم الصوفي الكروي النبوي ، تلك الممالك فوق الارضية حيث نجد احياناً ، من خلال صدع «شقوق او ثغرة مفتوحة» ، رسالة من النار تتأجج في «رجل اللشوة» ، في الملهم الذي تحترق ابصاره الجحش المختلفة وتنفذ منها . . . ابدأً لاتبدو فعالية تولستوي الادبية ومن ورائها شيطان يجيهاً ، من ورائها المستنق على المعرفة ينفخ فيها من انفاسه . . . ومن هنا كان وضوحها وادراك الجميع لها ، لأن هذا الجيال المرتبط بالارض ان يستطيع ابدأً ان يتذكر شيئاً يتجاوز «الذاكرة الحسية» ، شيئاً يخرج عن نطاق الانسانية المشتركة . . . وهذا هو السبب في ان فنه سبطل دوماً موضوعياً ايجابياً ، دقيقتاً وانسانياً . . . انه فن يزيرو الضياء اليومي ، انه واقع في حالة الكمون . . .

فتولستوي لا يصنع عمل الشاعر اذن ، لا يتخيل عوالم سحرية ، بل يكتفي «بتقرير» الاشياء الواقعة بكل بساطة . وهكذا يراودنا الشعور ، عندما نستمع اليه يحكي ، باننا لانصغي الى فنان يتحدث بنا ، بل الى الاشياء نفسها تتكلم . . . ان البشر والحيوانات تخرج من عالمه كما تخرج من مساكنها الخاصة المألوفة ، حسب النظم الطبيعي لحركاتها ، فنحس انه لا يوجد هناك اي شاعر ملتب من ورائها كي يحشها ، ويدفعها الى الفعل في تسرع وهرولة ، على غرار دستوفيسكي مثلاً الذي يضرب - مجموعاً - اشخاصه بسوط مرفوع دوماً ، فينطلقون وهم يصيحون ويذعنون ، تشتعل فيهم النيران ، في حلبة اهوائهم . . . عندما يحكي تولستوي ، فاننا لانسمع نفسه . . . انه يحكي مثلاً يتسلق الجبلون مرتفعاً ما ، بتؤدة ، وانتظام ، رويداً رويداً ، خطوة فخطوة ، دون قفزات ودون عجلة ، ودون تعب ودون ضعف ، فلما تر ضربات قلبه في صوته ابدأً . . . وذلك هو السبب في غبظتنا التي لاتقارن عندما

تأثره ، فنحن لانحمل بسرعة البرق عنده - كما يحدث لنا مع دستورينسكي - على طول حواف السحر الحادة المتألقة ، ولا نتردى بصورة مباغتة في دوار الهاوية الطنان ، ولا ترتفع ، وكأنا نتملنا اجنحة خفية في اجواء الاحلام الخيالية ... اننا نبقى ، في حضور الفن التولستوي ، نافذي البصيرة دوماً ، وكأنا في حضور العلم نفسه .

اننا لانترنح ولا نشك ولا نتعب ، بل نصمد خطوة فيخطوة ، تقودنا يده البرونزية ، على طول الصغور الجبلية الكبيرة التي تشكلها ملحباته ، فيمتد النظر درجة درجة رجباً واسعا ، بينما يتسع الافق في الوقت ذاته وينتشر . ان الحوادث لانهجري إلا في بطن شديد ، والابعاد لانستضيء الا شيئاً فشيئاً .. ولكن ذلك كله يتم يقين اساسي ، بدقة الآلات التي تسير الساعة . ومثلما تشرق الشمس في الصباح فترتفع اشعتها وريداً وريداً من اعماق المشهد المترامي امام أعيننا ، كذلك يحكي تولستوي ببساطة طبيعية لانصنع فيها ، كما كان اولئك الشعراء الملحميون الذين عاشوا في العصور الاولى من العالم ، رواة الشعر ومعنو المزامير والمؤرخون ، يحكون فيما غير من الزمان ، أيام كان البشر يتمتعون بميزة الصبر بعد ، والطبيعة لما تنفصل عن الخلوقات ، والانسان لا يتميز عن الحيوانات والنباتات والحجارة بآية مرتبة أقامها البشر بكل كبرياء وغرور ، بل على العكس من ذلك تماماً كانت الالهية نفسها والاجلال نفسه ينطبقان على اصغر الكائنات مثلما ينطبقان على اكبرها .. والحقيقة ان تولستوي يرى الى الاشياء تحت مظهر الشمول ، يعني بصورة تضفي عليها الألوهية ، وبالرغم من انه اقل الناس اغريقية فيما يتعلق بالاخلاق ، فان انطباعاته كفنان هي - بصورة مطلقة - انطباعات بان ، انطباعات حاولي لادنس فيه .

ليس من فرق بالنسبة اليه بين اختلاجات كلب محتضر وهو يعوي ويزجر ، وبين وفاة لواء امتلأ صدره بالارسة ، او سقوط شجرة اقتلعتها الريح فهي على وشك الفناء .. ان الجمال والقياحة ، الحيوانية والانسانية ، الطهارة والنجاسة ، ماهو سحر وما هو إنبات ، كل هذا يشاهده بنفس النظرة المشبعة بالفن والطافحة بالروح في وقت واحد .. ولكي نغبر عن فكرة واحدة بأسلوبين مختلفين ، فلن نفعل اذن

سوى التلاعب بالالفاظ اذا ارشنا ان نعين ان كان يطبع الانسان او يؤنس الطبيعة. واذا لم تظلم اية طبقة من العالم الارضي مغلقة عليه ، بل ان حساسيته لتتراق من جسد وليد مفرج بالجرة الى الجلد المتهدل الذي يكسو جسد حصان منوك القوى قد رهنه العمل الشديد واعياه ، او من ثوب قطني تلبسه احدى الفلاحات الى بزة الاستعراض التي يرتديها رئيس في الجيش عظيم الكبرياء والمهابة ، تلك الحساسية متأتمة كل الالفة مع كل جسد وكل نفس ، تجد ذاتها مباشرة في ميدان معرفتها ايان حلت ، تقتطف الانطباعات بيقين يفوق التصور ، يقين يخترق كل الحفايا ويبلغ حتى اعماق دماء الكائن الانساني ولحمه .. وكثيراً ما سألت بعض النساء في رعب وذهول كيف يستطيع هذا الرجل ان يصف احساساتهن الاكثر خفاء وشخصية ، وكأنه يترزع الجلد عنهن ؛ كيف يستطيع ان يعبر عن ذئك الضغط والجذب اللذين يحدثها في صدر الام الابن المنتبثق منه ، او ايضاً ذلك الاحساس اللذيذ بالرطوبة والنضارة الذي ينتشر كالضباب على الذراعين العاريتين العسية تشترك في حفلة راقصة للمرة الاولى .

ولو ان الحيوانات تستطيع الكلام لتعبر عن افكارها ، لسأت باي حدس عظيم استطاع تولستوي ان يخمن تلك اللذة المعبدة التي يحسها كلب الصيد عندنا ، يشم رائحة دجاجة الحقل المتوحشة ، او ايضاً تلك « الافكار الغرائز » التي تتوهم عنها الحركات فقط ، والتي يحسها جواد اصيل في اللحظة التي تعطى فيها اشارة الانطلاق في السباق .. يكفي ان نقرأ حديث الصيد في « آنا كارنينا » حيث تقع على ما لا يحصى من الملاحظات الحدسية الدقة التي تفوق في قيمتها الوصفية سائر تجارب علماء الحيوان والحشرات من بوفون حتى فابر دون تفریق . ان دقة تولستوي في موهبة الملاحظة التي يتمتع بها لا تميز ابدأ بين اشياء الارض ، كما ان محبته لاتعرف معنى التفضيل . ان نابليون ، بالنسبة الى هذه النظرة الممتنعة على الفساد ، ليس اكثر انسانية من ادنى البشر ، وهذا الاخير ليس بدوره اكثر اهمية وعنصرية من الكلب الذي يركض خلفه او من الحجر الذي يسه هذا الكلاب بقوائمه . ان كل ما في دائرة هذا العالم الارضي : الانسان والمادة ، النباتات والحيوانات ، الرجال والنساء ، الشيوخ

والاطفال ، الرؤساء والفلاحين ، جميعهم يسجلون في اعضائه اهتزازاتهم الحواسية بنفس الضياء المتبلور المنتظم كي يخرجوا منها بصورة لا تقل انتظاماً ولا ترتيباً . وان هذا ليضفي على فنه شيئاً من المساواة بالطبيعة التي لا تعرف الفساد ، كما يضي على ملاحظه نظم البحر ، هذا النظم الرتيب لكن العظيم مع ذلك ، الذي يبعث في اذهاننا على الدوام اسم هو ميروس .

وان من يملك مثل هذه الرؤيا الواسعة والكاملة لفي غنى عن الاختراع ، من يرى الى الاشياء بمثل هذه الشاعرية لفي غنى عن تخيل اي شيء كان ، هذا التخيل الذي يحتاج الشاعر اليه ولا يستطيع عنه استغناء . ان تولستوي لم يفعل ، طوال كل حياته ، الا المشاهدة بحواسه وإنضاج مارأته عيناه . . . انه لا يعرف الجسم الذي يتجاوز الحقيقة ، وفنه لا يأتي من العلاء ، بل هو موجه نحو الباطن ، كما قال هو نفسه يوماً ما بصورة رائعة ، هذا الفن هو بناء في العمق وليس هندسة مرفوعة فوق المرتفعات . . انه لا يحتاج في اي مكان ، وهو الفنان الموضوعي بصورة مطلقة ، على العكس من دستوفسكي الملمم ، الى اجتياز عتبة الواقع كي يبلغ فوق الطبيعي ويرتمي في احضانه ، فهو لا يستخرج حوادثه من فواغ خيالي واقع فوق العالم ، بل يكتب في ان يحفر في ارض مشتركة ، في البشر العاديين الذين يشكلون بالنسبة اليه ، مناجم غنية طافحة بالثراء . . لابل اكثر من ذلك ايضا ، فتولستوي يستطيع - في الانسانية - بأن يستغني عن تحويل اهتمامه نحو كائنات غير طبيعية ومرضية ، بله اذا اردنا ان نذهب ابعد من ذلك ، فليس به حاجة ، مثل شكسبير ودستوفسكي ، لكي يخلق - بقوة سحرية عجيبة - نماذج جديدة متوسطة بين الله والحيوان ، كي يخلق اشباها لآرييل (١) أو ألبوسكا أو كاليبان (٢) أو كارامازوف (٣) . . . ان اكثر الفلاحين تفاهة ليرتدي اهمية خفية في هذا العمق الذي لا يبلغه الا تولستوي وحده ، اذ

« ١ » ملك ساقط

« ٢ » شخصية خيالية ادخلها شكسبير في مسرحيته العاصفة وهو تجسيد للانسان الوحشي الجبر على طاعة قوة تملو عليه ، والتمرد عليها ابداً .

« ٣ » ابطال قصة دستوفسكي الشهيرة : « الاخوة كارامازوف »

يكفيه - كي ينفذ الى اروقة مالكة تحت الارضية التي يكتشفها في نفس ريفي بسيط، او جندي نأفه ، او سكير ، او كلب ، او حصان ، او اي شيء كان ، اي شيء معدوم الشخصية ، خائع في احضان العادي والبومي - يكفيه في سبيل ذلك أية مواد بشرية يعثر عليها في طريقه ، وان تكن بعيدة كل البعد عن النفوس الثمينة والغالية ، الحاذقة والليبية .. ولكنه يفرض على هذه الوجوه المتوسطة تمامها ميزة اخلاقية فريدة من نوعها ، غير مستهدف من ذلك تجميلها وتزيينها ، بل مضاعفتها عمقا فقط ...

وانه لا يعرف تكنيكاً آخر سوى هذه الدقة في الرؤية ، لا يلجأ الا الى الآلة العارية ، آلة الحقيقة الحادة الفاطمة . ولكنه يفرس هذا المثقب القاسي بقوة عنيفة جداً في كل حادثه ، في كل شيء ، حتى اننا نكتشف ، مدهوشين ، في قلب هذا العالم عالماً أكثر عمقا ، طبقة نفسانية لم يوتدها بعداي عامل منجم من قبل ... انها الحقائق - لا الاحلام - التي تهز قوته المرنة ، فيعوزه - . مثل المثال - التراب والحجر والطين كي يخلق شكلاً ما مجسماً .. ولا يكفيه ابدأ - كالموسيقي - الاهتزاز الهوائي وحده : فلا عجب اذن اذا لم يكتب تولستوي شعراً قط ، فكل ما هو شعري واقع في القطب الآخر من هذا الواقعي المغرق في واقعيته . ان فنه لا يتكلم الا لغة واحدة ، لغة الواقع - وتلك هي حدوده - ولكنه يتكلمها بدقة تفوق كل ما توصل اليه الشعراء حتى الآن - وتلك هي عظمتة .. ان الجمال والحقيقة ليسا ، بالنسبة الى تولستوي ، الا وحدة لا تنفصل او تنجزاً .

وهكذا فان تولستوي - ولنكرر القول مرة اخرى بصيغة تحضر في الاذهان احتقاراً فلا تمحي بعد ذلك ابدأ - هو أكثر الفنانين بصيرة ، ولكنه ليس نبياً قط ، هو اكمل سائر « مقرري الواقع » على الاطلاق . ولكنه ليس شاعراً مبدعاً البتة . انه لا يملك ، كي يبني عاله ذا الابعاد والوفرة الفريدة في انواعها ، الآلات حكيمه وارضية ، الحواس الخمس والحسية الموضوعية ، هذه الآلات الحية ، الدقيقة ، السريعة والحاذقة بشكل مدهش ، لكن الخاصة بالرغم من كل شيء بميكانيك الجسد وحده . ان تولستوي لا يبلغ احساساته الاكثر سرعة بواسطة الاعصاب مثل دستويفسكي أو الروي مثل هلدلرن وشلي ، بل بفضل فعل حواسه المتوافق ،

هذا الفعل الذي يشبه أشعاعه أشعاع النور . ان هذه الحواس ، مثلها مثل النحل ، تهجر .
خلاباها باستمرار كي تحمل اليه غبار طلع الملاحظة ذا الالوان الجديدة ابدأ ، غبار
طلع يعطي فيما بعد - في اختصار موضوعية لاهبة - العسل السائل والمذهب الأثر
الغني الخالد .

ان حواسه الرائعة ، حواس الامثال ، والبصيرة ، والدقة السمعية ، حواسه
القوية الاعصاب ، لكن الدقيقة مع ذلك ، حواسه النشطة والحاسبة التي تنزلق في
اكثر ثنانيا الكائن الانساني ظلمة على طريقة الققط ، حواسه مفرطة الاثارة والمتبعة
بقوة حيوانية تقريبا ، حواسه هذه تستطيع وحدها ان تستخرج من كل حادثة من
حوادث هذا العالم تلك الكتلة من المادة الحساسة منقطعة النظير التي تحيلها فيما بعد
الكيمياء الحفية لهذا الفنان غير المجنح الى المادة نفسانية ، بمثل البطء الذي يقطر الكيميائي
به - في صبر عظيم - . خلاصات النباتات والازهار .. ان البساطة فوق الطبيعية
لأفانيس تولستوي تنتج دوماً عن وفرة فريدة لا تنحصر ولا تحسب ، وفرة مؤلفة
من عشرات الالف الملاحظات الخاصة . ذلك ان تولستوي ، كي يعرف افكار احد
الناس وعواطفه ، لا بد له قبلا من دراسة مظهره الحكمي في كل من خفاياه ، وكل
من تفاصيله ، وكل من ثنياه ، وكل من تحولاته ، فهو كالطبيب يبدأ بفحص عام
اولاً ، باحصاء لسائر خصائص الافراد الجسدية ، قبل ان يطبق عملية التقطير الملحمية
على عالم رواياته .

كتب في ذات يوم الى صديق له يقول : « انك لاتستطيع ان تقبيل كم يصعب
علي هذا العمل التحضيري ، هذه الضرورة التي تجبرني قبلا على حرث الحقل الذي
أنوي زرع . انه لمن العسير بصورة فظيعة ان يفكر المرء ويتمثل كل ما يمكن حدوثه
لسائر هذه الشخصيات التي هي بعد في طور الصيرورة ، شخصيات المؤلف الواسع
جداً الذي يداعب الفكر بعد . انه لمن العسير بصورة فظيعة ان يتصور المرء امكانيات
مالا يحصى من الاحداث ، كي يختار منها فيما بعد جزءاً واحداً من مليون جزء ...
ولما كانت هذه العملية ، الميكانيكية اكثر منها الهاماً ووحياً ، القائمة في ارجاع
العديد من التفاصيل وتكثيفها في وحدة واحدة ، المتكررة بالنسبة الى كل من

الشخصيات الكثيرة الفاتحة العدد ، فان المرء يستطيع ان يرى بكل وضوح كم من حبيبات الغبار يجب سحقها ومزجها من جديد ، في هذا الطاحون من الصبر الذي لا ينفد ، قبل الحصول على الشكل المطلوب . ان تولستوي لمضطر ، كي يؤلف رواية ، الى الاختيار بين الف حادثة والف صورة ، ثم عليه بعد ذلك ان يركب ، حكيمياً في البدء ، كل صورة خاصة بما لا يحصى من الملاحظات الصغيرة ، قبل ان يصورها في بوتقة نفسانية دقيقة ، لان ملامح كل محيا خاص لا تتشكل عنده الا بتراكم علامات جسدية لاعدها ولا حصر . . ان كل كائن بشري هو نتيجة آلاف من التفاصيل ، وكل من هذه التفاصيل نتيجة ملاحظة حقائق عديدة دقيقة اخرى ، لأن تولستوي يسير غرر كل عرض يكشف عن شخصية اشخاصه بدقة العدسة المكبرة ، الباردة والقاسية معاً . . انه يرسم مثلاً ، على غرار هولبن (١) ، فم احد الابطال سمحة فسمحة : ان الشفة العليا تميز عن الشفة السفلى بكل خصائصها الفردية ، وكل ارتعاش للصوار يتظاهر في بعض الانفعالات الاخلاقية يسجل بأمانة ودقة ، وطبيعة الابتسامة والثنية التي يرسمها الغضب تقاس بكل اخلاص ومرونة . وعندئذ فقط يصور لون هذه الشفة بكل بطة ، ويجس قوامها القاسي او الغليظ باصبع غير مرئية ، ويحدد ظل الشارب المرتمي من فوقها بكل معرفة واتقان . ولكن هذا كله لا يعطي الا الشكل الخام فقط ، المظهر الحيواني للشفة وحده ، وعندئذ يضاف اليه وظيفة الخاصة ونعمة الكلام والتعبير النموذجي المميز للصوت الذي يتلقى الان لحنا فرديا متلائماً مع فردية ذلك القم الموصوف .

وما صنع هكذا لشفة واحدة يتكرر في الاطلس التشريحي لتجليله ، بالنسبة الى الانف والوجنة والذقن والشعر بدقة وتدقيق يكادان ان يكونا مقلقين حقاً . ان كل صغيرة تندمج برفيقتها بدقة . طلاقة ، ومن ثم تتقابل سائر هذه الملاحظات السمعية والبحرية والحركية في مخبر الفنان الخفي مرة اخرى وتنكيف مع بعضها البعض ، لان تعبير الاصابع يجب ان يتوافق بدقة رياضية مع تعبير النظرة ،

(١) فان المالىقضى معظم حياته في اكلترا . اشتهر بتصوير الاشخاص وبلوحة « رقص الموتى »

والنظرة يجب ان تكون بدورها في توافق مع الضحك ، وهذا الضحك يجب ان يكون بدوره في انسجام مع طريقة خاصة في الحديث ، حتى تتضح بكل ذلك وحدة الفرد بصورة اجماعية في كل من اشكاله المعبرة عنه . ومن ثم يستخرج الفنان المنظم الجذر الخيالي ، ان صح التعبير لهذا المجموع من الملاحظات التي يمرر كثيرها المدهشة في غربال الانتقاء بحيث يتبدد كل ما هو ثانوي الاهمية فلا يبقى الا ما يميز الجوهر وبسمة . وهكذا يقابل تذبذب الملاحظة اقتصاد عظيم في استعمال الصفات ، ولكن القليل الذي تم الاحتفاظ به يتكرر وكأنه انطباع عميق الغور خلال الكتاب بكامله ، حتى نجتمع الى فكرة كل من الاشخاص رؤيا مباشرة عن كل ما يميزه ويمطيه شخصيته وفرديته .

ياله من بناء جبار ! أية معرفة عميقة تخفي خلف ما يبدو في وصفه نتيجة الصدفة المحضة ، لانتيجة الارادة الواعية . والحقيقة اننا نحتاج الى كتاب كامل كي نحلل آلية هذه العملية في دقائقها ، وكي نبرهن ان الوحدة الينة لأشخاص تولستوي التي تبدو لنا اللوالة الاولى مجردة عن الفن بعيدة عنه ، تنتج بالضبط عن تكثيف عدد من الملاحظات يثير الدهشة والذهول حقاً .

ذلك ان الانسان الذي ركبته الرؤيا لا يبدأ بالحديث والتفكير والحياة الابعد ان يتم تعيين كل ما يعود عنده الى الحواس وتحديد بدقه تكاد ان تكون هندسية ، بعد استكمال المظهر الحكيم لشخص الرواية . ان النفس ، البسيطة - هذه الفراسة الالهية المأخوذة في شبكة الملاحظات الدقيقة ذات الالف عروة - لحيدة في شبكة الجند والعضلات والاعصاب . ولكن الامر على العكس من ذلك تماماً عند ستوفسكي - هذا النبي الذي يؤلف التقيض العبقري لتولستوي - حيث يبدأ بتحديد فردية البطل بالنفس ، لان النفس عنده هي العنصر البدئي . . . انها تضع قدرها بقوتها الخاصة ، والجسد ان هو النوع من الثياب اليرقية ، الرخوة والخفيفة ، حول نواتها الالامعة المتأججة . لابل انها تستطيع ، في ساعات تجلي الروح العظمى ، ان تلهب ذلك الجسد وتسمو به في الاجواء العالية وتجبره على الانطلاق نحو اراضي العاطفة ، نحو الاشراق الخالص . ولكن النفس عند تولستوي - هذا المراقب النافذ البصر والفنان العظيم الدقة - لانتطيع ، على العكس من ذلك ، ان تطير قط ، بله لانتطيع ابدأ ان

تتنفس بكل حرية . . ان الجسد ليظل على الدوام معلقاً ، مرهقاً قاسياً ، حول النفس يجرها باستمرار نحو الاسفل بقانون الجاذبية الوحشي . وذلك هو السبب في ان مخلوقاته المنجحة نفسها لانستطيع البتة ان ترتفع نحو الله ، ان تنتزع نفسها مرة من الارض وتتحدر بصورة تامة من هذا العالم . . . انها تصعد بصعوبة ، خطوة ، فخطوة ، كمن يحمل ثقلاً وازناً ، وظهورها مخفية فيما يبدو تحت ثقل اجسادها الخاصة ، تصعد بصعوبة درجة فدرجة نحو التقديس والتطهير ، وهي تهوي ابدأ إعياء تحت نير طبيعتها الارضية . ابدأ لن تستطيع بسيشة - فراشة الله هذه - ان تعود باستقامة نحو المملكة الافلاطونية . . . انها لانستطيع الا التحول الى شرقة ، فتبدل هكذا طبيعتها ، وهي تتأصل كي تطهر نفسها وتخفف العبء الذي يرهق كاهلها . . . ابدأ لن تقدر ان تتخلص من جاذبية الجسد الارضي الذي تخضع له سائر تجسيداتنا البشرية ، فكأنها تخضع لحظيطة موروثه ارتكبتها قبل خليقة العالم . وبما لا ريب فيه ان جزءاً من ظلمة تواسطوي المنجحة ينشأ بالضبط عن هذه الاولية ، عن هذه السيطرة التي يفرضها الجسدي على الروحاني ، لان هذا الثنائ المجرد عن كل انطلاق نحو الجلد ، وعن كل فرح مشوب بالسفوية ، يذكرنا دوماً - بصورة مؤلمة - اننا نعيش على الارض ، وان الموت يطوقنا من كل حدب وصوب ، واننا لانستطيع الفرار او الافلات من ثقل طبيعتنا الجسدية التي سمرنا اليها تسميراً . . . يذكرنا اخيراً اننا محاطون في صميم الحياة بالعدم المرهق ، واننا عبيد للواقع محرومون من كل منفذ الى الخلاص . ولقد كتب تورجنيف الى تولستوي مرة يقول : علي غرار نبي ينفذ الى اعماق الضمائر :

« اني ارجو لك شيئاً اكثر من حرية الروح » . والحقيقة ان هذا هو بالضبط ما يربو كل منا ان يجده في اشخاص تولستوي ، شيئاً اكثر من التحليق الروحي ، شيئاً اكثر من القوة الصعودية الاخلاقية ، موهبة الافلات من العالم الوضعي والجسدي هذا الافلات الذي يمكن من الانطلاق نحو العظمة ، او نحو الفرح ، او نحو عدم الاكثرات ايضاً ، او على الاقل ، موهبة الحلم بتلك العوالم الاكثر طهراً وصفاء .

هذا الفن يمكن باختصار ان يوصف بالخرافي . . ان كلاً من استداراته ترسم واضحة حادة ، مثل شفرة الموسى ، على افق السهب الروسي المجرد عن كل هضبة او مرتفع ، بينا الراثة المبررة المتصاعدة من الاشياء الذابلة والعايرة تستط علينا من

الغابات الشاحبة الصبغة . ليست هناك سحابة واحدة تلقي ابتسامها الحاملة فوق هذا المشهد، ونحن لانرى الشمس ابدأ ، بل نكاد ألائشك في وجودها ايضاً . ولذا فان هذا الوضوح البارد الضياء الذي يتميز به تولستوي لايشع في القلب اية حرارة او دفء . بل ان ذلك الضياء المتجدد يحدث نتيجة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي يحدثها الربيع ، والتي يرافقها في النفوس رجاء لاهب بازدهار قريب مقبل للطبيعة والقلوب معاً . ان المرء ليحس دوماً في مشاهد تولستوي شعوراً بالخريف وعن قريب سوف يأتي الشتاء ، عن قريب سوف يستولي الموت على الطبيعة ، عن قريب سوف تكف سائر الكائنات البشرية ، مثل ذلك الانساني الابدي الكامن فينا ، عن الحياة إنه عالم لاأوهام فيه ولا احلام ولا ضلالات ، عالم فارغ بصورة رهيبه ، بله عالم مجرد عن الله (ان تولستوي لن يدخله في كونه الا فيما بعد بداعي الحياة منلما ادخله كانت بداعي الدولة) ، عالم لايعرف الانور حقيقته القاسية التي لا ترحم ، ولا يعرف الاضياء الخاص ، وهو بدوره عديم الرحمة ايضاً .

لعل الجو الاخلاقي عند دستوفسكي يئد للوهلة الاولى بصورة اشداسي؟ وألماً ، فيبدو لنا اقم واشد سواداً من هذا الضياء الذي يشمل كل شيء عند تولستوي ولكن بروقاً من الاشراق والنشوة تمزق احيانا ، عند دستوفسكي الليل الحالك ، فترفع القلوب ، الى لحظات قصيرة على الافل ، في سماء رائعة من الرؤى البدعية . ولكن فن تولستوي ، على العكس من ذلك ، لايعرف نشوة او عزاء ، فهو ابدأ ذو خطورة مقدسة ، شاف كالمياه ، قليل الاثارة مثلها تماماً . واننا نستطيع بفضل شغوفه وصفائه ان نشاهد قعره ، ولكن مانراه لايشرب النفس ابدأ بأي اشراق او تهلل كاملين . ان من كان على غرار تولستوي عاجزاً عن التعليق في اجواء الاحلام والارتفاع فوق الحاضر على اجنحة الوهم والخيال ، ان من يجهل الاشراق الذي يبعثه في النفس جمال التجرد من قيود الارض (ان هذا الجمال يبدوله تافها عدم القيمة الی جانب الحقيقة) ، لا يستطيع الا ان يشعرنا بصورة عظيمة رائعة بتطويق الطبيعة لنا وخضوعنا لجسدنا الخاص ، الحي والداقي . . ان يشعرنا - باختصار - بالمصير الارضي تماماً الذي هو مصيرنا . . . ولكنه لن يستطيع قط ان يشعرنا بتلك الحرية التي تفلت النفس بولسبتها من ذات دياجيرها الدامسة

الحالكة .. ان فن تولستوي يبعث فينا الرزائة، ويميل بنا نحو التفكير والتأمل -
مثله مثل العلم تماماً - بنوره الحجري وموضوعيته الثاقبة ، ولكنه لايعطي
السعادة ابدآ .

كيف كان حكمه اذن - هو انفذ الافكار بصيرة على الاطلاق - على هذه
الميزة البريئة من السحر والجمال التي تسم عمل عينيه ، هذا الفن الخالي من بريق الحلم
المذهب الانيس ، المجرد عن سائر انطلاقات الفرح المحررة ، البعيد عن سحر الموسيقى
وفنتها ؟ انه لم يحبه ابدآ في صميم قلبه ، لان هذا الفن لم يعرف ان يحمل اليه او الى
الآخرين معنى السعادة وتأكيده الحياة .. والحقيقة ان الوجود بأسره يتصرف بصورة
يائسة رهيبة امام هذه الحديقة التي لاتعوف معنى الاستفاقة ! اما النفس الآلية
جسدية صغيرة ترتجف اوصالها وسط سكون الموت المسيطر في الفراغ الذي يحيط
بها ، اما التاريخ فتيه مضطرب لاغاية له من الحوادث التي تجرى اتفاقاً وعرضاً ، بينما
الانسان الجسدي هيكل متجول لا يرتدي غلاف الحياة الدافئ ، الا البرهة وجيزة
من الزمن فقط ، وسائر مظاهر الحياة التي لاتفسر لها ولا ترتب عث هباء مثل اناء
الذي يسيل او اوراق الشجر التي تدبل . ابدآ (حتى ولازمن تلك البرهة الوجيزة
الكافية كي يتهالك المرء انفاسه !) لا يمر قليل من الموسيقى فوق هذا الجريان الكثيب
للحوادث اليومية ، او ينبثق انطلاق ضئيل يسعى الى الخروج من هذه العدمية
المرهقة ، او تهرق ابتسامة يبعثها شي جميل يتألق بسرعة خاطفة في هذه الآلية الغريبة ،
بل انت لاتجهد دوماً الا الوصف الذي لايرحم ، الموضوعي بصورة شديدة القسوة ،
الذي يصور الديابجر الخائفة فقط ، ولا تنزع قط لاعلى تحايل هذا اللب الذي لامعنى
له ، ولا تلقى على الدوام الا ذلك الفهم المرير ، الجامد ، المغلق ، وتينك العينين البصيرتين
في قسوة وتأمل ، تينك العينين اللتين ترفضان ان تخدعا باي وهم مغرر يمكن أن يحمل
المؤاساة اليها . هل يصعب علينا كثيراً بعد ذلك فهم احساس تولستوي المفاجيء
- بعد ثلاثين عاماً من تصوير مثل تلك اللوحات القائمة - بالرغبة الجاحمة العنيفة التي
تحثه على عدم الاكتفاء باطلاع الانسانية وافهامها بصورة وحشية وباعثة على اليأس
والقنوط أن مصيرها الارضي معدوم الغاية ؟ هل يصعب علينا كثيراً فهم طموحه
الى توجيه جديد لكي ينفذ ، توجيه ينقذ البشر من هذا الكابوس القاتل ، ويجعل

حياتهم أكثر سهولة ويسراً ، طموحه الى فن « يوظف في الناس عواطف ارفع وافضل » ؟ هل يصعب علينا كثيراً فهم ارادته الجديدة في ان يمسي ، هو ايضاً ، ولو مرة واحدة ، قيامة الرجاء والامل الفضية ، هذه القيامة التي تكفي ابسط الاهتزازات كي تجعلها تدوي في تقوى وخشوع في صدر الانسانية ؟ هل يصعب علينا كثيراً فهم حنينه الى فن محرر ، فن يخاضنا من الاضطهاد الكئيب الذي تزرعنا كل الصلات الارضية تحت نيره الثقيل ؟

انما عبت ذلك كله ! ان عيني تولستوي ، هاتين العيينتين المصنوعتين من الضياء القاسي ، البصيرتين ابدأً واليقظتين دوماً حتى الدرجة القصوى ، لا تستطيعان ان تشاهدا الحياة إلا كما هي ، يعني رازحة تحت ظل الموت ، قائمة مظلمة عديمة الغاية ... ابدأً لن يصدر عن هذا الفن نفسه ، الذي لا يريد ان يخدع ، اي عزاء حقيقي للنفوس . ولعل هذا هو السبب في ولادة تلك الرغبة الجديدة عند تولستوي الذي يشيخ ، مادام عاجزاً عن رؤية الحياة وتمثيلها بصورة لا تكون مفاجئة ومؤلمة ، الرغبة في تبديل الحياة نفسها ، في جعل البشر افضل مما هم عليه ، في منحهم العزاء بواسطة مثل اعلى اخلاقي ، في رفع سماه لانفس فوق مادتهم الجسدية المظلمة ، والخاضعة لقوانين الميكانيك . والحقيقة ان تولستوي الفنان لا يكتفي بعد الآن ، في المرحلة الثانية من حياته ، بتمثيل الحياة بصورة بسيطة ، بل يفتش - واعياً - عن معنى ، عن رسالة اخلاقية لفننه ، وذلك بوضع هذا الفن في خدمة تبشير النفس اخلاقياً والسو بها عالياً . وهكذا فان رواياته وقصصه تريد من الآن فصاعداً ، لا ان تعطي صورة العالم كما هو فحسب ، بل ان تخلق عالماً جديداً ، وذلك بفصلها ، في وضوح وبصورة رمزية ، اشخاص الخير - هؤلاء السابقين الذين يهدون لانسانية جديدة وضرورية - عن الاشخاص غير الجديريين او المستحقين ، الذين لم يعوا بعد ماهي الحقيقة ، والعناية من ذلك احداث فعل « تثقيفي » يؤثر في الناس . وفي ذلك الزمن بدأ تولستوي مقولة جديدة من الآثار الفنية التي لا ترضى ابدأً بأن تكون مسلية ورفيعة الجمال ، بل تريد ان تصبح « معدية » ، يعني ان تعطي بالأمثلة انذاراً الى القارئ الذي يسير في طريق الشر ، وتوطئه في طريق الخير بالأمثلة التي تقدمها اليه . ان تولستوي هذا لم يد شاعر الحياة

فحسب ، بل انه ليرتفع الى مرتبة ذِيَاك هذه الحياة ايضاً .

ويطل علينا هذا الاتجاه العقائدي والنفسي ، اول ما يطل ، في « أنا كارنينا » .
بلى ، فنمذ الآن ، في هذا المؤلف - ولكن بصورة غير واعية بعد وقليلة الوضوح نوعاً ما - ينفصل الاشخاص المناقبون والاشخاص غير المناقبين الى قولتين متميزتين بفعل القضاء نفسه . ان فرونسكي ، وأنا ، هذين الكائنين الشهواتيين وغير المؤمنين ، الانانيين في هواهما ، « ينالان عقابهما » كاملاً ، فيلقى بهما في مطهر شكوك النفس وقلتها ؛ أما كيتي وليفين ، فعلى العكس من ذلك يرفعان نحو سماء الغيطة والحبور . ان هذا المحلل الدقيق الذي ظل عصياً على الفساد طوال زمن مديد ، يسعى للمرة الاولى ان يتحيز مع مخاوفاته الخاصة او ضدها لانه قد وجد الحاحاً جديداً ، الحاحاً أخلاقياً يدفعه الى ذلك ويجبره عليه . وان ذلك الميل الى الاصرار - على غرار المرين - على مبادئه ، ايمانه الاساسية ، والى زرع كتاباته ، ان صح التعبير ، بنقاط التعجب والاقواس - ان هذه النية العقائدية والتي لاتعدو كونها انحرافاً للفن ، لتتجلى عنده بصورة تزداد تشدداً وتزمتاً يوماً بعد يوم . واخيراً فان كساء ادبياً رقيقاً ، في « السوناتا الى كروتزر » ، أو « البعث » يعطي عرى لاهوت اخلاقي خالص ، ينسأ الحرفات تخدم على خير وجه اغراض الميسر . وهكذا يصبح الفن شيئاً فشيئاً بالنسبة الى تولستوي ، ليس غاية خاصة ، هدفاً قائماً بذاته ، بل هو عاجز بعد الآن ان يحب « الكذب الجليل » الا اذا كان يخدم قضية « الحقيقة » ، لاكي يساعد - مثله قبلاً - على التعبير عن الواقع ، واقع الفكر والحراس ، وانما كي يظهر حقيقة هي ، بالنسبة اليه ، اعلى وارفع ، الحقيقة الروحية ، الحقيقة الدينية التي كشفت له عنها ازمتة العنيفة . ومن الآن فصاعداً سيعطي تولستوي اسم الكتب « الجيدة » ، ليس لتلك الكتب الكاملة في اعتبارها آثاراً فنية ، تلك التي تمبر عن الافكار العظيمة وعن عبقرية الانسانية ، بل لتلك التي تعضد « الخير » فقط (.هما تكن قيمتها الفنية) ، تلك التي تساعد الانسان على الصبر واداعة مسيحية ، واجتماعية ، ومحبة ، وكرماً ، بحيث ان اوبرياخ (١) الطيب التافه يبدو له اهم من شكسبير ، هذه « الشجرة الضارة » ، لان مقياس القيم عند تولستوي - قد اخذ ينزل اكثر فأكثر

(١) رواي الماني مغفور (١٨ ٢ - ١٨٨٢)

من بين يدي الفنان كي ينتقل الى يدي العقائدي^١ المبشر بالاخلاق ... ان مصور
الانسانية ، ذلك الذي لا يقارن ولا يطال اليه ، بعني برعي واحترام ويتلاشي امام
مصلح الانسانية ، امام الاخلاقي الذي ليس الفن بالنسبة اليه إلا آلة تخدم في بناء
شعور ديني جديد ، لا مثل اعلى قائم بذاته هدفه ان يحقق على الارض رسالة مقدسة .
ولكن الفن ، المتشدد والغيور مثل كل مساهو لهمي ، ينتقم من ذلك الذي
ينكره ، فما اسرع ما ينسحب حيث يراد اخضاعه واستعباده لقوة يريدها إلا دعاء ان
تكون عليا ، ويولي الادبار حتى من وجه المعلم الاعظم .. وهكذا ، فحيث يتنازل
تولستوي عن حياده وعدم تحيزه كي يصبح عقائدياً ، فهناك بالضبط تضعف حساسية
سوره البدئية وتشجب مباشرة . ان ضوء آراءه اديا بارداً ، ضوء العقل ، يلقي في كل
مكان ستاراً من الضباب الذي يججب الرؤية ، فاذا العاير يتعثر ويسقط في وسط
الثرثرات المنطقية الفارغة ، واذا هو يتحسس طريقه في صعوبة كي يجد له منفذاً ينسلل
منه طلباً للخلاص .

وبالرغم من ان تولستوي سينعت فيما بعد ، بكل احتقار ، وبفعل هوس اخلاقي
ليس غير ، « ذكريات الطفولة » و « الحرب والسلام » - وهما اروع ما كتب على
الاطلاق - ب « الكتب السخيفة التافهة الرديئة » لانها لا يرضيان الا معطيات علم
الجمال فقط ، يعني انها يبعثان في النفس « متعة دنينة الطبيعة » (ماذا يقول أبولون
عن مثل هذا التقدير ؟) ، فان هذين المؤلفين يظلان في الحقيقة يتبوءان قمة اتاجه ، بينما
تظهر كتبه ذات المنحى الاخلاقي اقل مؤلفاته كالا على الاطلاق .. وفي الواقع ان
تولستوي ، بمقدار ما يستسلم الى « تعسفه الاخلاقي » ، فان الشقة تنسع ما بينه وبين
عنصر عبقريته الاساسي ، الحقيقة الحسية ، فيروح يضرب على وجهه في تيه الجدلية ،
بينما تتناقص قدرته الفنية في الوقت ذاته ... انه مثل أنه (١) ، يتناول كل قواه
من الارض التي يتصل بها ، وهو يظل عبقرياً ، حتى في شيخوخته الاخيرة ، حين
يرى الى العالم الحسي بعينيه الراضعتين الماسيتي الحلدة ، بينما تتضائل عظمته بصورة

(١) عملاق ، ابن نبتون والارض ، خنقه هرقل بين ذراعيه ولكنه لاحظ انه يجدد قواه كلها
لامس الارض . فرفه عن سطحها بيديه طويلا حتى فارقه الحياة .

مخوفة عندما يروح يتخسّن طريقة في السحب ، في ما وراء الطبيعة ، فلا يمكن للقلب الا ان يتأثر عندما يرى الى العناد المستهيت الذي يسعى به مثل هذا الفنان الى الارتفاع والتخليق في اجواء الروحي ، في حين صنعه القدر كي يمشي في ثقل على ارضنا القاسية فقط ، كي يجرثها ويزرعها ، كي يعرفها ويصفها كالم يفعل اي ذكر آخر في عصرنا .

نزاع مفتح ، يتكرر ابدآ في كل الآثار وسائر الازمان . ان ما يجب ان يعطي الأثر الفني سلطة اعظم ، القناعة والرغبة في الاقتناع ، يؤذي الفنان في اغلب الأحيان ويسبب اليه . ان الفن الحقيقي اناني ، لا يعرف شيئاً خارجاً عنه وعن كماله واتقانه ، والفنان الخالص يجب ألا يفكر إلا في عمله وحده ، وليس في الانسانية التي يوجه اليها . وهذا هو السبب في ان تولستوي ، هو ايضاً ، يبدو اعظم ما يكون - باعتباره فنانياً - حيث يصف في عدم اكتراث ودون ادنى إشفاق ، بعين موضوعية لا ينظر في الفساد اليها ، عالم الحواس دون ان يزججه او ان يضيئه أي اشفاق أو عاطفة . ومنذ اللحظة التي يصبح مشفقاً فيها ، فيريد ان يمد يد المعونة ، وان يحسن الأمور ، وان يوجه بمؤلفاته ويثقف ، فان فنه يفقد من قوته الساحرة ، بينا يصبح هو نفسه - بمصيره - وجهاً يفوق في تأثيره سائر الوجوه التي ابدعها .

تولستوي كما يصف نفسه

« أن تعرف حياتنا ، ذلك يعني معرفتنا بأنفسنا .

الى روسانوف

١٩٠٣

النظرة القاسية ، المسلطة على العالم دون رحمة ، لانتقل قسوة منهزمة

هذه الاسفاقيا بالنسبة الى صاحبها ايضاً . ان طبيعة تولستوي لا تقبل شيئاً يعوزه الوضوح ، لا تقبل نقاطاً غائمة قائمة ، لا في داخل العالم الأرضي ولا في خارجه . وهكذا فان ذلك الذي اعتاد ، كفنان ، على ملاحظة استدارات الاشياء الأكثر نعومة ولطفاً بدقة تامة ، ان في الخط الناحل الذي ترسجه الشجرة عن بعد ، أو في الحركة المتخلجة التي تنتاب كلباً اعتراه الخوف الشديد ، لن يستطيع ابدأ ان يطبق في نفسه اضطراباً فظاً أو نقص الوضوح وانعدامه ؛ فهو لذلك يطبق على نفسه ، بصورة مستمرة لاتقاوم ، ومنذ طلأع سنينه ، تلك الحاجة الأساسية الى المعرفة التي تعتمد في نفسه . وعندما كان في التاسعة عشرة من عمره كتب في « مذكراته » يقول : « أريد ان أتعلم معرفة نفسي في الصميم » . ومنذ تلك اللحظة ، حتى بلوغه الثالثة والثمانين ، لن يكف عن سؤال شكل أناه الخاص ، مسلطاً عليه مراقبة حادة ، يقظة ، متشككة . ان تولستوي ، القاسي على نفسه مثلما هو قاس على سائر الناس ، ليبرر من تحت المشاهدة السريرية لأناه سائر أعصاب حساسيته وسائر أفكاره ، وهي جميعاً ما برحت بعد حارة ملتهبة بالدماء الساخنة .. ان هذا الحيوي العملاق يريد ان يعرف ذاته بوضوح لا يقل شدة عن القوة التي يحس الحياة بها .. وفي الحقيقة ان مجنوناً مثل تولستوي لا يمكن ان يكون شيئاً آخر سوى متوجهم لحيلاته شديد الحماسة حتى الحد الأقصى .

ولكن تمثيل الأنا ، على العكس مما يحدث عندما تمثل العالم ، لا يمكن ان يتحقق بصورة تامة في أثر فني واحد .. ان المبدع يقدر ان يعزل كلياً صورة غريبة ، ان كانت بنتاً للمشاهدة ام بنتاً للخيال ، وذلك بتمثلها في عمله ... فالجلب السري قد قطع منذ ولايتها ، وهي لن تمبش من الآن فصاعداً الا بحياة مستقلة في عالم الفكر . انها شبه بطفل لم يعد هناك ما يربطه بدوران امه الدموي ، قد أصبحت مستقلة قائمة بذاتها ، والفنان يتحرر منها بفعل انضاجها وإخراجها نفسه .. ولكن الأنا ، على نقبض ذلك ، لا تسمح بعزلها تماماً بمجرد تمثيلها ، لان صورة واحدة لا تكفي لتقرير سائر

حركاتها الدائبة المستمرة . وذلك هو السبب في ان المصورين العظام الأثنا يكررون ، طوال حياتهم ، صورتهم الخاصة . فيبدأون - وتلك هي الحال مع دورر وراهبرانت وقتيان على حد سواء - آثار صياهم الأولى امام المرآة ، ويستمررون على ذلك حتى اللحظة التي توفض ايديهم فيها ان تنصاع لهم ، وما ذلك إلا لأن محياهم الخاص يجتذبهم ان بما فيه من الثابت غير المتبدل ، أو بما فيه من المتبدل والمتحرك ، بحيث ان كل صورة قد رسمت خطوطها هكذا في الماضي لن يلبث ان يغيرها من جديد تدفق الزمان الذي يتابع أبدأ جريانه الدائم .

وهكذا فان هذا الرسام العظيم للواقع ، الذي هو تولستوي ، لا يكلل تصوير نفسه ابدأ ، بل لا يكاد يمثل نفسه تحت مظهر احد الوجوه الذي يظنه نهائياً (أكان هو نيشلودوف ، أو بيزوشوف ، أو بيير ، أو ليفين) ، حتى لا يعود يعرف ابدأ في العمل المنتهي محياه الخاص ، فيضطر الى البدء من جديد ، كي يطبق على الشكل الجديد ويمسك به . وكما ان تولستوي الفنان يلاحق خياله نفسه دون تعب أو كآ ، هكذا أنه تابع للفرار من امام وجهه ، في شيء من الهرب الاخلاقي ، فكانه تجاه تخاعف متجدد ابدأ ، ناقص وغير مكتمل على الدوام ، يحس عملاق الإرادة هذا - دون انقطاع - الحاجة الى التغلب عليه وقهره . وهكذا فان تولستوي لا ينتج ، طوال ستين عاماً من العمل الجبار ، مؤلفاً واحداً لا يجوي وجهاً يعطي مسودة عن شخصه بالذات ، دون ان تستطيع اية مسودة رسمها ان تضم - لوحدها - كل اتساع هذا الانسان وامتداده ، بل ان سائر رواياته وأفاصيصة و « مذكراته » ورسائله في مجموعها - هذا النتاج الذي يضم عالمه عنيف التدفق والجريان - تستطيع وحدها ان تعطي صورة صحيحة عنه ، ولكنها ههنا الصورة الأكل والأدق والأوضح والاكثر استمراراً التي رسمها يوماً انسان عن نفسه في زماننا بأسره .

وفي الحقيقة ان تولستوي ، وهو الذي تفصل شدة واسعة بينه وبين الاختراع ، والذي يعجز إلا عن خلق اشياء عاشها البشر وشاهدوها ، لا يستطيع ابدأ - على اعتباره كأنثاقياً ومرقياً للككون بضع ذاته ، في شيء من اليأس ، في مركز رؤاه دوماً - ان يطرح من ساحة بصره أنه الخاصة ، بحيث لا يفقد قط الشعور بشخصيته حتى

ولا في لحظات اشراقه .. أن يعبرته النافذة ، المجاملة ، لاتعاقب الاخفان قط ، حتى ولا في احضان الهوى . ان تولستوي (واي شيء لا يعطيه كي يبعده عنه ذلك الظل المرهق لآثاء الخاصة ؟) ، هذا الانسان الذي يملك في كل من حواسه وعباً فائقاً عن ذاته ، ان يستطيع ابدأ ان يتحرر ثانية واحدة من شخصه ، ان ينسى نفسه أوتناساها . انه عاجز عن الاستسلام حتى الى عنصره الجواني ، أعني الطبيعة : « انا احب الطبيعة عندما تحمف بي من كل حذب و صوب (فلنلاحظ « انا » و « بي ») ، ومع ذلك فيجب ان اكون في وسطها . اني احبها عندما تعمرني أنسائها الدافئة بأواجها ، ومن ثم تبعد نحو آفاق لا متناهية ، عندما تعبر عروق العشب الطرية التي اضغط عليها اثناء اقتعادي الارض اخضرارها الى الخقول الواسعة المترامية الاطراف . وهكذا نرى ان المشهد الاكثر سحراً وفتنة لا يعدو كونه ، بالنسبة الى حساسيته ، الشعاع والدائرة اللذين ثبتت أناه في وسطها وتستقر - وأناه مركز ثقل كل حركة على الاطلاق ، مركز لا يتفتح من مكانه قيد أنملة ابدأ - والكون الروحي بأسره يدوم بالطريقة نفسها ويستدير حول شخصه وفكره وحدهما . وهذا لا يعني انه مغرور ، متكبر ، متعصب لأناه ، يعتبر نفسه في هبالغة تبعاً لكل حدود - سره هذا العالم ومركزه ، بل ان احداً - على النقيض من ذلك تماماً - لم يشك اكثر منه بقيمته الاخلاقية ، بالرغم من عمق وعيه لأناه وسدته . ولكن الرجل متأصل بصورة متينة جداً في جسده العملاقي ، عميق الجذور في سجين انطباعاته الشخصية ، حتى لا يستطيع قط ان يحذف أناه وينسى نفسه . ان القدر قد امسك بصورة مطلقة عن هذا الفكر غير الممنح موهبة الفرار من نفسه كي يطير نحو عالم الحلم ، نحو الوهم والحرافة ، نحو شيء ما غريب عن عالم الارض . انه مضطر بصورة اجبرية لاتعرف تعباً او كلا - وفي غالب الاحيان بالرغم من ارادته ، ودوماً فيما وراء ارادته البصيرة - الى دراسة نفسه والتجسس عليها ، وتوضيحها حتى الاهياء ، الى « اقامة الحراسه » نهاراً و ليلا على حياته الخاصة . وهكذا فان حمايه في ترجمة حياته لاتتوقف لحظة واحدة ، مثلاً لاتتوقف الدماء في اورده ، او ضربات قلبه في صدره ، او الافكار تحت جبينه ... ان صنع مؤلف ادبي يعني بالنسبة اليه دوماً إدانة نفسه ورواية قصته .

وهكذا فليس هناك شك من تمثيل الأنا لم يمارسه تولستوي ، من الحكاية البسيطة الساذجة ، الى المراقبة الموضوعية والميكانيكية الخالصة للذكري ، ومن الشكل التربوي الى المراقبة الاخلاقية ، ومن الاتهام الاخلاقي الى الاعتراف الروحي ، انه تمثيل الأنا كوسيلة الى كبح جماح النفس وتحريرها ، وترجمة الحياة الذاتية كفعل جمالي وديني خالص ... كلا ، اننا لن ننتمي من تعداد سائر الصيغ في تفاصيلها ، وسائر المبررات في دقائقها ، ومن وصف ذلك التنوع المدهش الذي يميز هذه الاظهارات الأنا ، ان العارية او المقنعة على حد سواء . ولكن هناك شيئاً واحداً اكيداً لا يتطرق الشك اليه ، وذلك ان تولستوي هو الانسان المعاصر الذي تتوفر لنا المعلومات عنه اكثر من اي انسان سواه ، مثلما هو اكثر من تتوفر لنا صورة من الناس . اننا نعرف من مذكراته مراهق السابعة عشرة مثلما نعرف عجوز الثمانين ، ونعوف اهواء صباه ، ومأساة زواجه ، وافكاره الاكثر لفة بنفس الدقة والصدق الذين نعرف بها افعاله الاكثر جنوناً وتفاهة ، لأن تولستوي - وهناتنا قاص مطلق آخر مع دستوفسكي الذي كان يعيش «مغلق الشقين» - كان يجب ان يعيش مصيره «تاركا الابواب والنوافذ مفتوحة على مصاريحها» . واننا نعرف بفضل هذه التعرية المبهوسة لكي نوثته التي يقوم بها هو نفسه ، كلام من حر كانه ومن خطراته ، وحتى اكثر فصول سنوات وجوده الثمانين سطحية وتفاهة ، بذات الدقة التي نعوف بها صورته الحكيم كما تظهرها لنا نسخ لاحصر لها ولاعد ، عند الحذاء او في حديث مع الفلاحين تارة ، وملتطياً جواده او وراء المخرات تارة اخرى ، الى طاولة العمل او في ملعب التنس حيناً ، ومع زوجته او مع اصدقائه وحفيدته حيناً آخر ، بله وهو نائم او على سرير الموت ايضاً . والأكثر من ذلك ان هذه الوثائق العديدة وذلك الاظهار الاخلاقي والحكمي التي يقدمها لنا جميعاً تولستوي بنفسه ، تؤيدها ذكريات لا تحصى وملاحظات لاتعدصادرة عن المحيط الذي عاش فيه ، كتبها زوجته ، او ابنته ، او امناه سره والصحفيون والزائرون العديدون ... وعندني انه يمكن تجديد غابات ياسنايا بوليانا بالحشب الذي صنع به الورق الذي خطت عليه محتاف الذكريات المتعلقة بتولستوي ! ابداً لم يعش شاعر واعياً بمثل هذه الطريقة المفتوحة ، وقلة هم ايضاً اولئك الذين عرفوا الناس

علي انام مثله . انا لانعرف منذ جوته وجهاً تتوفر الوثائق عنه بمثل هذا الكمّال ،
وثائق تقدمها المشاهدة الداخلية والمشاهدة الخارجية جميعاً .

وتعود هذه الحاجة عند تولستوي الى مراقبة نفسه الى يقظة وجدانه
الاولى ، فتبدأ بتوطيد نفسها اول ما تبدأ ، في عدم انتظام ودقة ، في الجسد
المزدهر والمضطرب ، جسد الطفل الصغير قبل ان يعرف الكلام بزمن طويل ،
ولانتهي الا في الثالثة والثمانين ، والرجل مسجى على سرير موته ، والكلمة
الارادية قد فقدت كل سلطة لها على اللسان ، والشفة التي تنطق لا تصعد في
الفراغ بعد الآن الا نفخة غير مفهومة . ولكنك لانجد في هذه الفترة من الزمن
التي تفصل بين البداية وسكون النهاية لحظة واحدة لم يقل فيها او يكتب شيئاً .
ان الطالب تولستوي ، وهو بعد في التاسعة عشرة لما يكسد يتخرج من المدرسة ،
يشترى كراسة ليكتب عليها مذكرات يومية ، فيخطط منذ الصفحات الاولى هذه
الكلمات : « اني لم اتاثر من قبل على كتابة المذكرات ابدأ لانني لم اجد لها نفعاً او
فائدة . أما الآن وانا معني بتطور مواهبي ، فلسوف استطيع بفضل هذه
المذكرات ان اتابع بعريان هذا التطور . يجب ان تضم هذه المذكرات
قواعد للحياة ، كما يجب ان اكتب فيها افعالي اللاحقة » . ففي هذا الفتى الصغير
الذي ما برح امرد الهيا ، يوجد منذ الآن اذن بذرة لما تنبت بعد ، بذرة مربي
الكون اللاحق الذي سيصير اليه تولستوي ، هذا الذي يعتبر الحياة منذ البداية
« مهمة جدية » يجب ان ينفذها المرء بدقة وخطورة . ويبدأ بفتح حساب خاص
براحباته ، مثله مثل تاجر يباشر اعماله ، « من والي » من المبادئ والافعال .. ان
هذا الفتى الصغير البالغ التاسعة عشرة اعلى معرفة تامة منذ الآن بدخل الرسايل الذي
يمثله شخصه ، فهو منذ اول احصاء ، يقوم به عن كائنه يتحقق من انه « فرد غير عادي »
ألقي على عاتقه « مهمة غير عادية » .. ولكنه يحسب في الوقت نفسه ، منذ الآن
وبدون اية شفقة - هو الذي ما برح نصف طفل بعد - اي مجموع ضخم من الارادة
سوف يتوجب عليه ان يبذله كي يفرض على طبيعته الميلالة الى الكسل والطيش
والتهور والشهوانية سلوكاً اخلاقياً حقاً وفعلماً ... وان هذا العالم النفساني المبكر

ليعرف منذ الآن ، بغريزة سحرية البصيرة ، أسوأ عيوبه . . . تلك العيوب الروسية
الذموجية حتى الدرجة القصوى ، عيوب بعثرة النفس وتبذير الزمن وهيجان لا يكبح
جماحه . . .

ولذا فهو يخلق لنفسه جهازاً الغاية منه الاشراف على مردود كل من نهاراته ،
حتى لا ينقضي احدها ابدأ دون ان يحصد منه بعض الفائدة والنفع ، فالمذكرات
تخدمه في البدء اذن محرراً كي يتقدم تروياً ، كي يجلل ذاته حتى الصميم ، وكي (يجب
ان نفكر دوماً في كلمة تولستوي هذه) « يقوم بالحراسة على حياته الخاصة » .
وهذا المراهق يختصر مثلاً ، بدقة لا مداراة فيها ، نتائج احد نهاراته على هذا
الفرار : « من الظهر حتى الساعة الثانية مع بيجينشيف ، تحدثت بحرية كثيرة ، وبغرور
عظيم ، وانا اكذب على نفسي ايضاً . . من الثانية حتى الرابعة رياضة بدنية : قابل
من العكوف ومن الصبر . . من الرابعة حتى السادسة طعمت وابتعت بعض الاشياء
عديمة النفع . في البيت لم اكتب شيئاً : انه الكسل . . ولم استطع ان اقرر ان كان
يجب ان اغدو لزيارة آل فولكونسكي ام لا . . تحدثت قليلاً هناك : انه الجبن . . ولقد
تصرفت بصورة سيئة : جبن ، وغرور ، وطيش ، وضعف ، وكسل » .
ان القسوة التي يطبق تولستوي بها على عنقه بيده الطفولية
لمبكرة وعديمة الشفقة حتى هذا الدرجة البعيدة ! ولسوف تدوم هذه القسوة طوال
سنتين عاماً ، مثلها في التاسعة عشرة . ان تولستوي ، في الثانية والثمانين ، ما برح
يمسك بالسوط مرفوعاً فوق رأسه ، وبالقسوة نفسها يخط في مذكرات الشيخوخة
هذه التعوت المهينة الموجهة الى نفسه : « جبان ، نذل ، كسول » ، عندما لا يخضع
جسده المتعب خضوعاً تاماً مطلقاً للنظام السبارطي الشديد الذي تفرضه ارادته عليه . .
ان تولستوي يقف بالمرصاد ، منذ الساعة الاولى حتى الساعة الاخيرة ، حارساً على
حياته الخاصة ، مثله مثل صف ضابط بروسي قاس وعبد لواجب ، عبداً للنظام
الذي يفرضه بعض ارادته على نفسه ، ساعياً بالانذار تارة ، والتهديد تارة اخرى ، وربما بضرب



ليون تولستوي في ثياب المزارعين الروس

خبيث متلاحق من عقب البندقية في بعض الاحايين ، الى طرد البطالة والكسل بعيداً عنه ، كما يسير في طريق الكمال المسيرة . . .

ولكن الفنان الكامن في تولستوي ليطالب هو الآخر ، بصورة متوافقة تقريباً مع الاخلاق في المبكر فيه ، بصورته ايضاً ، فيبدأ في الثالثة والعشرين (وهو أمر فريد في الادب العالمي !) ترجمة حياة ذاتية في ثلاث مجلدات . . . ان نظرة تولستوي الاولى تقوم في التطلع الى نفسه في المرآة . ان هذا الفتى لا يعرف شيئاً من العالم بعد ، حتى انه يختار موضوعاً لفنه ، وهو لما يتجاوز الثالثة والعشرين ، قصة حياته وحدها ، قصة طفولته . . . وهكذا فان الملازم الثاني تولستوي ، الذي ما برحت لحيته عبارة عن وبر خفيف فقط ، والذي يعسكر كمدفعي في احدي قلاع القوقاز ، يجرب بسذاجة لاتقل عن سذاجة دورر الذي يتناول الريشة المفضضة وهو في الثانية عشرة كي يرسم على اول ورقة سقطت بين يديه بحياه الضيق ، الشبيه بمصفاة صغيرة ، حيث لم تضع التجربة بعد اياً من غضونها ، يجرب اذن ، فضولاً وحباً في الاستطلاع ، ان يروي لنفسه « طفولته » و « سنوات صباه » و « سنوات مراهقته » . انه لا يعنى اذن ان يكتب لهم ، ولا يفكر ابدأ في الادب ، والصحف ، وجمهور القراء ، بل يطبع - بصورة غريزية - حاجة الى فهم نفسه بروايته قصة حياته ، دون ان يلاحق ذلك الدافع العامض فيه أي هدف معين واضح ، كما انه - على التقيض بما سيتطلبه فيما بعد - لا « يستنير بضياء أي اهتمام اخلاقي » . ان هذا الضابط الصغير في القوقاز يتصرف بدافع من غريزته وحدها ، ويحط على الورق بدافع من الفضول والضحك ، في هواية لطيفة ، على غرار التصوير المائي ، صور بلاده وصور طفولته . انه لا يعرف شيئاً بعد من ذلك الرمز الذي سيتجلى فيما بعد عند تولستوي على طريقة رسل جيش الخلاص ، لا يعرف شيئاً من « الاهتداء » ، « الاهتداء الى الخير » ، ولا يحاول كذلك ان يعلن على الملأ ، كتنذير شديد وانذار عنيف ، « فطائع شبابه » ، كي يستخرج منها مثلاً يفيد الآخرين . كلا ، ان هذا الشاب البالغ الثالثة والعشرين لا يصف وجوده الصغير ، وانطباعاته الاولى ، وآبائه ، وأمه ، وأهله ، ومعابيه ، والبشر ، والحيوانات ، والطبيعة ، كي يفيد بعض الناس وينفعهم ، بل انما يفعل ذلك بدافع لعب غريزي فقط ، ميدانه فكر مافىء يحمل شيئاً كثيراً من الطفولة ، فكر

لم يعيش حتى الآن إلا حادثة واحدة ، الا وهي « كيف انزلت الصبي الصغير فيه حتى المراهق » ، وان تولستوي لينجح في وصفه ذلك نجاحاً عظيماً بفضل تلك العفوية الرائعة التي لا يعرفها إلا ذلك الذي لا يلاحق هدفاً معيناً . ما أبعد هذه الطريقة الصافية في الرواية ، ما أشد بعدها عن ذلك التحليل الخطير العميق الذي يتميز به الكتاب المنهجي الذي سيصير اليه ليون تولستوي ، هو الذي سيجسد نفسه مضطراً ، بفعل المركز الذي يحتله ، الى تقديم نفسه امام الناس ككاتب ، وامام الفنانين كفنان ، وامام الله كخاطي ، ، وامام نفسه كمثل للتواضع الضروري ! ان الذي يكتب هذه الاقاصيص ليس إلا نبيلاً لا يريد ان يقضي كل أمسياته على مائدة التبار ، كما ان الحنين الى محيط بلاده الدافئ ، ، والى غدوة الرجوع التي اختفت منذ زمن بعيد ، يثابه وهو في بلاد اجنبية غريبة . وعندما يحصل ما لم يكن منتظراً ، فاذا تلك الترجمة الذاتية العديدة الغاية تمنحه اسماً في عالم الأدب . فان ليون تولستوي يسرع فيهمل استكمالها ، يهمل قصة « سنوات الرجولة » . . . ان الكتاب الشهير لن يسترجع بعد الآن ابدأ ايقاع الكتاب المجهول ، والمعلم لن ينجح قط في سنوات نضوجه في رسم صورة ذاتية بنقاوة الصورة الاولى ومرونتها . وفي الحقيقة ان الفنان يصاب بخسارة لاتعوض - منها تكن الحسنات التي ينالها من امتلاكه جمهوراً خاصاً به - خسارة نوع من الاخلاص والامانة الساذجين ، اخلاص وامانة يستحيلان على اية حال إلا في عتمة الاسم المجهول . ان عفة نفس متعاطفة تبدأ بالظهور وتوافق مع المجد ، عند كل انسان لم يصبح بعد - بصورة كلية - عبداً للادب ورقياً . . . ان حياة الكتاب الخاصة يجب ان تحتجب ، خلف قناع وتتخفى كي لا يبأني شيء كاذب او مسرحي المظهر فيشوه بصورة محتومة ذلك الاخلاص الذي لا يملكه إلا المجهول وحده ، هذا الذي لم يجرحه بعد فضول العالم . ولسوف ينقضي نصف قرن كامل (ان الارقام عند تولستوي لواسعة مثل الارض الروسية) قبل ان تعود تلك الفكرة التي كانت مجرد لعب بسيط بالنسبة الى المراهق ، ففكرة ترجمة ذاتية كاملة ومهيمية ، فتشمل ذهن الفنان من

جديد . ولكن ما أكثر ما تبدلت هذه المهمة بعد مروره الى الافكار الدينية ! لقد اصبحت رسالة انسانية ، اخلاقية ، تربوية ، هدفها لا معرفة الذات فحسب ، بل تنقيف العالم وهدايته في الوقت نفسه - بفضل تلك الصورة عن تولستوي التي وضعها تولستوي ايضاً : « ان وصفاً اميناً وبمكناً معاً يقوم به كل فرد عن حياته الخاصة ، يملك قيمة كبرى بالنسبة اليه ، ويجب ان يكون ذا نفع عميم بالنسبة الى سائر الناس » . وهكذا فهو يمان فيما بعد ، بكل خطورة ، عن هذه الرسالة العظمى ، ويروح يتأهب بدقة عظمى - وهو عجوز في الثمانين - لذلك التبرير الحاسم . ولكنه لا يكاد يبدأ المؤلف حتى يمله ، بالرغم من انه يجد هذه الترجمة الذاتية « الموافقة للحقيقة بصورة مطلقة ، اكثر فائدة . . . من كل الثروة الفنية التي تملأ مجلدات مؤلفاتي الاثني عشرة التي يمنحها اناس هذه الايام أهمية لانستحقها مطلقاً » . وفي الحقيقة فان المقياس الذي يخدمه في الحكم على الحقيقة قد زاد دقة على مر السنين ، بمقدار ما تحسنت معرفته لحياته الخاصة ، بحيث اصبح اكثر تعنتاً في هذا المضمار . . . لقد عرف ان كل ما هو حقيقي يرتدي شكلاً متعدد المظاهر ، صعب النفوذ ، قابل التبدل والتغيير ، فاذا الرجل الذي وعي مسؤولياته يجد نفسه مذعوراً مرتجف الاوصال حيث كان مرافق الثالثة والعشرين يتزحلق على سطوح ملساء كالمرايا ، فيتراجع يائساً ويعود القهقري ، هو الذي يفتش عن الحقيقة ويعرف ماهيتها . . . انه يخاف من « النواقص » من عدم الامانة التي تتسرب بصورة محتومة في كل ترجمة ذاتية ، « يخشى ان « تصبح مثل هذه القصة كاذبة ، حتى ان لم تكن كذباً مباشراً ، بفعل اضاءة مغلوطة ، تظهر بصورة منهجية الى النور ما هو خبير ، وتترك في الظلمة ما هو شر » .

ويعترف دون مواربة : « وبالمقابل ، عندما قررت ان اكتب الحقيقة العارية فلا اخفي اي عمل شرير ارتكبهته في حياتي ، ذعرت للنتيجة التي ستنشأ ، حتا ، عن مثل هذه الترجمة الذاتية » . ان الاخلاقي الذي صار تولستوي اليه يدرك بكل

وخسوح ، بمقدار ما يتحصى بانتباه اخطار مثل هذا المشروع - هو الذي لم يعد يفكر
إلا في الآخرين ، في « النتيجة » التي ستحدث - استهالة إنجاز العمل بين « ساريد
الأنانية وسيللا (١) الصراحة التصوي » ، في وضيق نفس كلية السلامة شديدة الاخلاص .
وان مشروع هذه الترجمة الذاتية الاخلاقية ، المصنوعة « من وجهة نظر الخير والشر » ،
والتي ينوي فيها ان يكتشف دون أي تحفظ - باعلان محفوف بالأخطار عن
أناه - « كل سفالة حياته وعارها » ، ان هذا المشروع لم يتحقق ابداً ، وما السبب
في ذلك الاحترام الحقيقية المطلقة بالضبط . . . لكن لا نأسف أكثر مما يجب لهذه
الحسارة ، لاننا نعرف بصورة دقيقة ، بما كتبه تولستوي في تلك المرحلة - « الاعترفات »
مثلا - ان الحاجة الى الحقيقة قد اصبحت بالنسبة اليه ، منذ أزمته الدينية ، الحاجة
التي لاتقاوم الى اهانة نفسه وإذلالها ، نوعاً من اللذة المجنونة في جلد نفسه (على غرار
لذة تلك الفئة من الروسيين الذي كانوا يجلدون انفسهم بالسياط كي يقهروا خطيئة
جسدهم) ، بحيث كان كل تصريح عن شخصه أدلى به في تلك السنوات يتفسخ في
نوبة عنيفة من الشائم والاهانات الصادرة عنه على حسابه الخاص .

ان تولستوي هذه السنوات الاخيرة لم يكن يريد ان يروي قصة حياته بكل
بساطة فحسب ، بل ان يذل نفسه أمام اعين البشر ، ان « يقول أشياء كان يجمل
من ان يعترف بها لنفسه » ، بحيث أن هذه اللوحة النهائية التي رسمها عن شخصه قد
اصبحت من دون ريب ، بذلك العرض الجائر « لردائله » وخطاياها الكاذبة ، تشويهاً
للحقيقة لامراء فيه . واننا نستطيع ، بالاضافة الى ذلك ، ان نستغني عنها تماماً ، لاننا

« ١ » اعصار مائي وكنهه جبارة من الصخور في مضيق ميسنا قرب صقلية مشهوران كثيرا في

الملاحه القديمة لما كانا يتعمان من الرعب في قلوب الملاحين الذين كثيرا ما كانوا يصطدهون

بالتالي اذا استطاعوا ان يتجنبوا الاول .

فذلك وصفاً آخر لتولستوي ، وصفاً من وضعه ايضاً يضم كل حياته ويشملها ، في مختلف مراحلها ؛ وصفاً لعله اكمل ماتركه شاعر -- خلاجوته -- عن نفسه ... وصحيح ان هذا الوصف ، كما هي الحال عند جوته ، لا يوجد في مؤلف واحد ، بل بالاحرى في التنوع ، فهو يتطور دون مفاصل او فراغات خلال مجموع مؤلفاته ، ورسائله ، و «مذكراته» ... ان هذا الفنان ، المعني ابدأً بأناه الخاصة في سائر مراحلها المختلفة ، قد وضع نفسه على المسرح - بنسبة امبرانت تقريباً - في رواياته واقاصيصه ، متكرراً في وجوه مختلفة ، لكن يمكن التعرف عليها دوماً وبسهولة تامة ايضاً ! ... وانك لا تجد في وجوده الطويل جداً مرحلة هامة من حياته الخارجية ، أو أزمة في حياته الداخلية ، لم يجسدها - مثلاً يفل الشعراء الحقيقيون - في شخص رمزي ... ان الملازم الثاني الشاب أو لينين ، سليل الطبقة النبيلة الذي يفتش - في «القوزاق» - في اية مهنة يرتقي في احضانها وفي الطبيعة العظيمة في وقت واحد ، عن ملجأ يفر اليه من كآبة موسكو وبطالتها ، ويمجد فيه نفسه وأناه ايضاً ؛ انما هو ، حتى في كل خيط من خيوط ثيابه وكل ثنية من ثنايا وجهه ، الرئيس القتي في المدفعية تولستوي بلحمه ودمه . وان بيير بوشوف الحالم ، الثقيل الدم ، في «الحرب والسلام» ، وأخاه اللاحق النبيل الريفي ليفين ، هذا الباحث عن الله الذي يحترق برغبة النفوذ الى معنى الحياة ، ليفين «أنا كاريننا» ، لهما من دون ادنى ريب - حتى في مظهرها الحكيم - تولستوي نفسه عشية الازمة . وإن سائر الناس ليعرفون تحت جبة «الاب سيرج» نضال الكلاب الشهير في سبيل المقداسة ، وفي «الشیطان» مقاومة تولستوي الذي يشيخ ضد مغامرة شهوانية ، وفي الامير نيشلودوف - أكثر شخصياته اعتباراً (انها تجتاز مؤلفاته بأسرها) - ذلك النموذج من الانسان الذي احتفظ به سرأً في اعماق كينونته ، تولستوي المثالي الذي يعبره كل نواياه وسائر افعاله مرآة مبدعة خلاقة لوجدانه الاسمي ...

لا بل ان ساريزين نفسه ، في «النور في الدياجير» يحمل قناعاً شديداً الشفوف ،

ويفضح بصورة تامة كل مشهد من مشاهد مأساة تولستوي العائلية ؛ حتى ان كل مثل يلعب ، اليوم ايضاً ، ذلك الدور على الحشبة ، يضع بالضرورة قناع الكاتب الكبير ويتأثم به... ان طبيعة شديدة الامتداد والاتساع ، كطبيعة تولستوي ، قد اضطرت الى الانقسام والتوزع على العديد من الشخصيات التي اذا ما قمتنا عنها وجمعناها - صورة فصورة - في تيار مؤلفاته العظيم وجريانها ، سمح لنا اجتماعها ان نركب من جديد صورة تولستوي الجامعة ، الامر الذي يتحقق لنا بكال ووضوح مطلقين .

ولذا فان كل ترجمة لحياة تولستوي ، وكل وصف وثائقي لشخصه ، أمران فائضان في الحقيقة بالنسبة الى كل من يستطيع ان يقرأ ببصيرة نافذة وفكر ثاقب مؤلفات الكاتب الشعرية ، لانه لا يوجد اي مراقب خارجي يتفوق في وضوح التعبير على هذا المراقب لأنه ، الملاحق لما دون هوادة... انه يقودنا في احضان اكثر نزاعاته خفية ، ونثره - مثل شعر جوته - ليس إلا اعتراضاً وحيداً وعظيماً يتطور ويستكمل نفسه ، صورة فصورة ، عبر حياة كاملة مديدة السنوات .

وان هذا الاستمرار ، وحده ، هو بالضبط ما يرفع عمل تولستوي الى المرتبة الاولى من الترجمات الذاتية التي تركها لنا فنانون النثر .. ليس هنا ما يشبه من بعيد او قريب ترجمة كازانوف الذاتية ، المكتوبة كتلة واحدة ؛ او ترجمة ستندال الجزئية غير الكاملة... ان تولستوي يعدو دوماً ، ملاحقاً نفسه في اشخاصه ، مثلما يتأثر الخيال الجسد .

وفي الحقيقة ان هذا المنهج ، هذه الحاجة التي يحسها المرء الى اظهار نفسه بمرونة والاعلان عنهادون كال ، شيثان مألوفان عند سائر الفنانين على الاطلاق . ان الشاعر - هذا الانسان الغائض الحصب والرازح تحت نير قضاء متعدد ، هذا الانسان الذي تسقيه كل حادثة وتلقحه - يردد في خليفانه ان الاشراف التي تسكره ، او الازمات التي تمزق كينونته... ولكن بينما يتقدم الكثيرون امام الناس في قناع

وحيد دائم ، مثل ستندال في كتابه « فابريس » وجوتفريد كيلر (١) في « هنري الاخضر » وجويس في « ستيفان ديدالوس » ، نجد ان تولستوي ، بسبب تبدلاته المستمرة والفريدة في نوعها ، يعطي صورته الخاصة شكلاً جديداً كل عشر سنوات ، فنراه هكذا ونعرفه لاشخصاً وحيداً لا يتبدل ، بل طفلاً ومراهقاً ، ومن ثم ملازماً ثانياً عديم المبالاة ، فزوجاً سعيداً ، وبعد ذلك نرى اليه ناول (٢) جديداً وبولس في أزمة التي ترفعه نحو الله . مناخلاً ونصف قديس معاً ، واخيراً نراه عجوزاً قنوعاً هادئاً حمل السكينة الى نفسه بنفسه ... نراه مختلفاً ابداً ، ولكن الانسان نفسه دوماً بالرغم من ذلك ، فكأنه نوع من الصورة السينمائية التي تجري باستمرار وتتطور دون ادنى علاقة برسم شمسي وحيد جامد ...

الا انه يجب ان نضيف الى هذه السلسلة من الصور التي لاقتناز إلا بالمرونة والتي هي مؤلفات الشاعر ، المكمل العظيم لافكاره الذي كتبه المفكر عن نفسه ، « المذكرات » والرسائل التي ترافق - يوماً فيوماً وساعة بعد ساعة - فكره اليقظ حتى ساعة وفاته ، بحيث لا نكاد نجد في هذا الكون الفكري المتعدد الوجوه كثيراً موضعاً واحداً فارغاً لم يطرق ، ارضاً مجهولة لم يستكشفها الفكر ويعرف خفاياها . ان سائر القضايا الاجتماعية والعائلية ، الشعرية والادبية ، الزمنية والميتافيزيائية ، قد نوقشت هنا ومجثت ... اننا لم نر ابداً ، منذ جوته ، الوظيفة الفكرية والاخلاقية اشاعر ارضي وقد تحققت علي خير وجه وبصورة مطلقه تماماً . وكما ان تولستوي

« ١ » روائي سويسري ساخر الاسلوب (١٨٢١ - ١٨٨١) .

« ٢ » شاول هو اسم بولس الرسول قبل اعتناقه المسيحية .

يمثل ، بصورة مثلى ، في هذه الحياة غير العادية ، في هذه الانسانية فوق الانسانية في الظاهر - مثل جوته تماماً - الانسان الطبيعي والصحيح ، الانسان المتوازن تماماً ، والمجرد عن كل ما هو خيالي او مرضي ، النموذج الكامل للجنس ، رمز التوازن الاخلاقي والجسدي ، الأنا الابدية والنحن الشاملة في نفس واحدة وفي كل لحظة من لحظات الزمان ، فاننا نجد مرة اخرى - كما عند جوته - في وجوده الذي اصبغ وثائقياً حتى هذه الدرجة البعيدة ، مختصراً للانسانية نفسها وصورة مصغرة عنها ...

الازمة والتحول

« ان ام حدث في حياة الانسان هو اللحظة
التي يمي فيها اناه .. وان نتائج هذه المحادثة قد
تكون جيدة للغاية ، أو قد تكون رهية حتى
الدرجة القصوى ايضاً » .

نوفمبر ١٨٩٨

في مزار الخلق الفكري يصبح كل خطر نعمة وفضلاً عبيدين ، وتصيح كل عاتقة عوناً ومحرضاً نافعين ، لان المبدع يجد فيها وسيلة لاطلاق قوى مجهولة وتجديدها باستمرار ... واذا كان مقدراً لوجود ما ان يؤثر في الكون ، فيجب ألا يأسن هذا الوجود في الجمود ويركد ، لان قوة الفكر - مثلها مثل كل قوة حكيمية - انما تولد من الحركة والتبدل الدائمين ، وليس اخطر على الشاعر من الاكتفاء ، والقناعة ، والعمل الميكانيكي ، والطريق اليسيرة الحالية من الصعوبات .

وان تولستوي لم يعرف الا مرة واحدة فقط هذا الفتور الذي ينسى فيه أنه ، هذه السعادة التي يستمتع بها الكائن الانساني ومنها ، هذا الخطر الذي يتعرض الفنان اليه ويسقط في شبابه ... ان روحه ، المتمردة دون انقطاع ، غير الراضية ابداً ، لم تمنح نفسها الراحة في ذلك الحسب الطويل الذي سبقوده نحو أنه إلا مرة واحدة ، طوال فترة لا تزيد عن ستة عشر عاماً من وجود استمر ثلاثة وعشرين حولاً مديداً ... ان تولستوي لم يعيش في سلام مع نفسه وفي احضان عمله إلا خلال تلك الفترة من الزمن التي تفصل بين زواجه وبين الانتهاء من روايته : « الحرب والسلام » و « أناكارينا » ... وان « المذكرات » - هذه الحاضرة لوجدانه - لتصمت بدورها ايضاً طوال ثلاث عشرة سنة (١٨٦٥ - ١٨٧٨) دون انقطاع ... ان تولستوي ، ساجداً في سعادته ، مستسلماً الى تيار العمل الذي ينجزه ، لم يعد يراقب نفسه البتة ، بل لا يفعل سوى مراقبة العالم وحده ... إنه لا يطرح المشاكل ويطلب لها الحلول ، لانه مشغول بالخلق منهك في لجنه ، خلق سبعة أولاد بالاضافة الى مؤايفه الملحميين الاكثر قوة وعظمة ... في تلك الاثناء ، وفي تلك الاثناء وحدها ، عاش تولستوي مثل سائر البشر مجرداً عن سائر الهموم ، راضياً في أنانيته العائلية البورجوازية المتكبرة ، سعيداً ، راضياً ، مبهتجاً ، لانه قد تحرر من « السؤال الرهيب عن سبب

الأشياء» ... « اني لم أعد أتأمل في حالي مطلقاً ، لقد انقضى كل تأمل وخلا زمانه ولم أعد أفتش ابدأعما يكن في اعماق انطباعاتي المختلفة . اني لأفعل سوى الاحساس ، دون التفكير ، في علاقتي مع عائلي ، فتوفر لي هذه الحال حرية فكرية كبيرة للغاية » .

ان السير المنتظم للانضاج الفني لا يتعرقل ابدأ بدراسة الأنا النقدية ... والحارس القاسي ، المتيقظ ابدأ ، المنتصب في جبروت امام الشخصية الأخلاقية ، يتعد وهو يففو ، تاركاً للفنان حرية حركاته ، موفراً له انطلاق حواسه التام ... وتأتيه الشهرة في تلك السنوات ، فيضاعف ثروته اربعم مرات ، ويربي أولاده وينشئهم ، ويزيد في اتساع بيته . ولكن الاكتفاء بالسعادة ، والاعتناء بالمجد ، والشعب بالحيوات ، جميعها امور يستحيل استمرارها بالنسبة الى هذا الجني الاخلاقي ، فهو يعود في كل مرة ، بعد كل خلية أدبية ، الى عمله الاساسي ، الى انضاج كماله الخاص ، فيذهب من تلقاء نفسه لمواجهة الضرورة ، عندما لا يهتف أي إله بصوتها في اذنيه ... وانه ليخلق مأساته في نفسه مادامت انفاس القضاء لانأته من اي حادث خارجي ، ذلك ان الحياة (وبالاحرى اذن حياة تصخب بكل هذا العنف !) تزيد دوماً أن تظل في حالة دائبة مستمرة من التراجع والاهتزاز ، فاذا ماتوقفت امواج القضاء عن التلاحق من جانب العالم ، فإن الفكر يحجر في باطنه ينبوعاً جديداً متدفقاً حتى لا تنضب ابدأ حركة الوجود الدائرية غير المنقطعة .

ان ما يحسه تولستوي عند اقتراب سنته الحسنة ، وما يدهش معاصريه ويذهلهم بصورة لا تجد لها تفسيراً مطلقاً ، ألا وهو ابتعاد المفاجيء عن الفن ، واتجاهه نحو الأمور الدينية ، يجب ألا يعتبر ابدأ حادثاً فوق عادي وغير طبيعي ... اننا لنبعث عبثاً عن الشذوذ في تطور هذا الانسان السليم بصورة مثلى . غير العادي عند تولستوي إن هو - بكل بساطة - إلا عنف الانطباعات التي يحسها والتي تترك فيه أثراً عميقاً غير ألوف ... وفي الحقيقة ان التحول الذي يخضع تولستوي له في

السنة الخمسين من حياته ليس أكثر من تظاهر واقع يظل خفياً غير منظور عند معظم الناس لأن شدته ليست متساوية دوماً ، بل تزيد أو تنقص حسب الافراد ... انه التكيف المحتمل للعضوية الفكرية والحكيمة مع الشيخوخة المقتربة ، انها « سنة الفنان الحرجة » بكل بساطة .

« ان الحياة تتوقف ونصبح محزنة كئيبة » ، هكذا يعبر هو نفسه عن بدء أزمته النفسانية العنيفة . ان هذا الحسني قد بلغ من تطوره الناقد النقطة الميتة ، حيث تبدأ مرونة البلاسما بالتناقص ، وحيث تهدد النفس بالجلود والتصاب ... فالحواس لاتنفذ بعد الآن بذات القوة التي كانت تنفذها قبلا في الكتلة الرخوة للخاية المبدعة ، ولون الانطباعات يشعب ، مثلما يشعب لون الشعر الذي يشيب شيئا فشيئا ... انه بدء تلك المرحلة الثانية التي عرفنا جوتها عليها ايضاً ، المرحلة التي يتسامى فيها العيب الحواس المليئة بالحرارة الى نوع من المعصرة الباردة حيث ننضج مقولة المفاهيم الشفافة وتكتمل ... ان الجوهر يصبح حادثاً خارجياً ، والصورة تصير رمزاً ، وموهبة الخالق الملون تفسح المجال لتصنيف الامكار المتباور ... وان هذا الظهور لانسان جديد يعيد الطريق ههنا ايضاً ، مثله مثل كل تحول عميق للفكر ، اضيق حكيمي خفيف الوطأة ... للشعور المذبذبة باقتراب شيء غريب ما يروح مجهولاً بعد لم تسبر المعرفة اغواره ... ان قلماً فكراً بارداً ، وخشية رهيبية من الافلاس الذي قد يحدث ، يرسلان الشعورية بصورة مفاجئة في النفس المذعورة ، فإذا الجسد ذو الاعصاب الرقيقة جداً يسجل في التوالف واللحظة ذلك التزعزع الذي يقترب ، (امراض جوته الصوفية ، لدى كل من تبدلاته !) .

واكن ، ونحن ههنا نتوغل في ميدان يكاد استكشافه ان يكون معدوماً بعد حتى الآن - بينا النفس عاجزة بعد عن تحليل هذا الهجوم القادم من الظلمة الخالكة ، فهي ترتجف فرقاً لشعورها المذعور بخطر عتيد عصي على الادراك ،

يكون الدفاع أثناء ذلك بدأ سلفاً في العضوية بصورة عفوية ، تحت شكل ارتكاس نفسياني حكيم ، دون تدخل ذكاء الانسان أو إرادته ، بل بفعل قوة الطبيعة - وهي قوة لا يمكن التفرد اليها - على التنبؤ واختراق حجب الغيب . ذلك ان النفس البشرية ، مثلها مثل الحيوانات التي تكسب اجسادها - على حين غرة - بفراء شتوي دافئ ، قبل اقتراب الصقيع بزمن طويل ، ترندي هي الاخرى - عندما تعلن الشيخوخة عن نفسها ، والحياة لما تكادت تجاوز السمت بعد - ثيابا واقية ، ثياباً من المرتبة الفكرية ، غلافاً دفاعياً ثخيناً تدرب به عن نفسها الجلود والتصلب زمن الانحطاط الفقير باسعة الشمس ودئتها ... ان هذا الارتكاس العميق الذي ينتقل من الحكمي الى الفكري ، والذي ربما كان منشأه في خلايا الغدد الداخلية نفسها ، والذي ينتشر حتى في آخر اهتزازات الانتاج المبدع ، هذه المرحلة الحرجة التي اودان اسمها هنا ضد البلوغ ، انما تحددها - على اعتبارها ترعزاً أخلاقياً - الحالة الدموية الراحنة ، فهي تبدو لنا تحت شكل الأزمة ، تماماً مثل البلوغ نفسه ، وان يكن ذلك حادثاً (لكم يا علماء النفس والنفس المرضي !) لم تكذب تبدأ بعد دراسته في تظاهراته الجسدية ، وأقل من ذلك ايضاً مراقبته في تظاهراته الفكرية .

واقدر امكن عند النساء بصورة خاصة ، حيث سن اليأس يتظاهر بصورة اكثر فظاظة وواضح اعراضاً ، تحت اشكال محسوسة تقريباً ، ان تجميع بعض الملاحظات المختلفة ... ولكن هذه الحادثة نفسها التي تتظاهر عند الرجل بأعراض فكرية في الدرجة الاولى لم تنل بعد نصيبها من الدراسة ، فهي ما برحت تنتظر ، بتأجيلها الاخلاقية العديدة ، ان ينيرها ضياء العلم النفساني ويكشف عن خفاياها ... ذلك ان السنة الحرجة هي ، بالنسبة الى الرجل ، في كل الاحوال تقريباً ، المرحلة الملائمة للايمان العظيم ، للسمو الشعري أو الفكري ، لكل الاشياء التي تصبح ثوباً واقياً للكائن الذي يضعف دمه ، أو رِدفاً فكرياً لانهايار الحواس وترعزها ، او تعاطباً في وعي الكون يعدل فقر الشعور بالأنا ونقص كمون الحياة ، ويعرض عنها .

أن هذه السنة الحرجية ، وهي التي تكمل البلوغ بصورة مطلقة ، ولا تقل خطراً عن هذا البلوغ بالنسبة الى الذين يتحلون بقوة الانتاج ، تؤهب هكذا لمرحلة خلاقة فكرياً ، مرحلة تختلف لوناً عما سبقها من المراحل ، تؤهب لاستعادة فعالية الفكر بين سمته ونظيره ... اننا نجد هذه اللحظة المحتومة من الأزمة عند كل فئات يملك بعض الاهمية ، ولكننا لانجدها عند اي منهم يمثل هذا العنف وهذه القوة ، تغلب التربة عالمها سافلها ، بركانية حتى لتكاد ان تكون مدمرة ، كما هي حالها عند تولستوي . ليس من انسان قد عبر بمثل موضوعية هذا الفنان ، الحيوي والطبيعي بصورة مطلقة ، عن القلق الذي يستشعره الانسان تجاه الضعف الذي ينال الحياة ، وذعره الشديد عندما يحس قوته الخلاقة تتناقص ... وما السبب في ذلك الا ان تولستوي قد عاش حتى ذلك الحين في جو من عدم الاكترات ، خالياً من كل المهوم ، متمتعاً بازدهار حواسه ، مدينأ بإبداعاته الى كمال قوته وفيضها فقط ، فهو اذن يرى في اقل إنقاص لهذه القوة ما يشبه الكارثة الساحقة القاضية ، بله ما يشبه الفناء والانعدام .

والحقيقة ان ما حدث لتولستوي في سنته الحزين ، من وجهة نظر ايجابية ، وجهة نظر موضوعية بسيطة ، هو امر طبيعي حتى الحد الأقصى ... انه يشمر بنفسه يشيخ فقط ، وهذا كل شيء ... لقد سقطت بعض اضراسه ، وأظلمت ذاكرته نوعاً ما ، وأضحى فكره يحس الاعياء في بعض الاحايين ، وذلك في الحقيقة حدث يومي بالنسبة الى كل من بلغ الحسنيين من العمر ... ولكن تولستوي ، هذا الرجل الذي يطفح قوة ، هذه الطبيعة التي تتدفق ابدأ هدارة ثرية خصبة ، يحس نفسه منذ هذه النسمة الحرفية الأولى ، وقد ذبل وأشرف على الموت ... انه يعتقد : وان المرء لا يستطيع الحياة عندما لا يكون نشوان بالحياة ... ان اعياء منشأ الرهن العصبي ، ضيقاً مجبولاً من القلق والبلبلة الفكرية ، يستوليان على هذا الرجل ذي الصحة فوق العادية ، منذ ظهور العلامات الاولى للبرودة والضعف الحيوي ...

ومالسرع مايلقي السلاح ويستسلم ...

انه لا يستطيع ان ينام ، كما لا يستطيع ان يفكر : وان فكري مستغرق في النوم ، ولا يستطيع ان يفكر ابدآ ، وانالست في حال جيدة ، تنقضي الجراءة والشجاعة معاً ... ويمرح حتى النهاية ، شبه بسلسلة ثقيلة : « آنا كارينينا المضجرة التفتة » ... وهذا شعره بشيب بغمّة ، وهذه الغضون تمزق جبينه ، وهذه معدته تتسرد ، وهذه مفاصله تصبح اكثر ضعفاً وهناً ...

انه غارق في بلادة كثيفة ، يقول : « ان شيئاً لم يعد يفرحه ، وانه لم يعد ينتظر من الحياة شيئاً ، وانه سيموت عما قريب ا » .. « انه يحزن بكل قواه الى مغادرة الحياة » ، و « المذكرات » تسجل هاتين الملاحظتين الحازمتين ، الواحدة تلو الاخرى : « الحرف من الموت » اولاً ، ومن ثم ، بعد ايام قليلة : « لسوف اموت وحيداً ! » (بالفرنسية في النص التولستوي) ... ولكن الموت يعني بالنسبة الى عملاق الحياة هذا ، كما جربت ان اشرح ذلك في عرض حيويته ، اكثر الافكار هولاً ... ولذا فانه يرتعش بكل كينونته منذ اللحظة التي يبذوله فيها ان بهض عرى شبكة قوته الجبارة الرطيدة قد اخذت ترتخي وتحل شيئاً قشياً ...

ولكن هذا الشخص العبقري لآناه لا يخطئ. كل الخطأ عندما يشم خيشوماه رائحة نهاية تقرب ، لأن شيئاً مامن تولستوي البدئي يموت في واقع الامر - يموت الى الابد في تلك الأزمة ، وهذا الشيء ليس بالرجل الطافع قوة ، بل هو بالأحرى الفنان الحر الامبالي الذي كان يقبل العالم كمعطية موضوعية لانتبدال ، واقعية مثل جسده الخاص تماما ، وملك له مثل جسده ايضا ... ان تولستوي لم يسأل العالم حتى الآن عن معناه الميتا فيزيائي ، بل اكتفى بتأمله فقط ، مثلما يتأمل الفنان النموذج الذي ينقل عنه ، وترك الحوادث تأتي اليه ، وفي قلبه الطفل يزدهر ذلك الفرح الذي يمنحه الطبيعي من الأمور ... ان هذه الحوادث قد انتصبت دوما امامه عندما كان

يرسم صورتهم ، ولم تجابه مداعباته وحناق يديه الخلاقتين بأية صعوبة أو مضايقة أو عناء ...

ان هذا التأمل الموضوعي والفني الخالص ، هذه الطريقة في رؤية الحياة ، في سبيل إعادة تمثيلها بكل بساطة ، يصبحان بفتنة مستحيلين على الفكر المهمل بالريبة والشكوك ... ان الجماعية الساذجة قد تحطمت ، وبين الكون والأنا قد فتحت على حين غرة هاروية سحيقه تسيطر فيها البرودة والعفونة جميعا ... ان الاشياء لا تتقدم الى تولستوي بعد الآن بالالفة نفسها ، ولانستسلم اليه بكليةها ... بل هو يشعر بأن تخفي عنه جانباً منها ، عطفاً من أعطافها ، ظلماً من ظلالها ؛ تخفي عنه لا يدري اي شيء قائم ، مخفوف بالأخطار ، فائق للوصف لا يخضع له ... هذا أكثر الناس بصيرة يكتشف للمرة الاولى وجود لغز في الحياة ، ويرتاب في ان للحياة معنى لا يستطيع ان يمكس به بالحواس المادية البسيطة ... هذا تولستوي يدرك للمرة الاولى انه في حاجة الى آلة جديدة أكثر معرفة واعمق علماً ، الى عين أكثر وعياً ، الى عين المفكر الثاقبة ، اذا اراد ان يفهم كل ما في تلك الاعماق المظلمة ويسبر غورها ... وتتخذ سائر الفرديات لونا آخر ، او بالأحرى إنه لم يعد هناك فرديات ، لم يعد هناك اشياء تقوم في عزلة وانفراد عن بعضها البعض ... ان كل شيء يتضمن علاقة خفية غامضة مع جماعية لا تقنأ بجهولة بالنسبة اليه ، فهو مضطر - بالرغم منه - ان يبحث بعد الآن في كل حادثة عن معناها الأخلاقي ، وان يري في اغرب الأشياء حضور مصير خاص وارتباطه . وان يمس الامثلة لتوضح هذا التحول والدوران الباطنيين بصورة أكثر جلاء وبيّنة ... ان تولستوي قد شاهد الناس يحتضرون ويموتون مائة مرة في الحروب التي اشترك فيها ، فصور نهايتهم الدامية - دون ان يسأل نفسه ان كان يحق قتلهم ام لا - كتنان وكشاعر ، بالأعيب الحدقة وحدها ، باعتبارها شبكية حساسة على مظاهر الاشكال وظواهرها المختلفة ... وهذا هو الآن يري في فرنسا رأس مجرم يتدرج على ألواح المقصلة ، فاذا قوة اخلاقية تنمرّد فيه

على الإنسانية بأسرها ، لقد مر - هو السيد ، الأقطاعي ، الكونت - ألف مرة الى جانب فلاحيه على متن جواده ، متقبلاً في الامبالاة تجمة عبده المتواضعة كشيء طبيعي مفروغ منه ، بينما خيب الحيوان يغمر ثيابهم بغباب الطريق ؛ وهذا هو الآن يلاحظ للمرة الاولى انهم يسرون حفاة ، وانهم فقراء معدمون ، وانهم يعيشون وجرداً مذعوراً ، مجرداً عن سائر الحقوق ، فيطرح على نفسه للمرة الاولى هذا السؤال المقلق : هل يحق له ان يكون عديم المبالاة تجاه فقرهم وبؤسهم ؟ ان هربته قد مرت في موسكو مالا يحصى من المرات الى جانب المستعطين المتجدين من البرددون ان يدير رأسه نحوهم أو يلقي انتباهاً الى وجودهم ... فالفقر والبؤس ، والاضطهاد ، والدولة العسكرية ، والسجون ، وسيبيريا ، سائر هذه الاشياء كانت بالنسبة اليه أهوراً طبيعية ، مثل الثلج في الشتاء ، ومثل الماء في البرك والبرايميل ؛ وهذا هو الآن ، أثناء احد الاحصاءات ، وقد استيقظ فكره على حين غرة كي يرى في حال البروليتاريا الخوفة اتهاماً ضد نعبه الفانض .

حين لم يعد البشر بالنسبة اليه مواد بسيطة لايفعل إلا « دراستها ومراقبتها ، بل اصبح يسع نداءم الذي يخلق له إزمات أخوية ويفرضها عليه ، حين تلقى ذلك الانذار من الموت الذي أفهمه انه مرتبط هو نفسه بمصير باقي الناس جميعاً ، ذلك المصير الذي يخيم شبح المنية فوقه ويظلمه منذ ذلك الحين انهار نظام الوجود الهادي ، والحيايي على نفسه بعد ان زعزعه زلزال الوجدان ودمر اسسه ... لم يعد باستطاعته بعد الآن ان يتأمل الحياة بعيني الفنان الباردين ، بل هو مجبر على التساؤل ابدآدون كلل عن معنى كل حادثة ، وعن عيشها ، وعن شرعيتها على حد سواء ... انه يحس كل ما هو انساني ليس بالنسبة الى أنه ، بعد ان يجعل من نفسه مركز كل شيء ، ليس بقلب كل الكون الخارجي الى باطنه ، بل اجتماعياً ، أخوياً ، بقلب باطنه الى الكون المحيط به ... ان وعي اشتراكه مع الجميع ومع كل واحد قد « فاجأه » ،

مثل داء وبيل ، فراح يتهد : « يجب ألا نفكر ، ذلك ، ولم للغاية ! » ... ولكن منذ ان فتحت عين الضمير فيه ، اصبح عذاب الانسانية ، ألم الانسانية الاساسي ، اكثر شوؤونه شخصية بعد الآن ، وبصورة دائمة لامر دلهما البتة ... وان الرعب الصوفي من العدم هو بالضبط ما يبعث فيه مراقباً جديداً للوجود ، ميدعاً جديداً لم يكن فيه من قبل ... ان الفنان لا يأخذ على نفسه عبء بناء كونه مرة جديدة إلا في الانكار التام لأنها : فهو يبينه ، ذلك الكون ، حسب القانون الاخلاقي هذه المرة ، ومعجزة الولادة الجديدة تتحقق حيث كان يعتقد ان الموت يسيطر ويتحكم دون مرد لقضائه ... وهذا هو تولستوي الجديد يولد الى الوجود ، ليس تولستوي الذي تجله الانسانية كفنان ، بل ايضاً ذلك الذي تجله على اعتباره اكثر البشر إنسانية على الاطلاق ...

ولكن الكاتب ، المذهول من هول المفاجأة ، لا يحسب بعد ، في تلك الساعة المرهقة من الانهيار ، تلك اللحظة المتقلقة التي تسبق «البقطة» (كما سيصف تولستوي فيما بعد ، وقد استعاد هدوءه ، ذلك القلق الذي اجتأحه) ، لا يحسب بعد إذن أن ذلك الانقلاب يشكل انتقالاً من حال الى حال ... انه يحس نفسه وقد عمي تماماً ، قبل ان تنفتح في باطنه تلك العين كلبية الجدة والاختلاف ، التي هي عين الوجدان ، ولا يجده حوله إلا القوضى ، والاليل المجرى عن كل درب يستطيع المرء ان يسلكها .. ان كونه قد انهار وتحطم ! ... وهو ينظر حواليه في بلاهة ، والفرق يكاد ان يكتم أنفاسه ، الى الظلمة الداكنة حيث لا يكتشف اي معنى على الاطلاق ... ويتساءل ، وهو يطرح على نفسه سؤال « الجامعة » (١) الأبدى : « لم العيش اذن ، اذا كانت الحياة رهيبه حتى هذه الدرجة ؟ » ... لم العناء ، اذا كان المرء لا يفعل الا حراثة حقله من اجل الموت ؟ ... ويروح يتناس ، كالبايس ، جدران هذا الكهف الغام الذي هو الكون ، كي يجد منفذاً له في مكان ما ، وسيلة لمخلص نفسه بها ، شرارة

من الضياء ، أو ميضاً نجمياً يبعث الرجاء في قلبه وعندما يرى ان انساناً لا
يحمل له من الخارج الخلاص والنور ، يشرع يحفر لنفسه نفقاً ، بصورة منهجية عنيدة ،
درجة فدرجة دون تعب أو كلال وفي عام ١٨٧٩ يسجل على قطعة من الرق
الاسئلة المجهولة الآتية :

آ - لم الحياة ؟

ب - ما هو سبب وجودي ووجود الآخرين ؟

ج - ما هو هدف حياتي وحياة الآخرين ؟

د - ما معنى هذه الثنائية من الخير والشر التي أحسها في نفسي ، ولم هي

موجودة هناك ؟

هـ - كيف يجب ان اعيش ؟

و - ما هو الموت ؟ كيف يمكنني الخلاص ؟

« كيف يمكنني الخلاص ؟ كيف يجب ان اعيش ؟ » ، تلك هي الصيغة
المخوفة التي يطلقها تولستوي ، تنتزعها أظافر الأزمة من قلبه الخافق وسوف
تتردد هذه الصيغة من الآن فصاعداً طوال ثلاثين عاماً ، حتى تتراخى شفتاه وتصمتان
نهائياً . . . رسالة السعادة الآتية من الحراس ، انه لا يؤمن بها بعد الآن ! . . .
والفن لا يعزي ، وعدم الاكتراث قد تلاشى ، ونشوة الشباب الحارة قد تبعثرت
بصورة قاسية . . . ومن كل حذب وصب تنتشر برودة جليدية مبعثها أعماق العدم ،
مسكن الموت الخفي ، هذا الموت الذي يحوم حول الحياة ويتلفص . . . كيف
يمكنني الخلاص ؟ هذه الصيغة تزداد حمية باستمرار ، لانه لا يمكن ان هذا الكون
الحالي من المعنى ظاهراً ، لا يملك ذلك المعنى حقاً وفعلاً - معنى يستحيل في الحقيقة
الامساك به باليد ، بله بالعينين ، وحسابه بالعلم الانساني كآية عملية حسابية
اخرى . . . انه معنى يقوم فوق سائر الحقائق على الاطلاق . . . ذلك ان العقل
وحده يكفي كي يفهمنا الحياة فقط ، اما الموت فلا يستطيع ان يكشف لنا شيئاً من

غوامضه واسراره... ولذا فالحاجة تمس - كما سيحقق من هذا الامر ذلك الذي كان حتى اليوم عديمياً - الى موهبة جديدة روحانية ، كلية الاختلاف ، كي تمسك بما يمتنع عن الامساك ، وتطبق على ما يفلت من قبضة الانسان ... وما دام تولستوي لا يجد هذه الموهبة في نفسه ، فإن هذا الملحد الذي هو رجل الخواس في الدرجة الاولى ، هذا الكائن الذي لم يروض قط ، والذي يمزقه الرعب الآت ويذيه الخوف في قلب الحياة ، وهو في منتصف الطريق بعد ، يرتقي بكل تواضع ، على حين غرة ، أمام الله ، ويخلع عنه في ازدياء علمه الدنس الذي أسعده دون حساب طوال خمسين عاماً ، ويروح يترجى ، جامحاً ، انبثاق إيمان في باطنه : « أعطنيه يارب ، واسمع لي ان اساعد الآخرين في العثور عليه » ! . . .

المسيحي المصطنع

« يا الهي ، فأصعب ألا يعيش المرء الا امام
الله ، ان يعيش كما عاش اناس كانوا مدونين في
قبر مظلم ، عارفين انهم لن يخرجوا من هناك قط ،
وان انساناً لن يدري قط كيف عاشوا او بالغم
من ذلك يجب ، يجب ان يعيش المرء هكذا ،
لان مثل هذه الحياة هي وحدها الحياة ... يا رب
مد لي يد الموتة » .

« المذكرات »

نوفمبر ١٩٠٠

« يارب ، اعطني ايمانا ... هكذا يهتف تولستوي في ياس عميق ، وهو يتوجه الى الله الذي انكره حتى ذلك الحين في عناد شديد . ولكن يبدو ان الله لا يعطي نفسه لأولئك الذين يطلبونه في كثير من الحمية ، بدلاً من ان ينتظروا في تواضع ان تنكشف ارادته لهم ... ذلك ان تولستوي يحمل حتى في الايمان تلك الحدة العنيفة التي تشكل عيبه الاساسي ، فلا يكفيه ان يطلب ايماناً يعنتقه ، كلا ، بل يجب ان يمنح هذا الايمان في التواضع والاحقة ، في ليلة واحدة ، وان يكون هذا الايمان مستعداً دوماً ومتمثلاً كالغاس كي ينظف غابة شكوكة العذراء ويطهرها ، لان هذا السيد النبيل قد اعتاد ان تنفذ اوامره بسرعة من قبل خدمه وتحمل الى حيز الانجاز دون ابطاء ، كما ان الحواس ، من جهة اخرى ، قد أفسدته بالاشتراك مع عينيه النافذتين واذنيه الحساستين الحادتين ، وجميعها تنقل اليه - في مثل لمح البصر - كل علم هذا العالم ومعرفته . انه لا يريد ان ينتظر مثل الراهب الناسك الذي يظل ، في عناد ، مستغرقاً في التأمل كي يرى أخيراً النور العلي ينسرب اليه شيئاً فشيئاً .. كلا ، بل هو يريد ان يعود وضح النهار فيشرق حالاً في نفسه التي اظلمت واجتاحها العتمة . ان فكره الموح الذي يتهدى سائر العراقيل يريد ، بفرة واحدة ، بانطلاق وحيد ، ان يبلغ الى « معنى الحياة » وينفذ اليه ، ان « يعرف الله » ، ان « يفكر الله » ، كما وجد المرأة كي يكتب في شيء من الكفر تقريباً . ان الايمان ، والسكنى في الله ، والطريقة التي يصبح بها مسيحياً حقاً وبصير انساناً متواضعاً طيب القلب ، كل هذه امور يرجو ان يتعلمها بنفس السهولة ، وبذات السرعة التي يتعلم بها حالياً ، بالرغم من بلوغه السن التي يشبب الشعر فيها ، اللغتين اليونانية والعبيرية ... لقد اصبح ، على حين غرة ، مربياً ، ولاهوتياً ، وعالماً في الاجتماع ، في فترة لا تزيد عن ستة اشهر أو سنة سريعة على أكثر تعديل !

ولكن ابن يجد المرء - على هذه الصورة المفاجئة - ايماناً حاضراً بينا نفسه خالية من بذور اي ميل ، مهما يك ضئيلاً ، الى الايمان ؟ ... كيف يمكن ان

يصبح ، في ليلة واحدة ، رحوماً ، محباً ، طيباً متواضعاً ، فرنسيسكاني العذوبة ، بينا هو لم يدنِ العالم ، طوال خمسين عاماً ، إلا بعين المراقب الدقيق التي لا ترحم ، ولم يرنَ إليه إلا بروح العدمي الواعي والقاسي حتى الدرجة القصوى ، ولم يجد فيه شيئاً هاماً جوهرياً إلا نفسه وحدها ؟ وكيف يجيل بإشارة واحدة من يده تلك الإرادة القاسية كالحجر حياً بالناس رقيقاً عذباً ؟ ابن يتعلم ، ابن يكتشف الايمان ، هذا الاستسلام بكل كينونته الى قوة عليا تسيطر على الكون وتتحكم فيه ؟ ويقول تولستوي في نفسه انه سيجده بكل تأكيد عند اولئك الذين يؤمنون ، او يدعوت الايمان على الاقل ، عند الام الأرثوذكسية ، الكنيسة التي تحفظ منذ الفين من الاعوام خاتم المسيح ، وما اسرع ما يجشو ليون تولستوي (لانه لا ينجح نفسه ، هو الرجل الفارغ الصبر ، لحظة واحدة من الراحة) أمام الايقونات ، ويروح يتأثر على الصوم ، ويحجج الى الاديرة ، ويتناقش مع الأساقفة والكهنة ، ويلتهم الانجيل ورقة فورقة دون كلل أو هراة ...

ويحاول ، طوال ثلاثة اعوام ، ان يكون مؤمناً بكل معنى الكلمة ... ولكن جو الكنيسة لا يفعل إلا نفخ البخور عبثاً في نفسه المتجددة سلفاً ، نفسه التي تجتاحها الآن ايضاً قشعريرة باردة قارسة ... وسرعان ما يفتق الباب الى الأبد - وقد تبددت او هامة - بينه وبين العقيدة الارثوذكسية . كلا ، ان الكنيسة لا تملك الايمان الحقيقي - انه يعترف بذلك - او بالاحرى انها قد بددت مياه الحياة وزروتها ، وتركت يذووعها الخفاق ينضب ويجف ...

ولذا فهو يفتش ابعده من ذلك ... اهل الفلاسفة ، اسناد الفكر ، يعرفون بصورة أفضل « معنى الحياة » الرهيب ؟ وما اسرع ما يأخذ تولستوي ، هو الذي جهل دماغه كل ما لا يقع في نطاق الحواس ، يقرأ في حمى ، به في جنون ان صح التعبير ، فلاسفة سائر العصور في فوضى ودون ادنى نظام أو ترتيب (وبسرعة عظيمة جداً ايضاً لا يمكن ان تسمح له بتسلتهم وفهمهم) ، شوبنهاور في البدء ، هذا

الرفيق الابدئي لكل نفس كشيبة ، ومن ثم سقراط وأفلاطون ، ومحمد وآكونفوشيوس ، ولا ريتسي ، والصوفيين ، والرواقيين ، والمتشككين ، ونيتشة . ولكنه سرعان ما يفتلق الكتب ويرميها جانبا . . هؤلاء ايضا لا يعرفون وسيلة لرؤية هذا العالم غير التي يعرفها هو نفسه ، هذا الذكاء فوق الحاد الذي يتأمل الاشياء في ألم شديد . انهم ، هم ايضاً ، يسألون اكثر مما يعرفون ، وهم ايضا لا يعبرون الا عن فراغ صبرهم في سبيل معرفة الله ، ولكنهم لا يعرفون الراحة في الله ابدأ . . . انهم يبدعون جملا فلسفية للفكر ، ولكن لا يخلقون سلاما للنفس التي تظل قلقة دوماً . . . انهم يعطون معرفة ، ولكنهم لا يعطون عزاء . . .

ومثله مثل مريض قد وقع فريسة العذابات ولم يفده العلم شيئاً . . فهو يذهب بادوائه الى اودية امرأة عجوز أو الى حمامات القرية ، هكذا يذهب تولستوي - اعظم مفكر في الارض الروسية - وهو في الخمسين من عمره ، نحو الفلاحين ، نحو « الشعب » ، كي يتعلم اخيراً منهم ، هم الاميون ، الايمان الحقيقي ، كي يتعلم الحكمة من الجاهلين . . . بلى ، ان هؤلاء الاميين الذين لم تفسدهم الكتابات ، هؤلاء المساكين والمهذبين في الارض الذين يشقون في العمل دون شكوى ، والذين يرفدوت في احدى الزوايا خرسان صامتين أشبه بالحيوانات عندما يتصاعد الموت من كينونتهم ، هؤلاء الذين لا يشكون ابدأ ، لانهم لا يفكرون البتة ، هؤلاء الذين هم القداسة الساذجة ، لا بد انهم يملكون سرّاً ما في قلوبهم ، والا لما استطاعوا ان يجنوا هكذا جبينهم ، في استسلام ودون تردد ، تحت النير الحديدي الذي يرهقهم البؤس به ، لا بد انهم يعرفون في سذاجتهم ما تجبّله الحكمة العظيمة ويعمى عنه الفكر التافذ ، ما يجلبهم يتقدمون علينا في قضايا النفس ، هم الذين يتأخر ذكأؤهم كثيراً عنا . . . « ان اسلوبنا في الحياة خاطئ ، أما اسلوبهم فصحيح » . . . ولذا فان الله يكشف عن نفسه بصورة مرئية في وجودهم الصبور ، بينما الفكر المتعطش الى العلم يبعدنا « بشرهه الباطل الشهواني » عن ينبوع الضياء الحقيقي ، الضياء الذي يأتي من القلب ويتدفق

منه . . . لو لم يكن في حوزتهم العزاء ، لو لم يكونوا يملكون عشبا سحريا
 وخلصياً في نفوسهم ، لما استطاعوا ان يتحملوا بكل هذا المدوء ، وهذه اللاه بالاء ،
 وهذا المرح ، حياة بائسة كحياتهم . . . لابد اذن انهم يجتثون في اعماقهم ايماناً غير
 منظور ، شيئاً ما يفهمهم فوق جاذبية وجودهم الثقيلة كالرصاص ، بحيث ان تولستوي
 - هو المفكر ذو المزاج الجرح - يجد نفسه وقد تملكته رغبة فارغة الصبر في اغتصاب
 السر منهم . . . لا يمكن الا بواسطتهم ، وبواسطتهم وحدهم ، هم « شعب الله » (كما
 يسمى تولستوي الى اقناع نفسه) ، لا يمكن الا بواسطة البسطاء ، بواسطة فقراء
 الفكر ، بواسطة اوثاك الذين يعملون بسذاجة ، في تواضع خصب ، اشبه بالحيوانات ،
 لا يمكن الا بواسطة هؤلاء وحدهم ان يتعلم المرء الحياة « الصالحة » ، والصبر العظيم
 والاستسلام الساذج الى وجود قاسٍ ، والى موت اشد قسوة ايضاً . . .

وبالتالي ، فلنذهب باستقامة اليهم ، في ملء حياتهم ، كي نتعلم منهم السر الالهي !
 فلنترك ثياب النبل ، ولنرتد قميص المرجيك ! لنبتعد عن مائدة الاطعمة اللذيذة
 والكتب التي لاتقيد ! ان الاعشاب البريئة ولبن الحيوانات العذب سوف تغذي
 الجسد وحدها ، من الآن فصاعداً ، والتواضع والبساطة الساذجة سوف يغذيان
 وحدهما ايضاً هذا الفكر الثاقب كفكر فوست الشهير . . . وهكذا فان ليون
 نيقولايفيتش تولستوي ، سيد ياسنايا بوليانا ، والاكثر من ذلك المليك الفكري
 للملايين البشر ، يأخذ المحراث بيده في السنة الخمسين من حياته ، ويجعل على ظهره
 العريض ، ظهر الدب العملاق ، جرة المياه من النبع ، ويحصد الحبوب بين فلاحيه
 مجيماً لاتعرف الكليل في العمل مطلقاً . ان اليد التي كتبت « آنا كارنينا » و« الحرب
 والسلام » تترز الاتن الحرز الوسخ في نعل الحذاء الذي اشتغله بنفسه ، وتكنس
 اوساخ غرفته ، وتخييط ثيابه الخاصة دون معونة احد على الاطلاق .

باقصى السرعة يجب الاقتراب ، يجب الاقتراب من « الاخوة » ، باقصى
 السرعة يجب الاتصال الوثيق بهم . . . ذلك هو الشيء الرئيسي الذي يتقدم على كل

شيء آخر . . . وهكذا فان تولستوي يأمل ، بحركة واحدة من ارادته ، ان يصبح « شعباً » ، وبالتالي ان يصير « مسيحياً حسب الله » . . . انه يذهب الى القرية سمياً وراء الفلاحين نصف الارقاء بعد (عندما يقترب يرفعون ايديهم الى قبعاتهم في ارتباك عظيم !) ، او يدعوهم الى داره حيث يسرون بأحذيتهم الثقيلة مرتبكين حيارى ، على الأرض المتلألئة ، وكأنهم يسرون على الزجاج ، ويتنفسون الصعداء عندما يدركون ان « السيد الاقطاعي » ، « السيد اللطيف » ، لا يضر لهم اي سوء . ولا يضاعف مرة اخرى - كما كانوا يخشون - الضريبة التي يتناولها منهم ، والعمل الذي يجبرهم عليه في اراضيه الخاصة ، بل يرغب بالضبط (ما اغرب ذلك !) انهم يمزون رؤوسهم وهم يتراسقون النظر في ضيق) في الحديث وياهم عن الله ، وعن الله دوماً . . . انهم يتذكرون جيداً ، هم فلاحو ياسنايا بوليانا الطيبون ، انه صنع لهم ذات مرة شيئاً من هذا القبيل ايضاً . . . كانت المدرسة هي التي تشغل باله - الكونت النبيل - في ذلك الحين ، فظل طوال سنة كاملة (ثم اضجره ذلك) يعلم - هو نفسه - الأولاد ويدرسهم ! ولكن ما الذي يريده الآن ؟ ويصغون اليه يتحدث وفي انفسهم ريبة ، لأن هذا العدمي المتسكر يختلط « بالشعب » كجاسوس في الحقيقة ، كي يتعلم منه السترانيجية الضرورية لملته في سبيل الصعود الى الله ، كي يتعلم سر التواضع واستعمال الايمان .

ولكن هذه الاكتسابات الشاقة لاتنفيد إلا الفن والفنان وحدهما . وفي الحقيقة ن تولستوي مدين بأجل خرافاته الى حاكين ريفيين قرويين ، ففنه يكسب بروزاً جديداً ومذاقاً رائعاً بفضل تلك الكلمات التي يزينها الفلاحون بكل سذاجة وبدون اي قصد على الاطلاق . . . ولكن سر بساطة النفس لا يمكن ان يتلفنه المرء ابداً . لقد قال دستوريفسكي من قبل بروح نبؤي في الحقيقة ، عندما ظهر كتاب « آنا كاريننا » ، عن ليفين الذي هو ضرورة تولستوي نفسه : « ان انساناً على غرار ليفين قد يعيشون مع الشعب ما طاب لهم ، ولكنهم لن يصبحوا شعباً قط . ان خيلاء

الارادة وقوتها ، مهما تكونان منقلبتي الاطوار ، لن تكفيانكي تضها الرغبة في النزول حتى الشعب وتحققاها . . . وان الملهم العبري ليمس بذلك ، في ملئه ، المركز النفساني للتبديل الذي طرأ على ارادة تولستوي ويكشف الثام عند هذا الاخير ، عن الغضب والاجبار ، عن المسيحية المصطنعة التي يعنتقها يائس معذب ، وعن تلك الاخوة للشعب التي لا تنشأ عن حب اصبل وطبيعي ، بل عن ألم النفس وحزنها فقط .

وفي الحقيقة ان تولستوي ، المفكر ، مهما قاتل نفسه في غضب وجنون كي يصنع من شخصه الانسان الأبله والفلاح البليد ، لن يستطيع قط ان يزرع في باطنه نفس الموجدك الضمقة ، في مكان فلسفته الواسعة التي تعانق كل الاشياء وتشملها . ابدأ لن يستطيع فكر مصنوع من الحقيقة مثله ان ينحط تماماً حتى إيمان الفلاح المضطرب الغامض : ليس يكفي ان يرتمي الانسان حاتياً في غرفته ، مثل فولين ، ويصلي : « ياربي ، امنحني البساطة » كي يزدهر في الحال غصن التواضع النقي في صدره . . . يجب قبلان ان يكون المرء ويصبح حقاً وفعلاً ما يبشر به فلا الاتصال مع الشعب بسر الاشفاق ، ولا اكتفاء الوجدان بتدين مليء بالايان ، يتحققان مباشرة في النفس على غرار احتكاك كهربائي بسيط . . . ان ارتداء قميص الفلاح ، وشرب الكفاس ، وحصاد الحفول ، وسائر هذه الاشكال الخارجية للمساواة ، مهما تحققت بسهولة لعبة من ألعاب الاطفال (وهذا نفسه في اتجاه مضاعف) ، فان الفكر لا يستسلم للبلادة قط ، كما ان بصيرة الانسان لا تتردى بصورة اعتباطية ، مثلما يمكن ان تخفض شعلة القنديل مثلا على هوانا . . ان قوة الفكر المشعة ووضوحه المضيء يظنان ابدأ المقياس الاصيل غير المتبدل لسائر الافراد على حد سواء ، ولا يبرحان دوماً جمـال كل فرد ومصيره ايضاً . تلك قوة تتجاوز الارادة وتنخطاها ، فهي بالتالي تقع فيما وراء حدود ارادتنا هذه . . . بل انها لتتأجج بعنف اشد وجوح اعظم كلما وجدت نفسها مهددة في واجها الرئيسي ، واجب اليقظة البصيرة ، اذ مثلما نعيمز بواسطه تمارين روحانية - ان تتجاوز ، ولدرجة واحدة ، بمقياس المعرفة الاصيله فدنا ، وان ترتفع

الى علم اعلى ومعرفة أرفع ، كذلك يظل الذكاء عاجزاً ، بواسطة فعل مباغت تقوم الارادة به ، ان يعود فينزل - ولودرجة رحيده - حتى البساطة .

ويستحيل ألا يكون تواستوي ، هذا الفكر المجبول من المعرفة والبصيرة الواسعة ، قد ادرك سريعاً أن الارادة - وان تكن في قوة ارادته وعنفا - ان تستطيع في لية واحدة ان ترجع تعقيدها الفكري الى بساطة النيتشفو (١) . . . وان انساناً سواه لم يتفوق بهذه الفكرة الرائعة (وان لم يقلها إلا قياً بعد فقط) : « ان العمل في صنف ضد الفكر ، ذلك اشبه بالسعي الى التقاط اشعة الشمس ، اذ هما تكن الوسيلة التي يراد تغطية هذه الاشعة بها ، فإنها ابدأ تعود الى ما فوقها » . . . ولم يعد يروده الوم ، مع مرور الزمن ، في عجز فكره العنيد ، المحب للقتال والتسلط ، فكر سيد يريد دوماً أن يكون على حق ، عن الاحساس بعاطفة التواضع الساذج الثابت . وكذلك فان الفلاحين لم يعتبروه قط واحداً منهم ، وان اتخذ ثيابهم وشاركهم عاداتهم خارجياً ، كما ان العالم لم يرت قط في هذا العمل إلا تنكراً فقط ، ولم يرى فيه تحولاً تاماً مطلقاً ابدأ .

وان اقرباه ، وزوجته ، وابناءه ، والبابوشكا (٢) ، واحداً قاهه الحقيقيين (انهم ليسوا بالتواستويين الممتنين) هم بالضبط الذين يراقبون منذ البدء ، في رية واستياء عظيمين ، هذه الحميا المحتاجة التي يريد بها « الشاعر الكبير للشعب الروسي » (هكذا يدعوه تورجنيف في رسالة كتبها له وهو على فراش موته يناشده فيها ان يتورك التبشير كي يعود الى احضان الفن) ان ينزل الى بيته من اللاتقافة تنسأ في طبيعته

(١) كلمة روسية معناها : لاشي . . وقد اصحت تشير فيا بعد الى اسلوب حياة جماهير واسعة من الشعب الروسي ايام القيصرية ، هذه الجماهير التي جعلت من تلك الكلمة كل فلسفتها في الحياة .

(٢) تصغير بالروسية لنداء الجدة .

وتناقضها . ونقول له عندئذ زوجته - تلك الضحية البائسة لأزماته النفسية - هذه الكلمة الحاسمة : « فيما مضى كنت تقول انك قلق لانك لا تملك الايمان ... فما بالك لا تجد السعادة الآن ، ادمت تقول انك تملكه ؟ » ... بالحجة البسيطة كل البساطة ، والداغة حتى الدرجة القصوى اوفي الحقيقة ان شيئاً لايشير عند تولستوي ، بعد اهتدائه الى إله الشعب ، انه قد وجد في هذا الايمان سلام النفس ، والراحة في الله ، والاكتفاء والرضى . بل ان المرء ليشعر على العكس ، منذ ان يأخذ تولستوي بالحديث عن عقيدته ، انه يسعى الى تقنيع الشك المحتلج في نفسه بهجمات عنيفة ، وتائم عدم اليقين في ايمانه بتأكيدات صارخة جوفاء . ان سائر افعال تولستوي وكلماته ، في هذه المرحلة من الاهتداء بالضبط ، تتميز بعنف مستقبح ، بشيء ما من التيه والادعاء والجلبة والحصام والهوس . ان مسيحيته تتمر بالبوق ، فكأنه في عرض عسكري ، وتواضعه يتخطر مزهواً كالطاووس ، واذا كان المرء يتمتع بأذنين حساستين فإنه يستطيع ان يكتشف - في مبالغته باذلال نفسه بالضبط - شيئاً من صلف تولستوي القديم ، صلف قدامسى اليوم كبرياء مقلوقة يوحي بها ذلك التواضع بالذات ويغديها .

ويكفي ان نقرأ ذلك المقطع الشهير من اعترافه حيث يريد ان « يثبت » اهتدائه ، وهو يبصق الاهانات بصقاً ويسكبها سكباً على حياته الماضية : « لقد قتلت اناساً في الحرب ، وتقاتلت في مبارزات عديدة ، وبذرت في لعب القمار الاموال المبتوة من الفلاحين وعاقبتهم بصورة وحشية ، وزنيت مع نسوة عاهرات كما خدعت ازواجاً عديدين ... الكذب والسرقة والزنا والعريضة والقسوة من شتى الانواع ، لقد ارتكبت كل هذه الافعال المحجلة ، ولم يبق جرم غريب غني قط » . وكى لايعذره انسان ، كفتان ، على هذه الجرائم التي يدعي انه ارتكبها ، فإنه يتابع اعترافه الطنان العاني : « ولقد اخذت في ذلك الحين اشتغل بالأدب ، غروراً مني ، ورغبة في الربح والزهو .. لقد اضطرت ، كي ابلغ الى المجد والثراء ،

ان اخنق في نفسي ما يمكن فيها من عواطف صالحة ، وأن اتدهور حتى الخطيئة ...
هذه ، بكل تأكيد ، كلمات موحية ومؤثرة في ارهاقها الاخلاقي بصورة مخيفة
حقاً . . . ولكن فلننترف مع ذلك ، ويدنا على قلبنا ، بأنه لم يوجد قط انسان قد
احتقر تولستوي وازدراه ، مستنداً الى هذه الاتهامات التي يوجهها تولستوي الى
نفسه ، معتبراً إياه « انساناً سافلاً مجرماً » ، او داعياً إياه « قملة » كما يسمي نفسه في
عطشه المجنون الى الاذلال ، وذلك لانه قام - اثناء الحرب - بخدمة بطاريته كما
يفرض واجبه عليه ، او لانه - وهو ذو المزاج الملتب جداً - قد ارتكب حماقات
بشباب عندما كان اعزب بعد ... أفلسنا نشعر هنا بالاحرى ، على العكس ،
الصعب غير مستحب ؟ أفلسنا نشعر هنا باننا في حضور وجدان مهتاج للغاية يسعى ،
بفطر التوبة ، وبغرور مصنوع من التواضع ومجبول منه ، ان يعطي نفسه بالخطايا
بأي ثمن كان ؟ فلا يوجد ههنا ، كما في ذلك الخادم الذي يكن في « راسكولنيكوف »
(١) والذي يريد ان يجعل من نفسه - بصورة مغلوطة - قاتلاً ومجرماً ، نفس سكرى
بالاعتراف ، تبتدع جرائم لم ترتكبها ، كي تحمل نفسها ثقل الصليب « (٢) » ، كي
« تلتب » مسيحيته وتواضعها ؟ أفلا تلتب هذه الرغبة في الشهادة على نفسه ، وهذا
التواضع المحتلج ، المفجع الصارخ ، هذا التواضع وتلك الرغبة اللذان يفرضها
تولستوي على نفسه ، ان التواضع السلمي الهادي لا يوجد - أو لا يوجد بعد - في
هذه النفس المتزعزعة ، بل ربما كان ههنا أيضاً غرور مقلوب يتضمن خطراً فأدحاً ؟
أفلا يمكن ان يكون تولستوي الاذلال « الجديد » هذا ونفس الرجل ، لكن في اتجاه
معاكس ، الذي كان « المجد امام البشر » غايته العظمى في ماضي الزمان ؟ وعلى
اية حال ، فان هذا التواضع لا يتصرف بتواضع ، بل اننا لانستطيع ، على العكس ،
ان نتصور شيئاً اكثر حمية والتهاباً من هذا النضال النسكي ضد الهوى ، هذا النضال

«١» بطل قصة دستوفسكي الشهيرة : الجريمة والعقاب .

«٢» يقول يسوع : من اراد منك ان يتبني ، فليترك أباه وأمه ، وليحمل صليبه ويتبعني .

الذي لاهوادة فيه ابدأ .

ان هذا المتسرع العديم الصبر لا يسكاد يحس في نفسه شرارة ضئيلة ، غير ثابتة بعد ، من الايمان ، حتى يندفع في التو واللحظة يريد ان يلبس بها الانسانية بأسرها ، اشبه ما يكون بأولئك الامراء الجرمانيين البرابرة الذين لم يكدر رأسهم ببتل بيماء المعمودية حتى تناولوا الفأس يريدون ان يقطعوا تلك الاشجار من الحور التي كانت مقدسة بالنسبة اليهم حتى ذلك الحين ، وان يحملوا الحريق والقتل حتى الشعوب المجاورة التي لم تعتق الدين الجديد بعد ... ان تولستوي ينطلق ، بقفزات عملاق ، وارادة إله جبار ، في هجوم صاعق على الايمان ، ولكن شيئاً لا يثبت انه قد استولى عليه حقاً وبلغ اليه واذا كان الايمان راحة في الله ، واذا كانت المسيحية تقوم في العيش في الطمأنينة والصبر ، فإن هذا المتسرع الذي لا يعرف الصبر لم يكن اذن - في يوم من الايام - مؤمناً ، وهذا الملتب الذي لا يعرف سبيلا الى الرضى لم يصبح قط مسيحياً حقاً ان هذا الباحث عن الله ، هذا المضطرب الابدى ، لا يمكن ان يعد بين المتواضعين الا اذا كنا نسمي حزيناً عظيماً الى الشعور الديني باسم الدين ، والا اذا كانت رغبة لاهبة في الله تكفي لان تجعل الانسان كائنأ مسيحياً حقاً .

ولكن الازمة التي مر تولستوي بها لاتتخذ قيمة رمزية وتتجاوز مرتبة الحوادث الفردية الا لان هذا النجاح قد ظل بالضبط ناقصاً ، ولان القناعة الدينية التي توصل اليها يعوزها اليقين ، بحيث تصبح تلك الازمة مثلاً لا ينسى على مر الدهر ، يبرهن انه لا يمكن - حتى للانسان الذي وهبه الطبيعة الارادة الاشد عنفاً وقوة - ان يقضي على الشكل البدئي لشخصيته ويبدل - بفعل ارادي متساط - الشخصية الخاصة به بشخصية معاكسة . ان شكل الحياة الذي ميزنا به يقبل بدون ريب بعض التحسينات ، وشيئاً من الصقل والتنقية ، كما ان العاطفة الاخلاقية تستطيع - بكل تأكيد - ان تنمي فينا ، بفضل عمل واعٍ مستمر ، مانتمتع به من صفات مناقبية جيدة ولكنها لن تستطيع قط ان تحمي الخطوط الاساسية لشخصيتنا ، ولا ان

تنظم فكرنا وجسدنا حسب شكل هندسي آخر غير الذي جبلنا عليه ...

عندما يعلن تولستوي ان الانسان يستطيع ان يتخلص من الاثانية مثلما يتخلص من عادة التدخين ، او انه يستطيع ان يغزو « موهبة المحبة » ويكتسب الايمان عنوة ، فان نتيجة متواضعة للغاية تكذب ، عنده بالذات ، جهداً عملياً قد اصبح جنوناً تاماً تقريباً ... ذلك ان شيئاً لا يثبت ان تولستوي ، المراقب الجبار ، القاسي ، العدمي في جوهره ، الاثنان الصفراوي الذي « تلقي عيناه الشرر منذ اللحظة التي يعارضه احد فيها اقل معارضة » قد اوضح مباشرة ، في اثر اهتدائه المسبب عن محاولة عنيفة مبدولة من قبله ، مسيحياً ، مسالماً ، لطيفاً ، عذباً ، طيباً ، وخداماً لله ، و « اخاً لآخرته » ... ان « تبدله » قد بسدل حقاً افكاره وآراءه وكلماته ، ولكن ليس طبيعته الصحيحة (وكما يقول جوته : ان التاموس الذي تلقيته عند ولادتك ، سوف تشير عليه بالضرورة ، ولن تستطيع ان تفلت منه قط) . ان نفس القلق ونفس التعطش الى العذابات ، قبل « البقطة » وبعدها ، يعكران نفسه القلقة وبلقيان الاضطراب فيها ... ان تولستوي لم يولد كي يبلغ الرضى ، والله لم يعطه ، بسبب هذا التسرع وفراغ الصبر بالضبط ، الايمان مباشرة .. بل كان لا بد له ان يناضل دون كلل طوال ثلاثين عاماً اخرى ، حتى آخر ساعات حياته ... انه لن يجتاز طريقه الى دمشق (١) في ليلة واحدة ، ولا في سنة واحدة ، ولن يقنع بأي جواب حتى يتطفيء نفسه ، ولن يرضيه ايمان قط . بل ان الحياة ستظل - حتى لحظة الحياة الاخيرة - لغزاً معلقاً في نظره لاسئيل الى حل ومبوزه ..

وهكذا ليس من جواب على السؤال الذي يطرحه تولستوي عن « معنى

«الروح» ان بولس الرسول قد اعتنق المسيحية وهو في طريقه الى دمشق كي يضطهد المسيحيين فيها ..

الحياة ، وسلام الايمان لم يعطه لقلقه الديني ، وانطلاقه نحو الله ، القوي المشعلش ، لا ينتهي الى اية نتيجة مطلقاً .. ولكن الفنان يملك ينبوعاً ثرياً أبدياً في كل مرة لا يستطيع ان يتغلب فيها على نزاع مايزق نفسه : انه يستطيع ان يسقط حزنه الى الخارج ، وان ينشره على الانسانية بأسرها ، وان يجعل من المشكلة التي تشغل نفسه مشكلة عمومية ... وهكذا فان تولستوي ، هو الآخر ، يضاعف من شدة الصيحة ، الطافحة ذعراً أنانياً ، المنطلقة من أزمته الفردية : « إلامَ سأصير ؟ » فيجعل منها هذه الصيحة الاشد والاعنف : « الامَ سنصير ؟ » ... لا يستطيع ان يقنع فكره ، فكره العنيد الصلب المراس ، فانه يجرب ان يقنع الآخرين ... واذ لا يستطيع ان يغير نفسه ، فانه يسعى الى تغيير الانسانية بأسرها ... ان سائر أديان مختلف الازمنة والعصور قد نشأت على هذا القرار ، كما ان سائر تطورات العالم (وان نبتشه ، اكثر الناس نفوذاً الى لب الاشياء ، ليعرف ذلك جيداً) منشؤها « الحرب من الذات » ، هرب انسان وحيد مهدهد في نفسه يريد ان يحول عن صدره الخاص السؤال المحتوم فيلتي به وسط الجميع ، محيلاً هكذا قلق الفرد قلقاً عمومياً .

ولم يصبح ، انه لم يصبح ابدآ ، مسيحياً تقياً ، فرنسيسكاني الروح ، هذا الانسان ذو الاهواء العظيمة ، والعينين اللتين لا يمكن تغذاعها ، هو الذي يسكن الشك في قلبه القاسي الملتهب ... ولكنه اقدم على اكثر محاولات العصور الحديثة جنوناً ، مدعياً - لانه يعرف بالضبط العذاب الذي يشيره غياب الايمان - انقاذ العالم من يؤس المدنية ، وجعله اكثر ايماناً بما كان عليه هو نفسه . « ان الرسالة الوحيدة للخلاص من يأس الحياة هي اسقاط الأنا في الكون بأسره » ... وان هذه الأنا المذنبة العطشة الى الحكمة ، هذه الأنا التي تخص تولستوي ، تبسط عندئذ امام كل الانسانية ، كهتاف يتضمن معنى التحذير والانداز وكمقيدة في الوقت نفسه ، السؤال المرعب الذي هاجمها بصورة خاصة وضيقت عليها الحقائق .

عقيدة نولستوي والضلال الذي فيها

« لقد راودتني فكرة عظيمة استطع ان اضحي
في سبيل تحقيقها بجياني كلها ... هذه الفكرة هي
تأسيس دين جديد ، دين المسيح نفسه ، لكن
مخالفاً لما فيه من عقائد ومبجزات »

نولستوي

« مسذكرات القوة » : آذار ١٨٥٥

بولستوي ، في اساس عقيدته ، اساس « رسالته » الى الانسانية ، كآلة
الانجيل : « لانقاوموا الشر » ، ويفسرها على هذه الصورة الحصبة

بضع

التيالية : « لانقاوم الشر بالعنف » .

هذه الجملة تتضمن سائر مبادئ « تولسنوي الاخلاقية في حالة الكون : ان
المقاتل العظيم قد ألقى بعنف شديد ، على جدار العصر ، حجارة هذا المقلاع ، القاها
بكل الحمية الخطابية والاخلاقية التي يتميز بها وجدانه المرتعش الماء وعذاباً ، حتى ليجس
المرء ، اليوم ايضا ، بذلك التزعزع الشديد في الصقل نصف المتحطم . ويستحيل ان
نقيس الاثر الاخلاقي لهذا المجهوم في كل فعاليته ومداه البعيد : ان القاء الروسيين
لاسلحتهم بوضاهم وارادتهم بعد معااهدة بريست ليتوفسك ، و « عدم المقاومة » الذي
يبشر غاندي به . ونداء رومان رولان الداعي للسلام في معبران الحرب الصاخبة ،
والمقاومة البطولية التي ابداهاعده وغير من الافراد الذين لانعرف حتى مجرد اسمائهم
تجاه العنف المطبق على وجدانهم ، والنضال ضد حكم الاعدام ، وسائر الافعال المائلة
التي حدثت مع القرن الوليد ، والتي تبدو في الظاهر منعزلة عن بعضها البعض دون
رباط يصل فيما بينها ، لمدينة جميعاً لرسالة ليون تولستوي بانطلاقها العنيف وتيارها
الآتي . حيثما اعلنت الحرب اليوم على العنف ، ان في اعتباره وسيلة او سلاحاً او
حقاً ، وان في اعتباره مؤسسة لاهية فيما يدعون معدة للدفاع ، ومهما تكن الذريعة
التي يريدون ان يبرروا العنف بها ، أكانت الامم تلك الذريعة ، ام الاديان ، ام
الجنس ، ام الملكية ؛ حيثما يرفض الحسن الاخلاقي ، الموجه نحو الانسانية بأسرها ،
ان يهرق الدم ، وان يقبل بجرمة الحرب ، ويرفض ان يعترف - اذ يعود التهورى
حتى « حتى القوة » الذي كان يسيطر في العصور الوسطى - بأي انتصار حربي كتمبير
عن العدالة الالهية ، في كل مكان ، حتى في هذه الايام ، يجذ كل ثوري اخلاقي في
سلطة تولستوي وحميته تأكيد قوة اخوية وعضدها .

حيثما يخوض وجدان مستقل العاطفة الأخوية للانسانية فقط ، باعتبارها القاضي

الأخلاقي الوحيد ، حق اصدار القرار الاعظم ، بدلاً من ان يمنع ذلك الحق الى الصيغ الكنسية الباردة او الى ادعاءات الدولة الطيوحة ، او الى عدالة صدته لم تعد تعمل الا بصورة صورية فقط ، حينما يتصرف وجدان مستقل على هذا القرار ، فانه يستطيع ان ينتسب الي ذلك العمل المثالي الذي قام تولستوي به - وهو نظير لوثر في هذا المضمار - عندما انكر بصورة مطلقة على هذه البابوية الحديثة التي هي سلطة الدولة ، هذه الدولة التي تدعي العصمة لنفسها ، كل حق على نفس الانسان الفرد ، منادياً بكل ما عند البشر من انساني كي لا يدين احد منهم قط ويصدر احكامه إلا « بقلبه » وحده .

ولكن ما هو هذا « الشر » الذي يريدنا تولستوي ان نحاربه دون اللجوء الى العنف ؟ انه العنف نفسه بكل بساطة ، العنف الجوهري الذاتي ، حتى إن اخفى عضلاته وخبأها تحت ثياب الاقتصاد السياسي المؤثرة ، او ثياب الازدهار القومي ، والطموحات الشعبية ، والتوسع الاستعماري ، وحتى ان زور ، بكل الخدق والمهارة المكئين ، غريزة القوة والغريزة الدموية عند الانسان كي يجعل منها مثلاً اعلى فلسفياً ووطنياً ... يجب ألا ننخدع قط .. ان العنف ، حتى في تصعيداته الاكثر اغراء ، يجعل دوماً ليس على جعل البشر اكثر اخوة وقرباً من بعضهم البعض ، بل على مضاعفة سلطة فريق وحيد وتزمته ، وهو بذلك يبقي عدم المساواة الموجود في العالم ويخلده . وفي الحقيقة ان العنف يهدف الى التملك ، الى الحصول على خيرات مادية ومضاعفة هذه الخيرات باستمرار . ولذا فان كل عدم مساواة ، بالنسبة الى تولستوي ، يبدأ مع الملكية . لا ريب ان النبيل الشاب لم يمض عبثاً ساعات وساعات برفقة برودون عندما كان مقياً في بروكسل ، لابل انه يطرح - هو الذي كان يومذاك اكثر الاشتراكيين جذرية - مع ماركس نفسه البديهة التالية : « ان الملكية هي أصل كل شر وكل ألم ، وهناك خطر نزاع عتيديين الذين يملكون فائضاً من الخيرات وبين الذين لا يملكون شيئاً منها » . ذلك ان الملكية ، كي نحافظ على وجودها ، مضطرة

بالضرورة الى الدفاع ، بله الى العدوان ايضاً . فالعنف ضروري اذن لاكتساب الملكية ، وهو ضروري في سبيل انماؤها ، وهو ضروري كذلك في سبيل الدفاع عنها . ولذا فان الملكية تخلق ، من اجل الدفاع عنها ، الدولة التي تخلق بدورها ، لكي تؤمن وجودها ، الاشكال المنظمة للسلطة الارضية : الجيش ، والعدالة ، وكل هذا النظام من الارهاب الذي لا يعمل إلا على حماية الملكية فقط ، ، والذي يخضع للدولة وينصاع لها ويعترف بها ، ويسلم نفسه لهذا المبدأ من القوة كل التسليم . لا بل ان الناس المستقلين حسب ظواهر الاشياء - اي المفكرين - يعملون ، حسب مفهوم تولستوي ، في الدولة الحديثة - دون ان يدركوا ذلك - على ابقاء خيرات عدد ضئيل من اصحاب الامتيازات في حوزتهم وملكيتهم ؛ بله ككنيسة المسيح نفسها (التي « تناهض الدولة في مغزى للكنيسة الحقيقي ») تعرف « بمقائد كاذبة » عن واجبها الرئيسي والأولي ، وذلك حين تبارك الاسلحة ، وتوفر الحجاج لدعم النظام القائم - الذي هو ظلم في جوهره - ، فهي بالتالي تتجسد في صيغ متبينة ، وتنفخ الى عادات وامور اتفاقية . اما الفنانون ، هؤلاء الذين هم ابناء الحرية ، الذين ولدوا محامين للوجدان ومدافعين عن الحق البشري ، فيكتفون من جهتهم بنقش ابراجهم المأجبة الحقة ، و « يتحدرون الوجدان » يمثل هذا العمل الذي ينصرفون اليه بكليتهم . اما الاشتراكية فانها تسعى ، هي الاخرى ، الى شفاء ما لا يمكن شفاؤه ، بينا الثوريون ، وهم الوحيدون الذين يريدون ، بفهم صحيح للأشياء ، ان يدمروا نظام العالم المغلوط من اسسه وجذوره ، يرتكبون خطيئة استعالمهم ، هم ايضاً ، وسيلة خصوصهم المظلمة فيخلدون بذلك الظلم على الارض ، اذ لا يقضون على مبدأ الشر ، يعني العنف ، بل يقدسونه بالاحرى .

وبالتيجة فان اساس الدولة والعلاقة القائمة حالياً بين البشر على سطح هذه البسيطة ، هما مغاوطان ومتعفان في مفهوم هذه المطالب الموضوعية . ولذا فان تولستوي يرفض في حمية وعنف على اعتبارها عديمة الجدوى وغير كافية - كل التحسينات

المدخلة على شكل الحكم ، والتي يقترحها الديموقراطيون ، والمتفائلون ، والمسالون ،
 والثوريون على حد سواء . وفي الحقيقة انه ليس من دوما (١) ، وليس من مجلس
 نيابي (وليس من ثورة بالأحرى) تستطيع ان تخلص الامة من « شر » العنف ..
 انه يستحيل ان يوطد المرء اركان منزل مبني على ترربة غير ثابتة ، بل هو لا يستطيع
 الا هجره وبناء بيت آخر يقطن فيه . ولكن الدولة الحديثة تقوم على مبدأ القوة ،
 وليس على مبدأ الاخوة ... ونتيجة ذلك بالنسبة الى تولستوي ان هذه الدولة
 محكوم عليها بالانهيار بصورة لا مرد لها ، وان تنفع سائر ترقيعات الاشتراكية
 والليبرالية الاطالة احتضارها فقط ، فما يجب تبديله ليس العلاقة السياسية القائمة بين
 الشعب والحكومة ، بل البشر انفسهم ... ان رباطاً اخلاقياً داخلياً من الاخوة
 وحدها يجب ان يرص كل تجمع من البشر ويمتته ، بدلاً من ذلك العنف المطبق عليهم
 من قبل الدولة . وما دامت تلك الاخوة الدينية والاشتراكية لم تأخذ مكان
 الشكل الراهن من الارهاب الذي يرهق المواطنين ، فان تولستوي يعلن على رؤوس
 الاشهاد ان حياة اخلاقية حقّة تستحيل إلا خارج الدولة ، خارج الاحزاب ، في
 الفراغ السري والحقّي الذي يوجد في وجدان الفردي وحده . وما دامت الدولة
 توحد نفسها مع العنف ، فان انساناً تلهمه الاخلاق يجب ألا يوحد نفسه مع الدولة
 مطلقاً . ان ما يلزم هو ثروة دينية ، تحرير كل انسان ذي وجدان من سلاسل
 جماعية مؤسّسة على قاعدة من العنف . ولذا فان تولستوي يضع نفسه ، بقرار
 مفاجيء عنيف ، خارج اشكال الدولة ، ويعلن نفسه مستقلاً اخلاقياً عن سائر
 الواجبات التي لا يملكها عليه ذات وجدانه فقط . انه يرفض ان يعترف بأنه « يشكّل
 جزءاً من شعب ومن دولة دون سواهما ، او انه رعية لأية حكومة كانت » .
 وينفصل بل ارادته عن الكنيسة الارثوذكسية ، ويقطع ، مبدئياً ، عن التوجه الى

(١) ضراز من البرلمان الروسي في عهد القيصرية .

اية عدالة او اية مؤسسة اقليمها المجتمع الحالي ، حتى لا تكون له اية علاقة مع هذا الشيطان الذي هو الدولة القائمة على اسناس من العنف . وبالنتيجة يجب ألا نخدع ، بفعل الوداعة الانجيلية التي يتحلى بها تبشيريه عن الاخوة ، وصيغة التواضع المسيحي التي تكسو اقواله ، والتجائه الى الانجيل عوماً ، يجب ألا نخدع بالصفة المناهضة كائناً للدولة التي تميز نفعه الاجتماعي ، وللطاقة المدفقة والحزم الواعي الذي يعلن به . بما تولستوي ، وهو اكثر فطاسة العصر جرأة ، واكثر فوضوييه جذرية ، الحرب بصورة علمية على القيصر ، والكنيسة ، وسائر الازمات التي تفرضها الدولة على الجماعة . ان عقيدته عن الدولة هي اكثر العقائد المناهضة للدولة فوضوية ، والانفصال الاكثر كمالاً ، منذ لوثر ، الذي يحققه فرد عن هذه البابوية الجديدة التي هي مفهوم عصمة الملكية .

حتى لينين وتروتسكي لم يقوموا ، نظرياً ، بخطورة تتجاوز شعار « كل شيء يجب ان يتبدل » الذي ينادي تولستوي به . ومثلما كان جان جاك روسو ، « صديق البشر » ، يهيم ، بكتاباتهِ اروقة الانعام التي نسفت بها الثورة الفرنسية الملكية فيما بعد ، كذلك ليس من روسي قد زرع ، بمثل هذه القوة ، القلاع والحصون الاساسية للنظام القيصري والراسمالي ، بتهمة الهجوم عليها ، كهذا الثوري الجذري الذي نعتبره عندنا ، وقد خدعنا بلحيته البطريركية ، وبشيء من الطلادة والليونة في عقيدته ، رسولاً للوداعة ليس غير . ومثلما كان روسو يستاء لو شاهد اعمال جنود الثورة ، كان تولستوي دون ادنى ريب يستاء ايضاً من الاسلوب الذي جاءت اليه البلشفية ، لانه كان يكره الاحزاب (انه يقول في كتاباته بصورة نبوية حقاً : « مهما يكن الحزب الذي سينتصر ، فلسوف يحتاج ، كي يحفظ سلطته ، ليس الى استعمال سائر اساليب العنف الموجودة فعسب ، بل الى ابتداع اساليب جديدة ايضاً ») . ولكن مفهوماً مخلصاً اميناً عن التاريخ سوف يبرهن يوماً ان تولستوي كان افضل سابق لهذه البلشفية ، وان سائر قتال الثوريين والغامهم لم تنسف السلطة في روسيا وتزعزعا

بمقدار ما فعلت ثورة هذا الفرد - وهو اعظم الافراد على الإطلاق = العلمانية عيسى
السلطات التي لا يمكن قهرها فيما يبدو ، والمتحكمة في وطنه : القيصر ، والكنيسة ،
والملكية . وثندان اكتشف ، هو الكثير المشخصين عبقرية ، عيب البناء الذي
ينخر في اسس حضارتنا ، الا وهو قيام عمارة دولتنا ليس على قاعدة الانسانية ،
قاعدة الجماعة البشرية ، بل على القسوة والتسلط والسيطرة ، فقد استخدم كل عنفه
الجلدي ، ومجموع قوته الاخلاقية الهائلة ، طوال ثلاثين عاماً ، في هجمات متجددة ابدأ
ضد النظام القائم في المجتمع الروسي . . . لقد كان ، دون ارادة منه ، ونكار لسيد
الثورة ، ومنفجرات اجتماعية ، وقوة بدئية واسباسية للتهديم والقلب ، وبذلك كان
يحقق ، دون وعي ، ولكن بصورة كاملة ، الرسالة الواقعة على عاتق العبقرية
الروسية . ذلك ان كل فكر روسي لا بد له ، بصورة محتومة مقدرة ، من ان يدمر
قبلاً ، بصورة جذرية وفي الاصول ، قبل ان يعمد الى البناء ، وليست الصدفة
وحدها التي تجبر كلاً من الفنانين الروسيين على الانهاس قبلاً في اسد طبقات العدمية
القائمة الشائكة حلكة وسواداً ، كي يحصل فيما بعد ، في بأس متأثر عظيم الاضرار ،
ايماناً جديداً حامي الوطيس متأجج الزيران . ان المفكر والشاعر وانسان العمل
لا يتقدمون عند الروسيين مثلهم عندنا نحن الاوروبيين ، بتحسينات خجولة واحتياطات
مليئة بالتقوى والحياء . بل انهم ، على العكس من ذلك تماماً ، ياجرون الفضايح
بمثل العنف الذي ينهال به الخطاب على الحش ، وبمثل تلك الجراة المدمرة التي
تغذي التجارب المخوفة بالاحطار . ان روستوبشين (١) لا يتردد ، في سبيل احراز
النصر ، في حرق موسكو ، هذه المدينة المدهشة الرائعة ، حتى عتبات دورها . وكذلك
فان تولستوي (وهو نظير سافونارولا في ذلك) لا يتردد في القاء سائر خيرات
الانسانية المتمددة - بما فيها الفن والعلم - الى المحرقة ، كي يبرر هكذا نظرية جديدة

« سياسي روسي ، وحاكم مدينة موسكو عام ١٨١٢ ، وهو الذي احرقها عند دخول

جيوش نابليون اليها .

افضل ليس غير . لعل الحاكم الديني الذي هو تولستوي لم يدرك قط النتائج العملية التي تنشأ عن مثل هذا الهجوم العنيف الذي يشنه ؛ وهو لم يجرؤ ، بكل تأكيد ، ان يحسب كم من الحيوانات الارضية ستلحق بالانهار المفاجيء ، لمثل هذا البناء الجبار . لقد اكتفى بأن يزعم ، بكل قوى روحه وعناد ايمانه ، اعمدة بناء الدولة الاجتماعية ... وأن شمشون مثل هذا ، عندما يجد قبضتيه ، فان اعظم سطح ينبغي تحت ضغطها ويتهوى .

ولذا فان سائر المناقشات ذات الطابع الرجعي ، المستهدفة معرفة الى اية درجة كان تولستوي يؤيد او يناهض الثورة البلشفية ، ان سائر هذه المناقشات تظل عديمة الجدوى في حضور هذا الاكيد الثابت الذي لا يتطرق الشك اليه مطلقاً ، ألا وهو ان شيئاً لم يساعد الثورة الروسية فكريباً بقدر ما ساعدتها الحرب المهووسة التي اعلنتها تولستوي على الخير الفاضل وعلى الملكية . وبنسبة ما قدمت اليها المعونة صواريخ مقالاته وقنابل كراساته . ليس احد من نقاد عصرنا ، حتى ولا نيتشه الذي لم يكن يهدف ، على اعتباره المانياً ، إلا الناس المثقفين من دون سواهم ، والذي كان اسلوبه الديونزويوسي الشعري يجرد نفسه من كل تأثير في الجماهير ، ليس ناقد في صراحة اذن قد القى الاضطراب في النفوس ، ونسف ايمان الجماعات الشعبية . مثلاً فعمل تولستوي . ان يحياه لينتصب ، بالرغم من رغبته وبالرغم من ارادته ، الى ابد الدهور في البائسبون الحقفي عن الانظار ، هذا الذي يضم كبار الثوريين ومدمري السلطات وسبدي وجه العالم .

نقول بالرغم من رغبته وبالرغم من ارادته ، لان تولستوي قد ميز بجلاء تام ثورته الفردية والمسيحية ، ميز فوضويته عن مفهوم الدولة ، عن كل ثورة اخرى تتحقق بالافعال والعنف جميعاً . انه يكتب في « السناجب الناضجة » : « عندما نلتقي ببعض الثوريين ، فاننا كثيراً ما نقع فريسة الاوهام عندما نعتقد اننا لانفعل وياهم الا واحداً . انهم يتأدون ، مثلاً : لادولة ، لاملكية ، لافوارق ! وبكثير من الاشياء

الاخرى المماثلة . ولكن هناك فرقاً كبيراً بالرغم من ذلك بينهم وبيننا : ان الدولة
 لا توجد بالنسبة الى المسيحي ، اما هم فيريدون على العكس ان يببندوا الدولة وان
 الملكية لا توجد بالنسبة الى المسيحي ، اما هم فيريدون ان يقضوا عليها ، ان سائر
 البشر متساوون بالنسبة الى المسيحي ، اما هم فيريدون ان يدمروا عدم المساواة .
 ان الثوريين يحاربون الحكومة من الخارج ، اما المسيحية ، فهي لا تحارب ، بل
 تهدم اسس الدولة في الداخل . وهكذا نرى ان تولستوي كان يريد ، لا ان يدمر
 الدولة عن طريق العنف ، بل ان ينتزع منها الذرة بعد الذرة ، الفرد في اثر الفرد ،
 حتى تتحلل عضوية الدولة من تلقاء ذاتها ، لان القوة اصبحت تعوزها وتقصها . وعلى
 اية حال ، فان النتيجة النهائية تظل هي نفسها لا تتبدل : تحطيم كل سلطة ودمارها ...
 ولقد خدم تولستوي هذه الفضية ، بكل حمية ، طوال حياة كاملة . صحيح انه كان
 يطلب ، في الوقت ذاته ، نظاماً جديداً ، كنيسة تكون هي الدولة ، وان يجاب
 الرباط الاجتماعي والاجبائي للدولة الحاضرة برباط ديني آخر ، وصحيح انه كان يريد
 ان يؤسس ديناً للحياة ، اكثر انسانية واكثر اخوة ، ان يحقق الانجيل ، القديم
 والجديد في وقت واحد ، انجيل المسيحيين الاولين وانجيل المسيحية التولستوية معاً ؛
 ولكن (ولكن الامانة رائدنا الاول) لا بد من ان نعلم ، كي نقدر عمله في البناء
 الروحي الجديد حق قدره ، الى تمييز واضح جلي بين النقد العبقري للحضارة ، هذه
 العبقورية البصرية والارضية التي في تولستوي ، وبين الاخلاقي المتعدد ، الناقص ،
 المتقلب الاهواء والمتناقض الذي نجده في تولستوي الذي صار مفكراً ، هو الذي
 يريد ، في نوبة من علم التربية ، ليس ان يدرس ابناء فلامي ياسنايا بوليانا مثله قبلا
 فحسب ، بل ان يعلم ، في مقدور تخفيف من الطيش الفلسفي ، اوروبا بأسرها .
 الابجدية العظيمة للحياة الوحيدة « العادلة » . ليس من احترام يستطيع ان ينحني كما
 يليق به امام تولستوي مارح هذا الاخير ، الذي ولد دون اجنحة ، بشرح في عالم
 الحواس بنية الانسانية باعضائه العبقورية . ولكنه لا يكاد يزعم ان يتطلق حراً في

ميدان ماوراء الطبيعة ، حيث لا نستطيع حواسه ان نتابع على اي شيء كان ، او تراه او نمتصه ، حيث يتلمس باحساساته الفراغ عبثاً ، لا يكاد يرمع ذلك حتى يلقي بسخفه الفكري الذعر في القلوب بكل معنى الكلمة . كلا ، اننا لا نستطيع ان نشدد على هذه النقطة بما يكفي من القوة : ان تولستوي ، بصفته فيلسوفاً نظرياً ومنهajerاً ، قد دخل الطريق بصورة مفاجئة ، مثله مثل نيتشه - هذا الند لعبقريته ، بصفته مؤلفاً موسيقياً . وكما ان موسيقية نيتشه ، الحسبة بصورة رائعة حقاً في حزن لحن الكلمات وعذوبتها ، قد فشلت بصورة بانسة تقريباً في نطاق الاصوات الموسيقية ، يعني في التأليف الموسيقي ، هكذا ينكشف فكر تولستوي الجبار مباشرة ، عندما يخرج من ميدان النقد الحواسي ، ويعامر في ميدان النظرية والمجرد . واننا نستطيع ان نتحقق من هذا الفارق في مؤلف واحد ، مثلاً في كراسه الاجتماعي : « ماذا يجب ان نفعل ؟ » ، الذي يصف قسمه الاول ، بصورة موضوعية وحسب التجربة الحسية ، احياء موسكو البائسة ، يصفها بانقان يجعل القارئ يلمث طوال الوقت مسحوراً بها مأخوذاً بدقتها . ان النقد الاجتماعي لم يتظاهر ابدأ على حاجة ارضية اكثر عبقرية وروعة منه في وصف هذه الاكواخ الخفية ، وهذه الانسانية الذبيح . ولكن الطوباوي الذي في تولستوي لا يكاد ينتقل ، في القسم الثاني من الكتاب ، من التشخيص الى المداواة ، ويدعي انه يقدم ، بصورة علية ، اقتراحات تهدف الى تحسين تلك الاحوال البائسة ، حتى يصبح كل مفهوم سديمي البنية ، وتختاط الحدود والاستدارات ، وتتراحم الافكار متسارعة عجيلى تدوس على بعضها البعض وان هذا الاضطراب ليتفام ، من مشكلة الى مشكلة ، بمقدار ما تزداد جرأة تولستوي ، والله يعلم الى اية درجة تصل جرأته . انه يشن هجماته في مباحثه دون اية تربية فلسفية ، وبفقد الاحترام المطلق ، على كل المشاكل التي ما برحت دون حل منذ الازل ، معلقة في اللانهاية بسلاسل من الكواكب ، ويعتقد انه قد جعلها « محلولة » مثل الهلام .

وكما ان هذا الفكر الذي لا يعرف معنى الصبر ابدأ قد اراد ، في تسرع وعبارة
 أثناء ازمنة ، ان يتعطف « ايماناً » فكأن الايمان معطف من الفرو ليس غير ، ويصبح
 بذلك مسيحياً ومتواضعاً في ليلة واحدة فقط ؛ هذا هو حالياً يريد ، في كتاباته التي
 تدعي تثقيف العالم ، « ان يثبت غابة كاملة بإشارة واحدة من يده ! وهكذا فإن
 ذلك الذي هتف ، في ١٨٧٨ ، يائساً ملتاغاً : « ان كل حياتنا الارضية عبث غير
 معقول » ، يقدم لنا ، بعد ثلاث سنوات فقط ، لاهوته العمومي ، جاهزاً حاضراً كي
 نستفيد منه ، متضمناً حلول سائر الغايز هذا العالم ومشكلاته . وطبيعي ان كل تناقض ،
 في هذه الممارسة المعجلى ، سيلقي كثيراً من الاضطراب في نفس مثل هذا الفكر
 « العجول » ، ولذا فإن تولستوي يعلم واذناه مغلقتان دوماً ، متجاوزاً كل تناقض ،
 بواجباً نفسه - في سرعة مشبوهة مشيرة للشكوك - الحل المطلق لجميع القضايا دون
 تفريق . اي ايمان غير ثابت هو ذلك الايمان الذي يحس ، في كل لحظة ، ضرورة
 « الاثبات » ! اي فكر غير منطقي تعوزه القوة هو ذلك الفكر الذي تتقدم اليه ،
 كلما اعوزته الحجج ، كلمة من الانجيل لها القرار الاخير ، والقول الفصل ، والسلطة
 العليا الوحيدة التي لا يمكن دحضها كما لا يمكن مناقشتها ! كلا ، كلا ، كلا ، اننا لانستطيع
 ان نعلن ذلك بما يكفي من العنف ؛ ان مباحث تولستوي العقائدية (بالرغم من
 بعض التفاديل التي تتحلى - وهذا امر محتوم لامناص منه - بميزة عبقرية) ، لبي من
 عداد مؤلفات الموس الاكثر قباحة التي يعرفها الادب العالمي ... انها امثلة بغية
 عن فكر متسرع مضطرب ، متكبر واعتباطي ، بل (وذلك مشهد مؤثر عند
 رجل الحقيقة الذي هو تولستوي) غير شريف ايضاً .

ذلك ان اكثر الفنازين اخلاصاً ، الرسول النبيل والمثالي للأخلاق الذي
 هو تولستوي ، هذا الرجل العظيم الذي يكاد ان يبلغ القداسة ، يلعب بكل تأكيد ،
 بصفته مفكراً نظرياً ، لعباً رديئاً ومعلوطلاً . انه يبدأ ، كي يدفع في حقيقته الفلسفية
 الكون اللامتناهي للفكر بأسره ، بحيلة فظة من الشهوذة تقوم في تبسيط سائر



لوسنوي علی الطرینی بن موسکو وپلسنا بربانا

القضايا اولاً ، بحيث تصبح رفيقة بمثلة كورق اللعب .. وهكذا فانه يشرع في
المحل الاول ، بساطة مخفوفة بالأخطار ، مفهوم « ال » إنسان ، ومن ثم مفهوم
« ال » خير ، و « ال » شر ، و « ال » خطيئة ، و « ال » شهوانية ، و « ال » أخوة ،
و « ال » إيمان . ومن ثم فهو يخلط الورق في إقدام وشجاعة ، ويرفع « ال » حب
فوق رأسه ويلوح به كالورقة الراجحة دوماً ، وهذا هو - تصوروا ! - يريج . إن
مشكلة الكون بأسرها ، هذه المشكلة اللامتناهية وغير المحلولة التي درستها ملايين من
الأجيال البشرية ، تجد حلها ، في ساعة قصيرة واحدة ، على مائدة الكتابة في باسنايا بوليانا . . .
وإن الرجل العجوز يدهش لذلك كل الدهشة حقاً ، فعيناه صافيتان مثل عيني طفل
صغير ، وثفتاه الرماديتان تبسمان سعادة وفرحاً : . انه مذهول ، مذهول كثيراً ،
اذ يرى « ما ايسر كل شيء مع ذلك ! » . كيف السبيل بعد هذا إلى تفسير الظاهرة
التالية ، ألا وهي ان سائر الفلاسفة ، سائر المفكرين الذين يضطجعون ، منذ الف
عام ، في الف ضريح في الف بلد ، قد عذبوا فكرهم بكل هذا الألم وهذا التعقيد ،
بدلاً من ان يلاحظوا ان « الحقيقة بأسرها محتواة ، منذ زمن سحيق ، في
الانجيل ، واضحة كوضوح الشمس » بشرط ان يفعلوا كما فعل هو ، ليون
نيقولاييفيتش ، في سنة الرب ١٨٧٨ ، « فيفهمونها كما يجب للمرة الاولى منذ ثمانى عشرة
مائة من السنوات » ، وينظفون أخيراً الرسالة الالهية من « الجبس
الذي طليت به » ؟ (بلى ، انه يقول ، حرفياً ، مثل هذه الكلمات
السكافرة !)

بعد الآن اذن قد انقضت كل الآلام وسائر العذابات ، بعد الآن سوف
يضطر البشر إلى الاعتراف كم يسهل ان تعاش الحياة : ما عليك الا ان ترمي بكل ما
يضايقك تحت المائدة بكل بساطة ، وان تحذف الدولة ، والدين ، والفن ، والثقافة ،
والملكية ، والزواج . وهكذا نصفي الى الابد « ال » شر و « ال » خطيئة ، فإذا ما

قام كل انسان بجراثة ارضه ، وعجن خبزه ، وأصلاح حدائنه ، لا يعود هناك دولة ، ولا يعود هناك أديان ، بل لا يبقى الا مملكة الله الخالصة علي الارض . وعندئذ وإن الله هو المحبة ، والمحبة هي غاية الحياة . اذن فلنبعد عنا سائر الكتب : لا فِكر ولا عمل فِكر بعد اليوم ! ان « ا » محبة تكفي ، ويمكن ان تتحقق منذ الغد ، بشرط ان يريدنا البشر .

ويلوح للوهلة الاولى اننا نبالغ كثيراً عندما نعرض محتوى اللاهوت التولستوي الشامل هكذا ، مثلما هو في جوهره وحقيقته . ولكن من المؤسف ان تولستوي هو الذي يبالح على هذه الصورة المفجعة ، في حمية المهتدي الحديث ، فيتردى بالتالي ، ساعياً الى الافلات من تربة حججه المتقلقة غير الثابتة ، في عنف مثل هذا الايمان . حقاً ما أبدع الفكرة الاساسية لحياته ، إنجيل عدم استعمال العنف ، وهما اكثر وضوحهما واشد ثباتها ! ان تولستوي يريدنا جميعاً ان نكون عطوفين ، متسامحين ومتواضعين روحياً . وهو يدعونا ، كي نتجنب النزاع المحترم الذي سيثيره عدم المساواة المتفاقم ابداً بين الطبقات الاجتماعية ، ان نستبق الثورة القادمة من الاسفل بان نبدأها ، بلء ارادتنا ، من الاعلى ، وان نضع العنف خارج الميدان بوداعة ملائمة ، خليقة بالمسيحية البدئية . يجب على الفني ان يضعي بثرائه ، وعلى المفكر ان يضعي بغيره ، وعلى الفنانين ان يهجروا بروجهم العاجية ويقترخوا من الشعب ويتفهموه . ونحن جميعاً ، يجب ان نروض اهوائنا ، ان نروض « فرديتنا الحيوانية » ، ونطور فينا ، بدلاً من الرغبة في الاخذ ، المهمة المقدسة على العطاء . وتلك مطالب ساهية بكل تأكيد ، قد نادت بها ، منذ الدهور السحيقة ، سائر أناجيل العالم ، مطالب ابدية ، لانه يجب حتى الآن ان نجددها كي تستطيع الانسانية ان تتابع صعودها نحو الاعالي . ولكن فراغ الصبر غير المحدود الذي يميز تولستوي لا يكتفي ، مثل تلك الطبائع الدينية ، بأن يرى في هذه المطالب مجرد بديهية بسيطة ، بديهية ارفع . بل اعلى يمكن للفرد ان يعتنقه ، بل يطالب ، في فراغ صبره المتسايط ، وبحق عظيم في الوقت نفسه ، ان

تلتحق وداعة الروح هذه في التو واللحظة دون ادنى تأخير ، وعند سائر البشر دون اي استثناء مطلقاً . وهكذا تستسلم عبقريته المتهبة ، سعيماً وراء الاسراع في اقتناعنا، الى اكثر المبالغات هوساً ونقمة . . انه يطلب ان تتنازل جميعاً ، تلبية لوصيته الدينية ، عن كل شيء حالاً ودون تأخير ، ان نهجر ونضحى في التو واللحظة بكل ما يربطنا شعورنا به ، انه يطلب (هو الذي بلغ الستين من عمره) الزهد من الشبان (هذا الزهد الذي لم يمارسه هو نفسه أبداً في نضوجه الرجولي)؛ انه يطلب من المفكرين الامبالاة ، بله الازدراء ، تجاه الفن وسائر امور الفكر (وهي التي وقف نفسه عليها طوال حياته) . ولكي يقنعنا حالاً ، بسرعة البرق ان صح التعبير ، بتفاهة الغرور الذي نضيع كل ثقافتنا فيه وتلاشي ، فانه يهدم بلحكات غضبي يكيلها بكلنا بيديه كل عالمنا الفكري ؛ ولكي يجعل النسك التام اكثر اغراء بالنسبة الينا فقط ، فانه يعلن بصورة علنية كل ثقافتنا المعاصرة ، وسائر فنانينا وشعرائنا ، ومجمل تكنيكنا وعلمنا ، ولا يتورع عن اللجوء الى اكثر المبالغات والمغالطات فظافة في سبيل ذلك . وهو في ذلك كله يكيل الاهانات لنفسه ويدل شخصه في المحل الاول دوماً ، كي تكون له الحرية التامة بعد ذلك على مهاجمة الآخرين وإهانتهم .

انه يعرض اكثر النوايا الاخلاقية نبلاً الى الخطر بثرثرة متوحشة يضيق عنها كل افراط ، ولا يستطيع اي وصف ان يبلغ الى فظاظتها المبالغ فيها . أم عسانا نعتقد حقاً ان ليون تولستوي الذي كان طيب خاص يفحصه يوماً ولا يفارقه لحظة واحدة ، يعتبر الاطباء والطب « اشياء عديمة النفع » ، ويرى ان الحياة « خبيثة » فادحة ، وان الملكية « زينة تافهة » لا حاجة اليها ؟ هل قضى حقاً ، هو الذي تملأ مؤلفاته رفاً من المكتبة كاملاً ، حياته بأسرها « كطفيلي عديم الفائدة » ، « كبرغوث » لاجدوى من وجوده ؟ هل قضى هذه الحياة حقاً بالطريقة التي يصفها هو نفسه بصورة شعرية المبالغة : « اني اطعم ، واثرت ، واستمتع الى الاخرين ، ومن ثم اطعم من جديد ، واكتب واقرأ ، يعني اني اتجدت واستمتع من جديد ، ومن ثم اطعم ايضاً ، وألعب ،

وأطعمم واتحدث مرة اخرى - ومن بعد أطعمم ايضاً واعدو الى فراشي » ؟ أحمق ان « الحرب والسلام » و « آنا كارنينا » قد ولد الى الوجود هكذا ؟ أحمق ان الموسيقى بالنسبة اليه ، هو الذي يذرف الدموع السخينة اذا ما أصغى الى عزف سوناتا لشوبان ، ليست الا ماهي بالنسبة الى أولئك « المرتجفين (١) ضيقي التفكير ، ليست الا نايأ ينفخ الشيطان فيه ؟ أيعتبر بيتوفن حقاً « غاويأ شهوانياً » ، ومآسي شكسبير « عبثاً مطلقاً » ، ومؤلفات نيتشه « ثرثرة فظة ، سخيفة وغير معقولة » ؟ أيعتقد حقاً ان مؤلفات بوشكين لاتصلح ، هي الاخرى ، « إلا كي توفر للشعب ورقاً للفائفه » ؟ والفن الذي خدمه بصورة اروع واعظم بما فعله اي انسان آخر ، أهو حقاً مجرد « زينة اناس عاطلين ، لبس غير ؟ وهل الحيايط جريشا ، والحذاء بيوتر ، هما حقاً بالنسبة اليه حكم استيطيكي اسمى من اي حكم اصدره تورجنيف او دستويفسكي مثلاً في ذلك المضار ؟ أيعتقد حقاً ، هو الذي « كان في شبابه زانياً لا يكل ولا يعمب » ، والذي أنجب فيما بعد ، في سرير الزوجية ، ثلاثة عشر ولداً ، أيعتقد حقاً ان سائر الشبان سوف يصبحون نماذج للطفه ، ويشوهون انفسهم مثل المحصين متأثرين ببداهته ، راغبين في الزهد حسب وصاياه ؟

من الواضح ان تولستوي يبالغ مثلما يفعل رجل مهتاج حائق . ولا ريب ان السبب في هذه المبالغة ، منطقياً ، هو ما يعانيه من تأنيب الضمير ، او لعله يريد من ذلك ألا يلاحظ اي انسان كان كيف فاز هو نفسه بنصيب الاسد من « براهينه » .

« ١ » تعريب كلمة quakers الانكليزية ، وهم فريق ديني تشكل في القرن السابع عشر ، كانوا يهتمون في قاعات عارية وينظرون في صمت حلول الروح القدس ، فاذا احس به احدهم - وذلك يوضح بارتجافه - قام وخطب في الآخرين الذين يصغون اليه بانتباه عظيم . والمرجعون لا يعترفون بالاسرار ، ولا يقسمون الايمان في الحاكم ، ولا يمسكون السلاح قط ، ويعتبرون الحرب صراعاً بين اخوة ، ولا يعترفون بالرأب الكهنوتية ، ولا يكتشفون عن رؤوسهم حتى امام الملك .

وفي الحقيقة ان الاحساس الذي يراوده احياناً بكون هذا العبث الصاحب يهدد بذات المبالغة التي يتضمنها يجتري اعتمق وجدانه النقدي كالبريق الحافظ ، حتى لقد كتب ذات يوم : « ان املي ضئيل في ان يقبل الناس براهيني ، او حتى في ان يناقشوا بصورة جدية ! » وانه محق في ذلك بصورة رهيبه حقاً ! اذ مثلما كان يستحيل مناقشة هذا الفكر ، الذي يدعي التسامح ، اثناء حياته (ان امرأته تنهد وتقول : « يستحيل افناعه ابدآ » . وتقول أفضل صديقاته ايضاً : « ان محبته لذاته لاتسمح له ابدآ بالاعتراف بخطيئته واحده او تكبها ») ، كذلك لايعقل الدفاع عن يتوفن او شكسبير ضد تولستوي . محسن بمن يجب تولستوي ان يغمض عينيه حيث يظهر الرجل العجوز بصورة واضحة جداً صنف منطقه ، ويتعامى عنه . والحقيقة ان ليس انسان يتمتع ببعض الاعتبار قد فكر لحظة واحدة ، تجاه هذه الانفجارات اللاهوتية الصادرة عن تولستوي ، ان ينكر بصورة مباغته الفئ سنة من النضال في سبيل السموي بالحياة الى مراتب الروح ، كما يفعل المرء مثلاً حين يغلث صنبورالغاز في داره ، وان يلقي بين الاقدار قيمنا الاكثر قداسة دفعة واحدة . ذلك ان اوربا - وقد ولد لها في ذلك الحين بالضبط مفكر مثل نيتشه يرى ان افراح الفكر وحدها هي التي تجعل ارضنا الثقيلة قابلة للسكنى حقاً - لم تخامر اذ في رغبة قط - والله يعلم ذلك - في ان تخشوشن ، وتقبلد ، وتعيش حياة منغولية ، تلبية لوصية اخلاقية بسيطة ساذجة ، فتزلت في خضوع تحت الكيبينكا وتنكر - على اعتباره خطيئة « مجرمة » - ماضياً فكرياً عظيم الروعة والهاء !

لقد كانت اوربا ، وستظل دوماً ، عميقة الاحترام حتى لاتخلط بين الاخلاقي الامثل ورائد الوجدان البطولي الذي في تولستوي ، وبين هذه الحوادث البائس في سبيل تحويل الأزمة العصبية التي انتابته الى فلسفة عمومية ، والعذاب الحرج المشوب بالقلق الذي طغى عليه الى اقتصاد سياسي قائم بذاته . وسوف نميز دوماً

بين الدوافع الاخلاقية العظيمة التي نشأت عن حياة هذا الفنان البطولية ، وبين ذلك التطهير للثقافة الذي اراد هذا العجوز الغضوب كالفلاح - المعتم في قلاع النظرية المحضة - ان يمارسه ويخرجه الى حيز التحقيق . ان خطورة تولستوي ووزانته قد زادا وجدان جيلنا عمقاً بصورة لا مثيل لها ، ولكن نظرياته المتداعية تشكل اعتداء منقطع النظير على فرحة الحياة ، ميلاً فميناً براهب نسكي يريد ان يرجع القهقري بثقافتنا حتى مسيحية بدئية يستحيل تحقيقها ، مسيحية قد نخيلها شخص ليس هو بالمسيحي ، وبالتالي فهو فكر قد تجاوز مرحلة المسيحية وتخطاها .

كلا ، اننا لانعتقد ان « الزهد يسير الحياة بأسرها » ، وان من واجبنا ان نخيل هوى الامور الدنيوية هزياً جداً في نفوسنا ، فلا نخملها الا واجبات واحكاما مستقاة من التوراة . اننا لانثق بدليل لا يعرف شيئاً من قوة الفرح الخلاقة المحيية ، ولا يهدف الا الى تضييق الخناق على ألعاب حواسنا الحرة وعرقلتها ، بما فيها اكثرها سموً وجمالاً على الاطلاق : الفن ! اننا لانزيد ان نهمل شيئاً من فتوحات العلم والتكنيك ، لانزيد ان نهجر شيئاً من تراثنا الغربي ، لاشيء على الاطلاق ، لا كتبنا وآثارنا الفنية ، ومدننا ، وعلمنا ، ولا اصبعاً ، ولا « حبة واحدة » من واقعنا الحسي والمرئي ، وذلك في سبيل لست ادري اية جملة فلسفية ، واقل من ذلك ايضاً في سبيل جملة رجعية ومتداعية ستعود بنا القهقري الى حياة السهب والى البلاة الفكرية . اننا نرفض ان نستبدل ، مقابل غبطة سماوية ، التراء المدهش لحياتنا الراهنة ببساطة ضيقة لست ادري ماهيتها . . . اننا نفضل ان نملك الجرأة على أن نكون « خطاة » بالاحرى من ان نكون بدائيين ، ان نكون متأثرين هوى من ان نكون حمقى وصالحين حسب التوراة . وهذا هو السبب في ان اوروبا قد ألفت

بتجذرات نظريات تولستوي الاجتماعية في خزانة التراثيس الادبية بكل بساطة ، فعلت ذلك وهي مليئة حقاً بالاحترام نحو تلك الارادة الاخلاقية بصورة مثلى ، ولكن ليس دون ان قضها جانباً بالرغم من ذلك ، اليوم والى الابد . ذلك ان التأخر والرجعية ، حتى في اكثر اشكالها ارتفاعاً وسمواً ، وحتى اذا قدمتها عبقرية رائعة كعبقرية تولستوي ، لا يمكن ابدأ ان يصبح اخلاقين ، كما ان ما ينشأ عن اضطراب النفس الفردي لا يمكن قط ان يوضح اضطراب النفس العمومية ويبيئه . فلنكرر ذلك مرة اخرى وبصورة نهائية : ان اقوى منقب نقدي في عصرنا ، تولستوي ، لم يزرع حبة واحدة في ارض مستقبلنا الاوروي ، وهو بذلك روسي في الصميم ، من عبقرية جنسه وجيله حقاً وفعالاً .

وفي الحقيقة ان مغزى القرن الاخير ورسالته كالا يقوم ان ، بالنسبة الى الروسيا ، في نبش سائر الاعماق الاخلاقية ، وحفر سائر المشاكل الاجتماعية ، وتعريفها حتى جذورها الأصلية ، وكل ذلك في قلبي مقدس وعاطفة لاتقف عند حد ابدأ . وان احترامنا لينحني كثيراً في النهاية امام النتائج الجماعي لفنانينا العباقره ، فنحن اذا كنا نحس كثيراً من القضايا بصورة اعظم من ذي قبل ، واذا كنا نعرف قضايا اخرى بصورة اكثر ثباتاً ويقيناً من ذي قبل ، واذا كانت قضايا الزمان والقضايا الابدية التي تعرضت الانسانية لها تتقدم اليها بصورة اشد قسوة وإيلاماً وأقل شفقة ورحمة من ذي قبل ، فاننا مدينون بذلك الى الروسيا والى الادب الروسي في الدرجة الاولى . واننا مدينون الى هذا الاخير ايضاً بذلك القلق الخلاق الذي يمكننا ، بتجاوز الحقائق القديمة ، من بلوغ حقائق جديدة والارتقاء اليها . ان التفكير الروسي بأسره هو اختار روحي ، قوة مرنة ومتفجرة ، ولكنه ليس بايضاح للفكر ابدأ .

انه يشترك ، مثل تفكير سبينوزا ، ومونتين ، وبعض الألمانين ، في توسيع المدى الفكري للكون بصورة رائعة ، بل ليس اي فنان معاصر قد نبش روحنا مثما فعل تولستوي ودستوفسكي . ولكن اياً منها لم يساعدا على خلق نظام جديد ، بل اننا نرفض حلولهما ، حيث يحاولان ان يستخرجا ، من فوضاهما الخاصة ، من فوضى نفسها الامتناهية ، رد فعل يعطينا معنى لهذا الكون ومغزاه . ذلك ان كلاهما ، تولستوي ودستوفسكي على حد سواء ، يترجمان في رد فعل ديني بدافع قلق بدئي ، يسعيان الى الافلات من ربكة الذعر الذي تبعته فيهما العدمية المفتوحة امامها كالهواية السحيقة . . . وان كلاهما يتعلقان ، كي لا يسقطا في قعر هاويتهما الداخلية ، بالصليب المسيحي في عبودية ، ويفمران العالم الروسي بالسحب في ذات الوقت الذي كانت صواعق نيتشه المطهرة تحطم فيه سائر آلهة الذعر العتيق لإربأ اربأ ، وتضع بين يدي الأوروبي ، مثل مطرقة مقدسة ، الايمان بقوته وحرية .

بالشهد الخيالي الغريب ! ان تولستوي ودستوفسكي ، وكلاهما أقوى فكرين أنجبهما الوطن الأم ، يرتجفان فرحاً على حين غرة . . . ان ارتعاشاً تولسه الرؤى في اوصالها يجتاحها في ملء عملها ، فيرفع كلاهما عندئذ ، الى الامام منه ، الصليب نفسه ، الصليب الروسي ، ويسدعوان المسيح معاً ، مسيحاً يختلف حسب كل منهما كخصائص ومفاتيح للعالم الذي ينهار .

هذان هما ينتصبان ، كل في كرسيه ، مثل راهبين حائقين من رهبان القرون الوسطى ، متعارضين ان في فكرهما او في حياتهما ايضاً : دستوفسكي رجعي مفرق في رجعيته ، مدافع عن الحكم المطلق ، مبشر بالحرب والارهاب ، مستسلم في جنون وحما الى نشوة القوة التي تتسلط على كل شيء وتسيطر عليه ، اجير للقبصر

الذي ألقى به في الزنانات ، عابد لخص استعماري يغزو الكون ويحتاحه ، أما
تولستوي فينتصب في وجهه ، ساخراً ، بذات الهوس المجنون ، بكل ما يبجده الآخر ،
فوضوياً بصورة صوفية بتدار ماعليه الآخر من الذل والعبودية بصورة صوفية أيضاً ،
مسمرآلى عمود الاعدام القيصر كقاتل مجرم ، والكنييسة والدولة كسارقين مذنبين ، لاعتناً
الحرب ، حاملاً المسيح كذلك في شفتيه والانجيل في يديه ؛ ولكن كلاهما يرفضان العالم في
انظروا من التواضع والبالدة ، بفعل رعب عجيبي يملأ نفسها المترعزة . لا بد ان هذين
الفكرين يملكان لت ادري اي تأله نبوي كي ينشرا على شعبيهما ، بمثل هذه
الصورة العاتية ، خشيتها الرؤوية ، يملكان حدى عن نهاية العالم والدينونة الأخيرة ،
علم الملهم الذي يحس الارض الروسية تحت قدميه وقد امتلأت باكثر الانقلابات
هولاً ، اذ لإلام تصوير وظيفه الشاعر ورسالته ، ان لم تقوما في الاحساس السابق
النبوي بالحميا التي تولد في جو العصر ، والرعد الذي يتأهب في السحب العالية ؛ إن
لم تقوما في سيطرة اضطراب مخاض عصر جديد عليه وتملكه لروحه ؟ انها ينتصبان -
وكلاهما مبشران بالتوبة ، وكلاهما نبيات للغضب نشوانان بالحجة ، مستضيئين
بصورة مفجعة على عتبة عالم يموت ، يحاولان دوماً ان يمنعا الكارثة التي أخذت
اهتزازاتها تشمل الجرم منذ الآن ، شبه ما يكونان بوجهين عملاقين من وجوه العهد القديم
لم يرَ عصرنا مثيلاً لهما قط .

ولكنها لا يستطيعان إلا التنبؤ بما سيحدث ، دون ان يستطيعا تبديلاً لجرى
الامور . ان دستوفسكي يسخر من الثورة ، ولكن هذه القنبلة التي قضت على
القيصر تنفجر ، في اثر أمته تماماً . ان تولستوي يجلد الحرب جلدأ ، وينادي بالحجة
على هذه الارض ، ولكن التوبة لم تكذب ترددي الحضرة اربع مرات فوق نعشه ،

حتى دنست العالم ابشع جرائم التذابيح الاثخوري التي عرفها التاريخ . إن شخصياته - التي كان هو نفسه يحتقرها - وفنه قد عاشت جميعاً ، ولكن النسمة الاولى من الريح قد أطاحت بعقيدته ، فكأنها فقاعة من الصابون ليس غير . انه لم يشاهد انهار ملكوت الله ، لم يحضر الفشل المطلق التام الذي منيت به عقيدته عن الحب ، ولكنه قد احس ذلك دون ريب لانه خادمه قد حمل اليه ، وهو جالس في طعامينة بين اصدقائه في السنة الاثخيرة من حياته ، رسالة فضاها وقرأها :

« كلا ، يال يون نيقولا يفيتش ، لست استطيع ان افكر ، مثلك ، ان العلاقات بين الناس يمكن ان تتحسن بواسطة الحب وحده . ان الناس ذوي التربية الحسنة والذين يأكلون حتى شبهم يستطيعون وحدهم ان يتكلموا هذه اللغة . ولكن ماذا تقول لاولئك الذين يتضورون جوعاً ، منذ طفولتهم ، والذين يتحنون طوال حياتهم تحت نير الطغاة ؟ انهم سيناضلون وسيجربون ان يخرجوا من العبودية . واني اقول لك ذلك ، في عشية موتك يال يون نيقولا يفيتش : ان العالم سوف يحترق بعد تحت امواج الدماء المهرقة ، وسوف يقتل ويمزق ارباباً ارباباً اكثر من مرة اخرى ، ليس الاسياد وحدهم دون تفريق في الجنس فحسب ، بل اولادهم ايضاً ، حتى لايمود هناك ما تخشاه الارض من جانب هؤلاء . واني لآسف انك لن تكون عندئذ على قيد الحياة ، كي تكون شاهداً عيانياً على خطيئتك . اني اتنى لك موتاً هادئاً . »

ان احداً لا يدري من الذي كتب هذه الرسالة الشبيهة بالاعصار . اهو تروتسكي ، ام لينين ، ام احد الثورويين الذين يتعمنون في قلعة شلوسلبورغ ؟ انا

لن نعرف ذلك قط ، ولكن لعل تولستوي قد ادرك منذ تلك اللحظة ان عقيدته ليست الا دماغاً ، وإلا باطلاً في وجه الواقع ؛ وان الهوى المتوحش المتبلبل سوف يكون اقوى دوماً بين البشر من المحبة الاخوية . ومجدتنا الشهود ان سماء وجهه قد اكتست عندئذ بطابع الخطورة ، وانه تناول الرسالة وانسحب الى غرفته مستغرقاً في التفكير ، وكأئنا جناح النبيؤ الجليدي قد احتف برأسه الذي
كبر وشاخ .



النضال في سبيل التحقيق

«لأسهل ان يكتب المرء مجلدات عديدة في
الفلسفة ، من ان يضع مبدءاً واحداً في حيز
التطبيق.»

تولستوي

«المذكرات» ١٨٤٧

ان تولستوي لم يقرأ دون انفعال، في الانجيل الذي كان يتصفحها في

الربيع ذلك الحين مجمياً عظيمة، هذه الكلمات النبوية: «ان من يزرع الريح
بمحصد العاصفة»، لأن ذلك هو المصير الذي تحقق حالياً في حياته . ليستحيل على اي فرد
كان ، وعلى فكر عفيف أقل من اي كائن آخر ايضاً ، ان يلقي في العالم
بقلته الروحي دون ان يضطر بالضرورة الى التكفير عن ذلك : تلك الثورة سوف
تعكس اذن على صدره الخاص وتندفق بعنف عظيم ، في الف شكل وشكل ،
تحتاج كل شيء في اعصارها الجبار . ونحن لانستطيع اليوم ، بعد ان خفت حدة
المنافسة منذ زمن طويل ، ان نقدر بصورة تامة عظم الرجاء المجنون الذي اشعلته
رسالة تولستوي منذ نداها الاول في روسيا ، وأبعد من ذلك ايضاً في العالم بأسره :
تلك كانت ثورة للنفوس دون ادنى ريب ، يقظة جبارة لوجدان شعب كامل .
وعبئاً منعت الحكومة التي دعت لنتائج مثل هذا الانقلاب كتابات تولستوي
الجدلية ؛ فهي تمر من يد الى يد منسوخة على الآلة الكاتبة ، او تعبر الحدود خفية
بعد ان مطبعت في الخارج ، وقلب الانسانية المفتوح لكل رسالة خلاصية يستدير
في تهلل نحو صاحبها بمقدار ما يشدد هذا الاخير هجومه الجري ، وعلى عناصر النظام
القائم : الدولة ، والقيصر ، والكنيسة ، وبمقدار ما يطالب في حماسة عظيمة بنظام
اجتماعي أفضل بالنسبة الى قريبه الانسان . ذلك ان عالمنا الروحي قد احتفظ تماماً ،
بالرغم من الخطوط الحديدية والبرق واللاسلكي ، بالرغم من الجهر ومن كل سعر
التكنيك المتقدم ، بذات التوقع المسياني الذي يستدير نحو حال أخلاقية أممي ،
هذا التوقع الذي كان يتصف به ايام المسيح ، ومحمد ، وبوذا ! إن طوحاً متجدداً
دوماً الى دليل ومعلم يحيا ويهتز ، بصورة خفية ، في نفس الجماعات البشرية المتعطشة
أبدياً الى المعجزات . وذلك هو السبب في ان الانسان يس العصب الحساس

لهذا العطف الى الايمان في كل مرة يتوجه فيها الى الانسانية ، بمنياً ايها بعض
الوعود ، وأن مؤونة لامتناهية من الاستمداد للتضحية لتقبل في كل
مرة ذلك الذي يجد الجرأة على النهوض ، ومجد الشجاعة على ان
يتفوه بهذه الكلمة ، الثقيلة بالمسؤولية اكثر من اية كلمة اخرى : « اني
اعرف الحقيقة » .

ولذا فان ملايين الانظار الطافعة بالنفوس تلتفت في نهاية القرن ، من كل
حذب وجوب في الروسياء الى تولستوي منذ اللحظة الاولى التي يعلن فيها
عن رسالته الرسولية . ان « الاعترافات » التي لم تعد بالنسبة لنا ، منذ زمن
طويل ، الا وثيقة نفسانية ، تسكر الشبية المؤمنة مثل بشارة الهبة منزلة
من السماء ، فيفتون في نشوتهم العظيمة : هذا اخيراً انسان قوي ، حر ،
والاكثر من ذلك انه اعظم شعراء روسيا ، يعبر - كي يجعل منه حقاً
مشروعاً - عما لم يك حتى ذلك الحين الا موضوع شكاوى المحرومين في الأرض ،
عما كان البشر نصف الاثراء وحدهم همسون به بصورة خفية ، ألا وهو ان
النظام الراهن في العالم نظام ظالم ، غير اخلاقي ، وبالنتيجة غير قابل
للدفاع عنه ، وانه يجب بالضرورة التفتيش عن شكل جديد وأفضل
لهذا النظام .

ومكذا فان انطلاقاً لم يكن في الحسبان يشمل بغتة سائر المستائين ، ولا
يصدر عن فيه احد اولئك المنسقين المذمتين لحديث التقدم ، بل عن فيه فكر حر
عصي على الفساد لا يجرؤ اي انسان ان يرتاب في سلطته وإخلاصه . ويسمع هؤلاء
المستاؤون ان ذلك الرجل يريد ان يبين الطريق بمثل حياته الخاصة ، بكل فعل من
افعال وجوده ، فيتنازل عن ميزات ككونت نبيل ، ويتنازل عن املاكه
كرجل ثري ، ويريد - هو اول عظماء هذا العالم وملاكه - ان يأخذ مكانه ،

منجاهلاً كل الفروق ، بين جماعة الشعب الذي يكاد جسدياً ويكده ، حتى تتظاهر أخيراً على هذه الأرض الاخوة الدينية بدلاً من طغيان الدولة ، وملكوت الحب الالهى بدلاً من قيصرية العنف والارهاب . وان رسالة هذا القادي الجديد للمحرورين تبلغ حتى غير المتقين من الناس ، حتى الفلاحين والاميين انفسهم . . . وما اسرع ما يتجمع التلامذة الاولون ، ويأخذ فريق التولستويين بتحقيق كلمة المعلم بصورة حرفية ، بينما تسهر من ورائهم وتنتظر كتلة المخطهدين الذين لا يحرص لهم عدد ، يريدون ان يعرفوا ان لم يكن هذا الانسان المخلص قد وجد عوناً لهم ، قد عثر على رجاء يقدمه لهم ، هم الذين طالما خابت آمالهم وتحطمت في هذا العالم القاسي . وهكذا فان ملايين القلوب ، ملايين الانظار تتطلع الى الامام من تولستوي صاحب البشارة الجديدة ، وتراقب في نهم كل فعل وكل حدث من حياته التي اتخذت حالياً اهمية عمومية شاملة : وذلك ان هذا الرجل قد تعلم شيئاً ، ولسوف يعلمنا .

ولكن تولستوي - وذلك امر غريب حقاً - لا يبدو انه ادرك ، منذ البدء ، اية مسؤولية عظيمة قد القاها على عاتقه عند ما جرى في محيط حياته الخاصة هذا التيار غير المنتظر من ملايين الأفراد الذين اخذوه على حين غرة . ان له من البصيرة ما يكفي بكل تأكيد كي يدرك ان مثل هذه العقيدة عن الحياة لا يمكن ان تظل أحرف باردة على الورق فقط بالنسبة الى من ينادي بها ويبشر ، بل لابد من انجازها بصورة مثالية في وجوده الخاص . ولكنه يحسب (وتلك هي الخطيئة التي يرتكبها في البدء) انه قد فعل الكثير ، دام قد بين بصورة روية ، بتطبيق سطحي على شخصه ، كيف يمكن تحقيق تعاليمه الاجتماعية والاخلاقية الجديدة ، ووهبها من حين لآخر ، في سلوكه العام ، اعتناقاً مبدئياً . وهكذا فهو يرتدي ثياب الفلاحين ، كى لا يظل هناك

اي فاروق بين السيد وخدمه ، ويستغل في الحفل بالمنجل والمهراب ، ويطلب من «رجعيين» ان يرسمه في هذا المشهد كي يعرف الناس جميعاً ويتحققوا بواسطة هذا البرهان الموضوعي ان تولستوي لا يعتبر عمل الحقل ، العمل العظ والشريف الذي ينجزه المرء كي يكسب خبزه ، امرأً مخجلاً ابداً ، وكي لا يخجل احد بعد الآن من هذا العمل ، مادام هو نفسه ، ليون تولستوي ، الذي لا حاجة به الى ذلك السلوك كما يعرف الجميع حق المعرفة ، والذي قد اعفته عبرته تماماً من هذا الالزام ، يقبل بذلك العمل في فرح ويقبل عليه عن طيبة خاطر . وانه ينقل سائر خيرات ، كل ما يملكه (وكانت املاكه تبلغ في ذلك الحين قرابة نصف مليون من الروبلات) الى زوجته وعائلته ، كي لا يدنس ابداً نفسه بعد الآن «بخطيئة» الملكية ، ويرفض من الآن فصاعداً ان يتناول مالاً على مؤلفاته أو أية قيمة اخرى تعوض عن اتعابه فيها . وانه يقوم بأعمال البر والصدقة ، فيعطي وقته لأكثر البشر الذين يتوجهون اليه تواضعاً وشهرة مغمورة ، فيستقبلهم في داره ، او يكتب اليهم ، ويهتم بكل ظلامة وكل اثم على الارض بمحبة ومساعدة اخويتين مجردتين . ولكن ما اسرع ما يضطر الى الاعتراف بأن الناس يطلبون منه اكثر من ذلك ، لأن الاعلىية العظمى من هؤلاء المؤمنين - هذا «الشعب» بالضبط الذي يفتش عنه بكل حواس نفسه ، لا يرضى بهذه الرموز عن التواضع التي لا تملك إلا مغزى وروحياً فقط ، انه يطلب اكثر من ذلك من ايون تولستوي : انه يطلب الاملاق التام ، والاقسام المطلق لبؤسه وشقائه . ان الشهادة وحدها تستطيع ان تخلق مؤمنين حقيقيين ومقتنعين حقيقيين (ولذا فان هناك دوماً ، في مبدأ كل دين ، انساناً يضحى بنفسه كلياً) . اما موقف يكتفي بالتوجهات والوعود فيعجز عن ذلك دوماً . غير

ان كل ما عمله تولستوي حتى ذلك الحين ، نبي يوطد عقيدته في امكانية تحليتها ، لم يكن اكثر من اشارة بسيطة ندى على النواضع ، لم يكن الا فصلاً رمزياً عن ارادة دينية طيبة ، فعلا يمكن تشبيهه مثلاً بذلك الفعل الذي تفرضه الكنيسة الكاثوليكية على البابا والملاك الذين يحسون ايماناً حياً عندما يفسلون اقدم اثني عشر شيخاً يوم الخميس المقدس ، ابي مرة واحدة في كل عام ، بحيث يرى الشعب ويفهم ان اكثر الأعمال تواضعاً ليليق حتى بعملاء الأرض وكبرائها . ولكن كان البابا او ابراطور النمسا او ملك اسبانيا لا يتجردون ، بهذا العمل السنوي الدال على التوبة ، عن قوتهم ، ولا يصبحون ابدأ مستخدمين في حمام عام ، كذلك لا يصبح الشاعر العظيم الذي هو تولستوي اسكافياً ، لانه ينكب ساعة من الزمان فوق الغالب والمحرز ، ولا يصير فلاحاً قط لانه يشتغل ساعتين في الحقل ، ولا يسمي مستطيلاً حقيقياً لانه قد نقل ثروته إلى عائلته . ان تولستوي لم يفعل في البدء الا تبيان امكان ممارسة عقيدته ، ولكنه لم يارسها قط بصورة حقيقية . ولكن الشعب الذي (بفريرة عميقة) لا يكتفيه الرمز ، ولا يمكن ان يقنعه إلا كمال التضحية وحده ، هذا الشعب قد انتظر بالضبط من تولستوي ان يمارس عقيدته بنفسه ، لانه تلامذته قد فسروا دوماً بصورة اشد دقة وحرافية وقوة من معلمهم ، عقيدة هذا الاخير وفلسفته .

ومن هنا نشأ تلك الحيرة المفاجئة التي يحسونها عندما يعطرون الى التحقق ، اذ يجوبون الى قرب نبي الفقر الارادي ، ان فلاحى باسنايا بوليانا ما برحوا ، مثلهم في اراضي النبلاء الاخرى ، يتعفون في البؤس ويفنون ، بينا هو نفسه ، ليون تولستوي ، يستقبل ضيوفه ، مثله قبلاً ، كسيد عظيم في مسكنه الفخم ، بحيث يشكل دوماً واحداً من « طبقة الناس الذين يلبون ، يختلف الاعراب ، الشعب ومجربونه من الضروري » . ان نقل تلك الاملاك الذي اعلن

عنه تولستوي في صخب عظيم لا يبدو لهم نازلاً حقيقياً ، كما ان زهده لا يبدو لهم
 فحراً صحيحاً ، ما داموا يرون ان الشاعر ما يرحب يتمتع بكل ما في العيش من رغد
 ورفاهية مثله قبلاً ، لا بل إن تلك الساعة التي يخصصها للزراعة او لصنع الأحذية لا
 يمكن ان تقنعهم ايضاً . ويزجر فلاح عجوز في نقمة واستياء : « اي نوع من الرجال
 هو هذا الذي يبشر بشيء ، ويصنع نقيضه تماماً ؟ » بينا الطلاب والشيوخ الحقيقون
 يعلقون بصورة اقسى على هذا التناقض الملتبس القائم بين العقيدة وبين السلوك .
 ولا تلبث الحبية التي يثيرها موقف تولستوي المهم ان تشمل شيئاً فشيئاً اكثر
 انصار نظرياته رسوخاً بالضبط ، فإذا رسائل كثيرة ، بله هجمات ورعاية في بعض
 الأخيان ، تدعوه بشدة متعاطفة دوماً إما الى افكار عقيدته ،
 وإما الى ممارستها أخيراً بصورة حرفية ، وليس بشكل امثلة رمزية
 ومؤقتة فقط .

ويعترف تولستوي أخيراً ، وقد اذعرت هذه الدعوة ، بعظم المطالب التي
 ثارها ... انه يعترف بان الافعال وحدها ، وليس الكلمات ، أن التبديل التام
 لوجوده ، وليس امثلة الدعاية فقط ، يمكن ان تمنح الحياة لرسالة . ان ذلك الذي
 ينتصب خطيباً وصانعاً للوعود على منصة عامة - على ارفع منصة في القرن التاسع
 عشر - يضيئه النور الشديد الذي ترسله مصابيح مجده ، وتراقبه ملايين الأزواج
 من العميون ، لامناس له في النهاية من التنازل عن كل حياة خاصة ومتساهلة ، كما
 لا يكفيه ان يظهر رأيه برموز اتفاسقية ، بل هو في حاجة الى توضيح تامة وحقيقية
 تكون من شهادة ذات قيمة . وهكذا يجد تولستوي نفسه ملزماً ، في حياته
 الشخصية ، بواجبات لم تخطر في حسابه قط عندما التقى الى العالم بنداياته : « لا بد
 للمرء كي يسعه العالم ، من سقي الحقيقة بالمذاب ، بل أفضل - بل من ذلك
 بالموت ايضاً » .

وهكذا يأخذ تولستوي على عاتقه، وهو مرتجف الأوصال، طافح بالاضطراب، مراتب في قوته، متألم حتى اعماق اعماق نفسه، الصليب الذي تحمله عقيدته آياه، والذي يقوم في الشهادة لمعتقداته بكل من افعال حياته دون اي تردد أو حذر، وفي الصيرورة خادماً لعقيدته الدينية مليئاً بالقداسة، في قلب عالم عظيم السخرية، كثير الثرثرة.

الخادم المليء، « بالقداسة » : ان الكلمة قد قيلت، بالرغم من سائر اقسامات السخرية والاستهزاء. ذلك ان القديس يبدو، بكل تأكيد، غير معقول ومستحباً تماماً للوهلة الاولى في عصرنا الموضوعي، وكأنه خطيئة زمنية افلتت من العصور الوسطى التي انقضت واندثرت الى الأبد. ولكن رموز كل نموذج روحي وشكله الخارجي هي وحدها التي تزول وتفتي، اما النموذج نفسه فانه يعود دوماً بصورة اجبارية ومنطقية، اذا ما دخل مرة في دائرة الاشياء الارضية، الى دائرة اللعب اللامتناهي الذي يشمل العلاقات التي نطلق عليها عادة اسم التاريخ. ان بعض الناس، دوماً وفي كل عصر من العصور، سوف يجربون على الطموح الى القداسة، لأن الشعور الديني الذي تتميز الانسانية به يحتاج دون انقطاع الى هذا الشكل الروحي الامثل، فهو يسعى بالتالي الى خلقه وابعاده. لكن تحقيقه المادي يختلف دوماً بالضرورة، حسب التبدلات البشرية المتعاقبة. ان مفهومنا عن تقديس الوجود لم يعد له ادنى علاقة بهوس وجوه الاسطورة المذهبة الذين كانوا يدينون أنفسهم في القبور، ولا بصلابة آباء الصعراء العموديين (١)، لأننا قد خلصنا منذ زمن طويل صورة القديس وحررناها من كل ضلة بتعاريف مجامع اللاهوتيين ومجالس

١٥ بعض المسيحيين التاسكين في القرن الرابع، الذين كانوا يقضون ايامهم على قمة عمود خاص بنوه خصيصاً. وأشهرهم سمعان العمودي، الذي ما برحت وسيلة نسكته قائمة حتى الآن في شمال سوريا.

البابوية . ان يكون المرء قديساً ، ذلك يعني بالنسبة اليها في هذه الايام ان يكون المرء بطلاً ليس غير ، بمعنى امتثال مطلق لوجوده الى فكرة يجيهاها دينياً بكل كينونته . إن الاشراق الفكري ، تلك الوحدة « المنكرة للعالم » التي عاشها قاتل الآلهة في سيلس - مازيا (١) ، او ايضاً ذينك الزهد والتقدير اللذين فرضهما على نفسه قاطع الماس في امستردام (٢) ، لانبدو في اعيننا ادنى ابدءاً من اشراق اولئك المهووسين الذين يجدون أنفسهم كي يكسبوا القداسة ويحصلوها . ان قديس الفكر مابرح مكنأ في ايامنا الحاضرة ايضاً ، فيها وراء منطقة المعجزات ، في عصر الآلة الكاتبة والنور الكهربائي ، في وسط مدننا ذات الزوايا المربعة ، المغمورة بالضياء ، التي تجتازها جموع من البشر لاحصر لها . ان قديس الروح مابرح مكنأ اذن كشاهد حي ، ذي لحم ودم ، للضير والوجدان . الا انه لم تعد بنا حاجة الى اعتبار هذه الكائنات الرائعة والنادرة ككائنات معصومة لهيباً ، واقعة خارج حدود كل زوال ارضي ، بل اننا - على التقيص من ذلك تماماً - نجب هؤلاء « الجريين » العظماء ، هؤلاء الارواح الجريية بصورة مخوفة بالأخطار ، في ازماتهم ونضالاتهم بالضبط ، وحيث نجبهم اكثر من اي مكان آخر ، لانجذبهم بالرغم من تعرضهم للضلال والخطأ دوماً ، بل بسبب هذا التعرض بالضبط ، فبجاننا لا يريد بعد الآن ان يجيل قديسيه كمرسلين من الله قادمين من عالم آخر فوق ارضي ، بل يريد ان يجعلهم على اعتبارهم اكثر الانسانيين ارضية على وجه الدقة .

ولذا فان مايؤثر فينا اكثر من كل شيء آخر في محاولة نولستوي الجسارة كي يعطي حياته شكلاً أمثل ، هو شكوكه من دون سواها . . . ان فشله

« ١ » يعني نيشه .

« ٢ » يعني سينوزا .

الاجباري لبإلوح لنا أكثر تأديراً من كل قداسة . وحتى ان كنا كافرين كل الكفر بعقيدته ، فان العذابات التي قاساها بسبب هذه العقيدة تقنعنا بارتفاع مصائره العظيم وسهوها الرائع .

وهكذا فان حياة تولستوي تصبح بالضرورة ، في اللحظة التي يقبل فيها على المحاولة البطولية التي يريد بها ان يتنازل عن أشكال الحياة الزمنية والانفاقية ، كي يحقق أشكال وجدانه الأبدية فقط ، ان حياته تصبح مشهداً مفعباً ، اعظم من سائر المشاهد التي رأيناها منذ ثورة نيتشه وسقوطه . ذلك ان مثل هذا الفهم العنيف لسائر الروابط الاعتيادية التي تميزها العائلة ، ونبل الحسد ، والملكية ، وقوانين العصر جميعاً ، لا يمكن ان يتم دون ان يمزق تلك الشبكة العصبية ذات الألف عروة ، دون ان يجرح إن صاحب العمل او اقرباءه ، وبالصورة الاشد ايلاماً وتعذيباً . ولكن تولستوي لا يخشى الألم ، بل انه - على العكس من ذلك ، كروسبي حقيقي ، يعني كمتطرف حتى الدرجة القصوى - لا يستسلم عن طيبة خاطر الى كل من التجارب التي يتعرض لها فحسب ، بل انه متعطش أيضاً الى العذابات الحقيقية التي ستكون البرهان المرئي عن اخلاصه وصدقه . لقد تعب منذ زمن طويل وكل من الحياة الحاضرة التي يعيشها ، فالسعادة العائلية المسطحة ، ومجد آثاره ، واعتبار معاصريه له وإجلالهم آياه ، جميعها امور تنفر وتبعث الأشمئزاز في نفسه - ان الانسان الخالق فية ليتوق ، بالرغم منه ، الى مصير اشد توتراً واكثر تنوعاً ، يتوق الى الاقتراب اكثر فأكثر من القوى الاساسية للانسانية ، من الفقر ، والبؤس والعذاب ، التي يتعرف على مغزاها الخلاق للمرة الاولى منذ ازمته . وكي يثبت بصورة علنية طهارة عزمه على التواضع ونقاوته ، فانه يريد ان يعيش حياة انسان من ادنى الطبقات ، لا يملك بيتاً ، ولا مالاً ، ولا عائلة ، حياة انسان ملطخ بالغباب والاقذار ، مصاب بداء القمل ، محتقر من الناس ، مضطهد من الدولة ، محروم من الكنيسة . انه

يريد ان يعيش في جسده الخالص ، في عظامه وفي دماغه ، مبادئ وصفه في كتبه على اعتباره أهم أشكال الإنسان الحقيقي ، والشكل الوحيد الذي يتعلل بالحسب الروحي بالاضافة الى ذلك . يعني حياة ذلك الذي لاوطن له ، الذي لايمك شيئا ، والذي تطرده الريح امامها مثل ورقة خريفية . ان تولستوي (وهنا يبني من جديد ذلك الفنان العظيم الذي هو التاريخ احدي تناقضاته العبقريه والساخرة معاً) يريد ، بكل قوى ارادته ومن اعماق اعماقها ، ان يكون له مصير دستوفسكي - نقيضه - بالضبط ، المصير الذي تحقق بالرغم من ارادة هذا الاخير . ذلك ان دستوفسكي قد عانى كل العذابات المرثية ، كل وحشية وصلابة المصير الذي يريد تولستوي في حمية ، بدافع مبدأ تربوي ، وبفعل رغبة في الشهادة عاتية جبارة ، ان يعانیه ويقاسي احواله . ان الفقر الحقيقي ، المعضب ، المحرق ، الذي يلتم كل فرح وبأني عليه ، هو بالنسبة الى دستوفسكي رداء قنطورس (١) . انه يضرب على وجهه ، دون وطن ، عبر سائر بلدان الارض ، يقرض الداء جسده ، ويجرده جنود القيصر حتى عمود الاعدام ، ويلقونه في سجون سيبيريا الرهيبة ، قد اعطي له بكل حرية كل ما يجده تولستوي ضرورياً كي يبرهن عقيدته ، ويحقق مثله الاعلى الاجتماعي ، بينما لم تمس قطرة واحدة من هذا الكأس شفتي تولستوي المتعطش الى العذابات بصورة مادية مرثية .

والحقيقة ان ارادة العذاب التي يحسها تولستوي لم تستطع قط ان تتوسط وتحقق بصورة مرثية بافعال حسية : ان قضاء ساخرأ مستهزأً يقطع عليه سبيل

١ « قنطورس » (كائن اسطوري نصفه انسان ونصفه حصان) اراد ان يختلف ديجانيرا ، امرأة هرقل ، ولكنه اسبب بهم مسوومه البطل به ، وبينما هو يوت اعطى رداءه الى نيجانيرا كطلم يمد اليها زوجها عندما يجونها .

الشهادة في كل مكان . انه يريد ان يكون مغدماً ، ان يمنح ثروته الى الانسانية ،
ألا يكسب بعد الآن مالا من كتاباته ومن مؤلفاته ، ولكن عائلته لاتسمح له ان
يكون فقيراً ، بل ان ثروته الكبيرة تنمو باضطراد ، بالرغم من ارادته ، بين ايدي
ذويه ؛ انه يريد ان يكون وحيداً منزلاً عن الناس ، ولكن مجده يفرق دازه
بالصحفين والفضوليين الذين لاينقطعون عن القدوم اليه لحظة واحدة ؛ انه يريد ان
يكون محترماً ، ولكنه بمقدار مايكيل الاهانات لنفسه ومحيط من قدرها ومجتمعاته
الخاصة ويرتاب في اخلاصه ، بمقدار مايتعاطم الاحترام الذي يكنه البشر ويظهرونه
له ؛ انه يريد ان يعيش حياة فلاح في كوخ واطيب ، داخناً ، مجهول من الجميع ،
لا يعرفه اي انسان قط ، او ان ينيه في الطرقات مثل حاج أو مستعطي معدم ، ولكن
عائلته تعمره بالعناية ، وتدخل حتى الى ذات غرفته تسبيلات التكنيك الحديث التي
يهاجمها بصورة عننية عنيفة ؛ انه يريد ان يكون مضطهداً ، سجيناً ، مجلوداً بالسياط
(« ماأشد مايصعب علي ان اعيش في حرية » ، كما كتب ذات مرة) ، ولكن السلطات
تتنهى عن طريقه مخنلية الاطراف ، وتكتفي بان تجلد تلاميذه وتفهمهم الى سبيبراه

ولذا فانه يذهب الى اقصى الطريق ، وينتهي بأن يوجه الاهانات الى القيصر
نفسه ، كي يقتص منه أخيراً ، ولو مرة واحدة ، فينفي ، ويدان ، ويكفر علنياً
عن ثورة ايمانه وقرده . ولكن نيقولا الثاني يرد على الوزير الذي يقدم اليه الشكوى :
« ارجو ألا يس ليون تولستوي بأذى ، فأنا لأنوي ان اجعل منه شهيداً » . ولكن
هذا هو بالضبط ما كان يريد تولستوي في سنواته الاخيرة ، ان يصبح شهيداً ، كي يثبت
للشمر صدق عقيدته واخلاصها ، وهذا هو بالضبط مايرفض القدر ان يمنحه اياه ، هذا
القدر الذي يذهب حتى درجة حماية هذا الانسان المتعطش الى العذابات ،
فيفهمه بعناية تكاد ان تكون خبيثة نوعاً ما حتى لا يصيبه ادني سوء على الاطلاق ؛
وهكذا يضطرب تولستوي ، كالجنون الذي يرمي بنفسه على جدران زقزاقته المصنوعة

من المطاط ، في سجن غير مرئي من مجده ، يبصق على ذات اسمه ، ويكشر في وجه الدولة ، والكنيسة ، وسائر السلطات ، ولكن الجميع يصغون اليه في احترام عظيم ، وقد رفعوا قبائحهم عن رؤوسهم ، وامسكوا يدينهم في إجلال ، ويروحون يداورونه مثل مجنون عريق الأصل لا يخشى اذاه . انه لم ينبج قط في تحقيق ذلك العمل البين ، البرهان الأكيد ، الشهادة العلانية ، لان الشيطان قد وضع الحمد فيما بين ارادة الاخلاص عنده وبين الواقع ، كي يخفف من شدة سائر الضربات التي يمكن ان يكيلها القضاء له ، ويمنع العذاب من البلوغ اليه .

ولكن تشكك سائر انصاره يسأل في صبر فارغ ، مثلما تسأل سخرية خصومه في استهزاء ايضاً : ولكن لماذا لا يضع ليون تولستوي في عزم حداً نهائياً لهذا التناقض المؤلم ؟ لم لا يطرد من داره الصحفيين والمصورين ؟ لم ينفذ دوماً ، بدلاً من ارادته الخاصة ، ارادة المحيطين به الذين يعلنون بصورة مقتنعة في احتقار تام لتعاليمه ان الثراء والرفاهية هما اعظم خيرات الارض على الاطلاق ؟ لماذا يتصرف أخيراً بوضوح ودون تناقض ، حسب ما يأمره وجدانه به ؟ ان تولستوي لم يجب قط على هذا السؤال الرهيب الذي يطرحه البشر عليه ، كما لم يعتذر عن ذلك قط . بل ان الأمر على التقيض من ذلك تماماً ، اذ ليس اي من اولئك الثرارين العاطلين الذين يظهرون باصعهم القدرة التناقض بين القائمين ارادة تولستوي والواقع قد ادان ذلك الالتياس بمثل القسوة التي ادانها بها تولستوي نفسه . لقد كتب في « مذكراته » في عام ١٩٠٨ : « لو سمعت الناس يقولون عني ، وكان الأمر يتعلق بانسان غريب : هذا رجل يعيش في البذخ ، يسلب الفلاحين كل ما يستطيع ان يسلبهم اياه ، وينزع بهم في السجون . وهو يؤمن بالمسيحية ويبشر بها في الوقت نفسه ، ويعطي صدقات لاتزيد عن خمس كوبيكات ، ويحترق في سائر افعاله القبيحة خلف زوجته العزيزة ، فلن اتردد لحظة في نعمت مثل هذا الشخص بالحديث واللص . وذلك هو بالضبط

ما يجب ان يقال لي ، حتى انتزع نفسي من غرور العالم ، فلا اعود احباً إلا بحياة النفس وحدها . كلا ، لاحاجة لاي انسان كي ينير اتولستوي التناقض القائم بين ارادته وسلوكه ، فقد كان هذا التناقض يمزق نفسه يوماً دون انقطاع . وعندما اخترق هذا السؤال ، في « مذكراته » ، وجدانه مثل حديد احمر مشتعل : « قل ، ياليفون تولستوي ، هل تعيش حسب مبادئ عقيدتك ؟ » ، اجاب في حلق يائس : « كلا ، اني اموت من الجبل والعار ، فأنا مذنب ، واستحق الاحتقار » .

كان يدرك بكل وضوح انه لم يعد امامه ، منطقياً وأخلاقياً ، بعد اعلان دستور ايمانه على رؤوس الاشهاد ، الا طريقة واحدة ممكنة للحياة : ان يهجر منزله ويتنازل عن القاب نبه ، وعمل فنه و « يذهب مثل احد الحجاج في طرقات روسيا » . ولكنه ، هو الرسول ، لم يستطع قط ان يحمل نفسه على اتخاذ مثل هذا المقرر الأمل ، والضروري للغاية ، لانه الفرار المقنع الوحيد . ولكن سر ضعفه الأخير ذلك بالضبط ، هذا العجز في نفسه عن تحقيق الايمان الذي وضع مبادئه ، يعني بالنسبة الي جمال تولستوي الأسمى . ذلك ان الكمال مستحيل دوماً إلا فيها واء الامور البشرية : فالقديس ، حتى ان كان رسول الوداعة ، يجب ان يقدر على ان يكون قاسياً ، يجب ان يقدر على ان يطلب من تلامذته هذا الشيء الذي يكاد ان يكون فوق انساني وغير انساني ، ألا وهو هجر الاب والام والزوجة والابناء ، في لا مبالاة وعدم اكتراث ، كي يبلغوا الى القداسة . ان حياة كاملة ومنطقية بصورة مطلقة لا يمكن ان تتحقق إلا في الفراغ العاري لفردية منعزلة ، منقطعة كل الانقطاع عن كل رابطة او علاقة مع الغير : وذلك هو السبب في ان درب القديس ، في مختلف العصور ، تقوده الى الصحراء دوماً ، فكأن الصحراء هي المسكن الوحيد والدار الوحيدة اللائقان به . وهكذا فان تولستوي أيضاً ، اذا كان يريد ان يحقق

بالافعال النتائج التصوي لعقيدته ، يتوجب عليه اذن ان يتحرر ليس من روابط الكنيسة والدولة فحسب ، بل ايضاً من تلك الدائرة الأضيّق ، والأحر ، والأثقل ، دائرة العائلة . . . لكن القوي قد اعوزته ، طوال ثلاثين عاماً ، في سبيل تحقيق هذا الفعل من العنف الخالص . لقد هرب مرتين ، ولكنه عاد ادراجه في كائنا المرتين ، لأن مجرد التفكير في ان زوجته التي سيحطمها هذا الفرار القبيحة بأن تنتحر كان يشل فيه كل طاقة متوحشة . انه لا يستطيع ان يحزم امره (وهنا خطيئته الروحية وجماله الاخلاقي في وقت واحد !) على التضحية بكائن انساني واحد في سبيل افكاره المجردة . وهكذا فإنه يتحمل في صبر ، وهو يزجر ، سقفاً جماعية جسدية فقط تنقل عليه وتضطهده ، بالأحرى من ان يثير حنق ابنائه وعضيهم ، ويدفع بزوجه الى الانتحار . انه يستسلم دوماً في القضايا الحاسمة ، كقضيتي وصيته وبيع كتبه مثلاً ، وهو يناضل في بأس طوال الوقت ، وان ظل بالرغم من ذلك اكثر انسانية من ان يجرح شعور عائلته بأفعال يلبها العنف عليه ، ويفضل ان يتعذب شخصياً من ان يجعل الآخرين يتألمون . انه يكتفي ، في ألم شديد ، بأن يكون انساناً ناقصاً ، من ان يكون قديساً صليداً كالصخر الأحمر .

وهكذا فان الخطيئة القائمة في كونه فاتر الحرارة يعوزه الاخلاص تقبّع على عاتقه ، وعلى عاتقه فقط ، في اعين الناس . انه يعرف ان كل صبي صغير يملك الحق بعد الاك في السخرية منه ، وان كل انسان مخلص يملك الحق في الارتباب به ، وان كلاً من انصاره يملك الحق في ادانته ، ولكن مايشكل بالضبط ، اكثر من كل شيء آخر ، صبره العظيم طوال هذه السنوات القائمة ، هو قبوله هذا الاتهام بعدم الاخلاص ، مطبق الشفتين متقلصها ، دون ان يعتذرة واحدة . وانه ليكتب منعلاً ، في عام ١٨٥٨ ، في « مذكراته » هذه الكلمات : « ان مركزي محفوظ امام الناس ، ولعله من

الضروري ان يكون كذلك . وبأخذ شيئاً مشبهاً بالتحرف على المعزى الخاص ،
الذي تتصف به التجربة التي يخضع لها ، ألا وهو ان شهادته المجردة عن الظفر ، ان
طريقته في التألم من الظلم الواقع عليه دون ان يدافع عن نفسه او يعتذر ، تشكل
فعالاً اشد ابلاءً ، واكثر اهمية مما يمكن ان يكون في الشهادة في ساحة عامة من ألم
واهمية . هذه الشهادة الأخرى المسرحية التي طلبها لمصيره طوال سنوات عديدة : لقد
رجوت كثيراً ان اتعذب واتحمل الاضطهاد ، ولكن هذا يعني اني كنت جباناً
وعديداً ، وانني كنت اريد ان اجعل الغير يعمل في مكاني ، بمعنى انه كان يعذبني ،
بينما لا يبقى لي انا سوى ان اتعذب بكل بساطة . ان اكثر البشر فراغ صبر ، ذلك
الذي كان يغطس بكل طيبة خاطر ، وبقفزة واحدة ليس غير ، في جوف العذابات ،
والذي كان يقبل بلذّة فائقة تقريباً ان يحترق على مذبح عقيدته وایمانه ، ليعترف بأن
تجربة اقسى بما لا يقاس قد فرضت عليه ، ألا وهي هذا الاحترق البطيء ، على نار
تضطرم ، وازدراء اولئك الذين لا يعرفونه ، وقلق وجدانه الابدی ، هذا الوجدان
الذي يعرف مع ذلك واقع الأمر وحقيقته .

انه يجبر في كل لحظة على الاعتراف بتردده وتناقضه مع نفسه ، وعلى اذانة
نفسه والاقصاص منها لاهمالها ، واحتقارها لغرورها الخاص ، وان كان يحس في
الوقت ذاته ان هذا القلق ضروري له ، فيكتشف فيه بالضبط - هو الذي ولد
عزيزاً متكبراً - ضعفه وعيبه الخاصين . انه مضطر دون انقطاع الى الاعتراف بانه
عاجز عن إملاء رسالته المثلي ، القائمة في ان يحيا وجوداً امثل ، وانه عاجز عن تحقيق
اكثر رغباته سرية وعمقاً ، الكامنة في ان يعيش حياة مقدسة ومتفقة مع مبادئه .
انه ملزم على الاعتراف ، في سجن لحدوده ، بأنه عاجز عن اكتميل ما يطلبه من
الانسانية جمعاء في حياته الخاصة . وان هذا العذاب الحفي الذي يقرضه باطنياً يجعل

سنوات ليون تولستوي الاخير - اسد. أسى من كل بطولة خارجية ، ومن مناطق عقيدته وتطبيقها الحرفي للذين كانت يمكن ان يحققها في اسلوب حياته ، بحيث تبدو لنا ارادة هذا الاخلاقي الكبير متضاعفة العظمة والتأثير ، بالضبط لأنه لا يرضى ، لا يستطيع ان يرضى مطالبه الاخلاقية الخاصة التي ينادي بها ويبشر .

واجب ان تولستوي ، هذه العبقرية العديدة الرافة الموجهة نحو استكشاف الأنا - وهو افسى على نفسه من أي انسان آخر يقسو عليه - ليذهب في احدى الساعات السرية الى مالا نهاية ، حتى درجة الارتياح في اخلاص ارادته نفسها . ان ما كان خصومه يمسون به في الخفاء احياناً ، الا وهو انه قد اتخذ الدور العاطفي لخلاص العالم ورسول الانسانية العلي ، ليس بروح الاخلاص والامانة ، بل بدافع من الارضاء المسرحي تجاه اناة الخاصة ، بدافع من المجد الباطل والغرور الرديء ، ان هذا الارتياح الرهيب قد صاغه تولستوي ضد نفسه بصورة لا تعرف للرحمة معنى ولا الى الشفقة سبيلاً ، وذلك في ساعة من ساعات الوحدة التي تقوم فيها بفحص روعي لشخصه وانه - ان من يريد ان يعرف حتى اية اعماق قد عذب تولستوي وجدانه كي يبلغ الى الاخلاص الاكمل ، لا يلزمه الا ان يقرأ هذه القصة التي وجدت بين اوراقه بعد وفاته ، والتي تحمل عنوان « الاب سيربيج » . ومثله مثل القدسية نيريزا المدعورة من رواها ، التي تسأل معرفتها في قلبى واضطراب ان كانت هذه البشائر قد ارسلت اليها من قبل الله حقاً ، وليس من قبل تقيض هذا الاخير ، ربما ، الشيطان ، في سبيل امتحان كبرياتها ، هكذا يتساءل تولستوي في قصته هذه إن كانت اصول عقيدته وسلوكه امام البشرية الحية حقاً ، يعني اخلاقية وجيدة ،

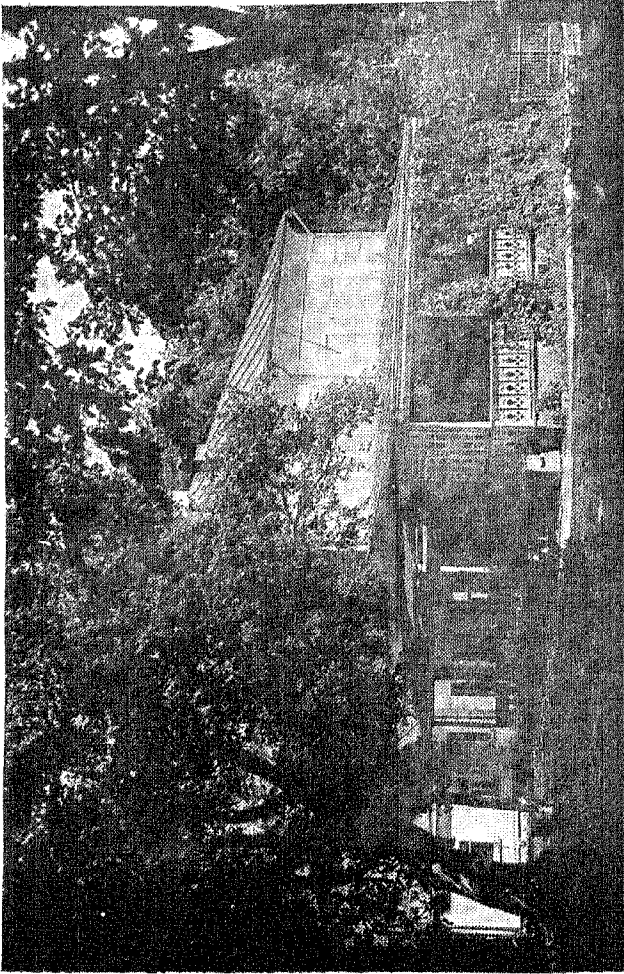
فهي لاتصدر اذن عن شيطان العرور ومحبه المجد والبخور . وانه ليعرف ، في هذا القديس ، تحت ستار شفاف جداً ، مركزه في باسنايا بوليانا : ان التائبين والمعجبين يأتون الى قرب هذا الراهب صانع المعجزات ، مثلما يأتي الى قربيه ، هو تولستوي ، المؤمنون ، والفضوليون ، وحجاج الاعجاب . ولكن هذه الصورة طبق الاصل عن وجدانه لتتساءل ، مثل تولستوي نفسه ، في ملء الضوضاء التي يثيرها انصاره ، ان كان يملك ، هو الذي يحله جميع الناس كقديس كبير ، قلب قديس حقاً ؛ انه يتساءل : « حتى اية درجة اصنع ما اصنعه محبة في الله . وحتى اية درجة اصنعه محبة في الناس فقط ؟ » . ويجيب تولستوي على سؤاله ، بلسان الاب سيرج ، بصورة ساحقة مرهقة :

« كان يحس في اعماق نفسه ان الشيطان قد وضع مكان جهوده الموجهة نحو الله محرراً آخر للسلوك توحى به الرغبة في المجد البشري وحدها ؛ كان يحس ذلك ، لانه مثلما كان يغتبط فيما مضى عندما لا يأتي اخذ يعكر عليه صفو عزله ، فان هذه العزلة قد اصبحت الآن عذاباً مضمياً بالنسبة اليه . كان يحس ان الزائر ينضوون ، وانهم يتعبونه ويهقون قواه ، ولكنه يغتبط في اعماق قلبه ، بالرغم من كل شيء ، اذ يراهم ، ويتهلل عندما يسمع كلمات المديح التي يغمرونه بها . وكان ينقصه دوماً الوقت اللازم لتربيته الروحية وصلواته ، فيخيل اليه احياناً انه اشبه مايكون بكان قد انبثق ينبوع منه ، ينبوع صغير من الماء الحي ، صادر عن احشائه ، متدفق بفضل ، لكن الماء لم يعد يستطيع الآن ان يتجمع عندما يتأخص المارون الغطاشي على ضفافه ويتدافعون بالمتاكيب . لقد داسوا على كل شيء ، فلم يبق بعد الآن الا الطين وحده ... الآن لم يعد في جدره حب ،

ولا نواضع ، ولا تطهارة ايضاً ،

ولقد رفض تولستوي دوماً ، بمثل هذا الثبات ، وبمثل هذه الشدة على نفسه ، ان يصدق ان تأله بصورة قديس امر ممكن : انه لم يعتبر نفسه قط الا كائناً يبحث ويتحسس ، انساناً يجهد بصعوبة عظيمة ، وفي وسط عيوب ونواقص لا حصر لها ، ان يذهب نحو الله . وانه ليتساءل ، في قلق واضطراب عظيمين ، بلسان صرخته : « ولكن أفلم يكن هناك ارادة في خدمة الله ؟ » . وبالرغم من ان الجواب يأتي محطماً كل ابواب القداسة ، في وضوح لا يرحم وشدة لا تلين ، متردداً في هذه الكلمات العنيفة : « بلى ، لقد كانت هذه الارادة موجودة ، ولكن المجد قد افسد كل شيء ودنس . ان الله لا يوجد بالنسبة إلى من عاش ، مثلي ، في سبيل المجد البشري » ، فان بريقاً من الرجاء يرتجف في حياء ، كما في قعر منجم من المنفجرات قد انهدم : « ولكنني اريد ان ابحث عنه » .

« اريد ان ابحث عنه » . ان هذه الكلمات تحوي ازادة تولستوي الاكبر اخلاصاً ، وتضم مصيره الذي ليس هو المشور على الله ، بل البحث عنه ، الذي ليس هو صياغة الجواب الذي تتوق الانسانية اليه ، بل مساعدة هذه الانسانية على طرح اسئلة جديدة ، وعلى اثاره مشاكل جديدة في اخلاص أكثر ، وبصورة اشد قسوة بما فعله اي انسان من قبل . ان تولستوي لم يصبح قديساً ، لم يصبح نبياً . مقتدياً للعالم ، بل انه لم يستطع حتى اعطاء حياته شكلاً واضحاً وشريفاً بصورة تامة ومطلقة : لقد بقي دوماً انساناً مثل الآخرين ، مليئاً بالمعظمة في بعض الأحيان ، ومن ثم ، بعد برهة وجيزة مباشرة ، منكبيناً وغارقاً في الكذب ، انساناً لا يبرأ من الضعف ، والنواقص ، والتناقضات ، والالتباسات ، لكن واعياً



أحد مشاهد بيتنا بولينا : « شجرة الفقراء » إلى اليسر من الصورة

دوماً لا يخطئه في التو واللحظة ، مجرباً في اندفاع لا مثيل له أن يسير
نحو الكمال .

انه لم يك قديساً، لكن ارادة قديسة ؛ لم يك مؤمناً، لكن ايماناً عملاقاً؛
لم يك صورة عن الالهي ، هادئة ، مطمئنة ، ومنطوية على نفسها في كالمال الخاص ،
بل رمز انسانية لن تقف قط في درجها ، لانها لن ترضى او تقنع قط ، فهي ابداً
في نضال دائم، في كل يوم وفي كل ساعة ، كي تبلغ الى شكل اكثر طهارة
ونقاء مما كانت عليه .



يوم من حياة تولستوي

« لست مرتاحاً في عائلتي ، لاني لا استطيع ان اقسام اهلي عواطفهم . ان كل ما يهيجهم ، الامتحانات المدرسية ، والنجاحات الدنيوية ، والمشتريات ، كل هذا اعتبره بؤساً وشرأ بالنسبة اليهم ، ولكني لا استطيع ان اصرح به . وفي الحقيقة اني استطيعه واقمه أيضاً . ولكن احداً لا يفهم كلامي قط . »

تولستوي

« المذكرات »

كيف انصور ، بفضل شهادات اصدقائه واعترافاته الخاصة ،

البلم يوماً من ايام ليون تولستوي ، مأخوذاً من عداد ألف من
الايام المشابهة .

ان النعاس يسيل ، منذ الصباح الباكر ، وريداً وريداً من اجفان الرجل
العجوز ، فيستيقظ ، ويتطلع حواليه : ان ضياء الفجريات منذ الآن زجاج النوافذ...
ان النهار يبدأ . وينبثق التفكير من الاعماق المظلمة ، فاذا الشعور الاول الذي
ينتابه هو شعور دهشة سعيدة : « اني ما برحت احيا » . لقد تمدد في العشية ، مثلما
يفعل في سائر الليالي على الاطلاق ، في تواضع استسلام مطلق يقبل عدم النهوض في
الصباح ، فخطوة اخرى في « مذكراته » ، تحت نور المصباح المتأرجح ، هذه
الاحرف الى جانب تاريخ الغداة : ا . ب . ح . (اذا بقيت حياً) . يا عجباً ،
ان هبة الوجود قد منحت له مرة اخرى : انه يعيش ، انه يتنفس ، انه في صحة
جيدة ! انه يستنشق ، مثل تحية مرسله من الله ، الهواء والنور ملء رثيبه ، وبكل
نهم عينيه الرماديتين ! يا عجباً ، انه مازال يحيا ، انه ما برح في
صحة جيدة !

ويهنض الرجل العجوز ، وهو يطفح امتناناً ، ويتجرد من ثيابه جميعاً ، فيلون
تدفق الماء المتجلد بالحرارة الصحية جسده المتين دوماً : ويروح يطوي قامته ويقومها ،
في فرحة الرياضي المحترف حتى تثن الرئتان ، وتطططق المفاصل ، ومن ثم يرتدي
قميصه ورداءه المنزلي ؛ ويلف بها جلده المفروك حتى الاحمرار ، ثم يقنع النوافذ
بعد ذلك ، ويكنس غرفته بنفسه ، ويرمي في النار بقطع الخشب التي تصرخ في
اللييب وتطططق في حيوية . . . هكذا يجدم نفسه ، دوث معونة
احد قط .

ومن ثم يهبط كي يتناول إهطاره ، حيث تنتظره صوفيا أندرييفنا ، وبناته ، وامين سره ، وبعض الاصدقاء . ان الشاي يغني في الساور ، وامين سره يحمل اليه ، في صينية خاذة ، الكوم المتنوع للرسائل ، والمجلات ، والكتب الواردة اليه ، والمزينة بطوايع صادرة عن زوايا العالم الاربع . وينظر تولستوي في استياء شديد الى هذا البرج من الورق ، ويفكر في صمت :

- تلتق وإضجار ، وإفلاق راحة على اية حال . يجب ان يكون المرء اكثر وحدة مع نفسه ومع الله ، وألا يلعب دوماً بسرة الكون . يجب ان يبعد عنه كل ما يدفعه الى الاضطراب والشروء ، كل ما يدفعه الى التكبر ، والغرور ، والانسياق وراء المجد الزائف وعدم الاخلاص . يفضل ان ارمي بكل هذه الاشياء في المدفأة ، كيلا يعثر نفسي وادخل اليها خطيئة الكبرياء .

ولكن الفضول يتغلب عليه ، فيذبش بأصابعه سريعة اللمس هذه الكومة المضطربة من التوسلات ، والاتهامات ، وطلبات الصدقة ، واقتراحات الاعمال ، واعلانات الزيارة ، والتراثات المضطربة الفارغة . هذا براهما في يكتب من الهند انه قد فهم بوذا بصورة سيئة ، وهذا مجرم حكم عليه بالاشغال الشاقة يروي قصة حياته ويسأل النصح ، وهؤلاء فتيان يتوجهون اليه في مشاكلهم ، وشجاذون يلتفتون اليه في بؤسهم ، والجميع يستديرون نحوه في تواضع على اعتباره - حسبما يقولون - الانسان الوحيد الذي يستطيع ان يساعدهم ، على اعتباره وجدان هذا العالم بأسره . وتحفر غصون جبينه اشد عمقاً منها قبل لحظات .

ويتساءل :

- من استطيع ان امد له يد المعونة ، انا الذي لا أعرف كيف امد يد المعونة لنفسي ؟ إني أتبه من يوم لآخر ، وأفأش عن معنى جديد كي التحمل هذه الحياة التي

لايسبر غورها ، واتحدث في خيلاء عن الحقيقة كي اوهم نفسي واضلها . فأني عجب
اذن ان جاء سائر هؤلاء القوم وراحوا يهتفون : « باليون نيقرولايفيتش ، علمنا
الحياة !؟ ان ماأصنعه ليس إلا كذباً ، وادعاء ، وبهلوانية . وفي الحقيقة اني تمعت
منذ فترة طويلة ، لاني ابدل نفسي وابعثتها في ألوف وألوف من البشر ، بدلاً من
ان أنطوي على ذاتي ، لاني اتكلم ، واتكلم ، واتكلم ، بدلاً من ان اعتمم بالصمت
وأصغي في سكون الى صوت الحقيقة الداخلي . ولكنني لأستطيع ان اخيب رجاء
البشر في ثقتهم يجب ان اجيهم .

ويمسك برسالة فترة أطول من بقية الرسائل ، ويقرؤها مرتين ، بله ثلاث
مرات : انها واردة من طالب يمينه بصورة حانقة لأنه يبشر باستعمال الماء ، وهو
نفسه يشرب النبيذ دوماً . لقد حان الوقت اخيراً كي يغادر بيته ، ويعطي خيرات
للفلاحين ، ويصبح تائماً في طرقات الله الواسعة .

ويفكر تولستوي :

- انه على حق . انه يتحدث مثل وجداني ، ولكن كيف افسر مالا أستطيع
ان أفسره لنفسي ؟ كيف اذافع عن نفسي ، مادام مهاجمي ويتمني بنفس اسمي ؟
ويتناول الرسالة وينهض نحو غرفة عمله كي يجيب عليها في التو واللحظة ،
فيتقدم اليه امين سره قرب الباب ، ويذكره ان مراسلة التاميس ، سيحضر عند الظهيرة
من اجل المناقشة : هل يجب استقباله ؟ . . ويظلم محيا تولستوي :

- دوماً هذه المناقشات ؟ ما عسام يريدون مني ؟ انث يلقوا فقط على وجودي
نظرات البلهاء . ان كل ، الذي من الاقوال ، وجود في كتاباتي ، وسائر من يعرفون
القراءة يستطيعون ان يفهموها .

ولكن بعض الضعف الجبول من الغرور سريعاً ما يجعله ، بالرغم من كل شيء ،
على الموافقة والرضوخ .

ويقول :

- فليكن ! ولكن سأمنحه نصف ساعة فقط .

ولا يكاد يجتاز عتبة غرفة العمل ، حتى يروح ضميره يزجر :

- لم رضخت مرة أخرى ؟ اني انصرف دوماً ، وقد شاب شعري واصبحت
على قاب قوسين او ادنى من الموت ، كمغرور متباهٍ ، واستسلم الى اثرثة البشر
البلهاء . اني اضعف دوماً ، كلما طلبوا مني شيئاً بصورة متملقة . متى اتعلم أخيراً ان
اختبئ ، ان اصمت ؟ ساعدني يارب ، ساعدني اذن .

هذا هو ، أخيراً ، وحيد مع نفسه في غرفة عمله . ان منجلاً ، ومجرفة ،
وفاسا ، قد علقت جميعاً على الجدران العارية ، بينما ثبت كرسي ضخم في الأرض
اللامعة كثيراً امام المائدة العارية ، أشبه بالأرومة منه بالمقعد . تلك غرفة نصف
رهبانية ، نصف فلاحية . ان عمل البارحة ، ولما ينته بعد ، ما يروح مستريحاً على
المائدة : « افكار عن الحياة » . انه يعيد قراءة نفس كلماته ، ويمحو منها شيئاً ، ويبدل
شيئاً ، ويكتب شيئاً جديداً . ان خطه ما يزال دوماً سريعاً ، كبيراً جداً مثل خط
ولد صغير . وسرعان ما يتوقف عن الكتابة :

- اني سطحي كثيراً ، متسرع جداً . كيف استطيع ان اتحدث عن الله
مادامت مفاهيمي في هذا الشأن لم تتضح بعد ، مادمت انا نفسي لأملك اليقين حتى
الآن ، وما دامت افكاري تترنح من لآخر ؟ كيف استطيع ان اكون دقيقاً
ومفهومياً من سائر البشر عندما اتحدث عن الله ، الذي لا يمكن التعبير عنه ، وعن

الحياة التي تظل على الدوام بمنعمة عن الإدراك؟ ان ما أقدم عليه هنا ليمتجاوز قواي .
 ياربي ، كم كنت اسير ، فيما مضى ، بثبات و يقين عندما كنت اكتب مؤلفات ادبية ،
 واقدم الى البشر الحياة كما جعلها الله امام اعيننا ، وليس كما ارغب انا ، الرجل
 العجوز المضطرب الفلق ، ان تكون في الواقع ! انا لست بالقديس ، كلا .. انالست
 قديساً ، ويجب علي ألا أعلم البشر . . . انا لست الا رجلاً قد وهبه الله ، كي يرى
 الكون الذي خلقه ، عينين اكثر استنارة ، وحواساً افضل بما وهبه لآلاف من
 الآخرين . ولربما كنت يومئذ ، عندما كنت لأفعل سوى خدمة الفن ، أصدق
 وأفضل مني الآن حين ألعن ذلك الفن بصورة غير معقولة .

ويتوقف ، ويتطلع فيما حوله بالرغم منه ، فكان احداً يتجسس عليه ، ومن
 ثم يغدو الى درج سرري ويتناول منه الروايات التي يعمل فيها حالياً في الحفاء (لأنه
 قد احتقر الفن علناً وأذله ، على اعتباره « تفاهة » و « خطيئة ») . هذان هما المؤلفان
 المكتوبان سرراً والمختآن عن عيون الناس : « حجي مراد » و « الورقة المفقودة . . » .
 انه يتصفحها ، ويقرأ بعض صفحاتها ، فتشرق عينه من جديد :

ويشعر في صميم نفسه :

- بلى ، ان هذا لمكتوب جيداً . ان هذا لجيد ! ان الله قد دعاني كي اصف
 عالمه فقط ، وليس كي اخمن افكاره . ما أروع الفن ، وما أشد طهارة الابداع الفني ،
 وما اكثر ايلام الفكر الفلسفي ! ما أشد ما كانت سعادي يومئذ ، عندما كنت
 اكتب هذه الاوراق ! كنت انا نفسي اذرف الدموع عندما كنت اصف الصباح
 الربيعي في « السعادة الزوجية » ، بله ان صوفيا أندريغنا كانت تأتي الي ، حتى في
 الليل ، متأثرة العينين وتقبلني .. وبيننا كانت تنسخ كتاباتي ، كانت فحس نفسها
 مجبرة على التوقف عن ذلك كي تشكرني ، وكنا نقضي الليل بطوله سعيدين هائنين .
 كنا نقضي العمر بأسره . ولكني الآن لا أستطيع ابداً ان اعود التهقيرى . ليس يحق

لي ان اخدع الناس واخيب رجاءهم ، بل لا بد لي من الاستمرار في التقدم في
الدرج التي بدأنا ، لان البشر يأملون مني ، في بؤس نفوسهم ، المساعدة والمعونة .
يجب علي ألا اتوقف ، لأن ابامي قد اصيبت معدودة .

ويصعدنهدة عميقة ، ومن ثم يعيد الاوراق الى مكانها من الدرج السري ،
ويتابع الكتابة في ابحاثه الفلسفية مثل كاتب ماجور ، أخرس ، سيماء المزاج ، وقد
احترفت العضون جبينه ، وانخفضت ذقنه كثيراً حتى ان لحيته البيضاء تروح ، هي
الاخرى ، تحك الورق مثل ريشته ، مثيرة تلك الضوضاء التي تصدر عادة عن
الاشياء التي تتجمع .

هذه الظهيرة أخيراً ! كفى عملاً هذا النهار ! انه يرمي الريشة بعيداً عنه ،
وينفض بقفزة واحدة ، ويبسط السلم بخطواته القصيرة الخفيفة وهو يدوم في رشفة
اثناء ذلك . ان السائس يسك « دليز » ، فرسه المفضلة ، جاهزة مهيأة للركوب ،
فيعتلي تولستوي السرج بقفزة واحدة ، فاذا الغامة التي كانت منحنية اثناء الكتابة
تلتصّب منذ الآن ، فيبدو صاحبها اكبر منه قبلاً ، وأقوى ، واكثر حيوية ، بينما
هو يندفع نحو الغابة ، مستقيم العود ، رشيقاً حراً مثل فوزاتي فتى على صهوة الحصان
ذي الحوافر الضيقة . وتموج لحيته البيضاء ، وتسبح في الريح ، وهو يفتح شفّته
واسعتين في لذة فائقة ، كي يتلذذ الى باطنه ذفرة الحقول حتى اقصى درجة ممكنة ،
وكي يحس الحياة ، الحياة الحية ، في جسده الذي يشيخ ، فاذا لذة الدماء التي تزغرت
تجر بحرارة وعذوبة في اورده حتى اطراف اصابعه ، وحتى فوقه اذنه الصماء .

وفي اللحظة التي يهم فيها بدخول الغابة الثنية ، يتوقف بغتة كي يرى ، كي يرى
مرة اخرى كيف تفتحت الاررار الدبقة من جديد ، تحت نأثير شمس التجدد ،
وراحت ترفع نحو السماء اخضراراً دقيقاً مرتجفاً ، ناعماً مثل تطريز رائع جميل .
ويحث الحصان ، بضغط عنيف من فخذيه ، صوب اشجار السندر ، وعمياه الحادتان

كعيني العقاب تلاحظان في انفعال عظيم كيف ينزله النبل على الاجاء ، الواحدة منه في اثر الاخرى ، سالكاً الاتجاهين معاً ، مشكلاً مسبحة مجهرية فائقة البهاء ، وبعض افراذه محمولون منذ الاكن بطنن ضخيم ، بينما الآخرون يحاولون ان يمسكوا طحين الشجرة بفكوكهم الصغيرة الحيطية . ويظل هناك البطريرك الاشيب طوال بضعة دقائق ، جامداً في اعجاب ، يتطلع الى هذا المشهد العظيم في صفرة ، ودعوع حارة تسيل مداراة في لحيته .

مائشدروعتها ، هذه المرآة الالهية عن الطبيعة ، التي تحوي دوماً ، منذسبعين عاماً ، عجائب جديدة ، الحرساء والبليغة في وقت واحد ، الطافحة ابدياً بالصور ، النابضة بالحياة دوماً ، والاكثر حكمة في صحتها من سائر الافكار ومختلف الاسئلة ! وتنفخ الفرس تحتها وقد فرغ صبرها ، فيستيقظ تولستوي من تأمله العميق ، ويضع عطفه الفرس بشدة بين ركبتيه كي يحس منذ الآن ، في صفير الريح ، ليس الاشياء الصغيرة الدقيقة فحسب ، بل حميا الحواس الالهية وهواها الجامح أيضاً . ويجب ، ويجب ، سعيداً مجرداً عن كل فكرة ، ويمتاز هكذا عشرين فرسخاً ، حتي يغطي عرق لامع عطفه الفرس بزبد ابيض ، وعندئذ يوجهها نحو الدار في عدو هادىء . ان عينيه نور بكاملهما ، ونفسه قد ارتاحت وانسجنت ، وهو سعيد طروب مثله يوم كان يمر خلال هذه الغابات ، وهو مابرح طفلاً بعد ، في هذه الدرب ذاتها المألوفة لديه منذ سبعين عاماً ، هو الذي اصبح الآن عجوزاً ، اصبح انساناً عجوزاً جداً .

ولكن محياه المشرق يظلم على حين غرة عندما يشارف على القرية . ان عينه العارفة قد تفحصت الحقول : ههنا ، في قلب اراضيه ، بقعة من الارض مهمة لم يحسن الاعتناء بها ، قد تعفن سياجها وزال نصفه وتلاشى كي يشعل ناراً بكل تأكيد ، بينما التربة قد ظلت دون حراثة على الاطلاق . ويمتاحة الحنق ، فيتقدم على جواده

يسأل ايضاحا ، فتخرج اليه من الباب امرأة مشجرة الوجه ، عارية القدمين ، شعنا الشعر ، منخفضة النظر ، قد تعلق بثوبها الممزق طفلان او ثلاثة اطفال نصف عراة يتملكهم ذعر شديد ، وطفل رابع يصرخ ايضاً فيها وراةها ، في داخل الكوخ الواطىء الداخن ويسأل ، مرتفع الحاجبين ، السبب في هذا الهمال ، فتبكي المرأة كلمات لاتتابع فيها : ان زوجها في السجن منذ ستة اسابيع ، وقد اعتقل لأنه سرق حطباً . كيف تستطيع ان تعني بالارض من دونه ، هو الرجل القوي الدؤوب على العمل ؟ أما هو فلم يسرق الحطب الا عندما دفعه الجوع الى ذلك وأرغمه عليه . ان سيدي الكونت يعرف هو نفسه معنى الرسم السيء ، وارتفاع الضرائب ، وأجرة الارض بالاضافة . وعندما يرى الاطفال الى اهمهم تبكي ، يأخذون هم الآخرون بالصباح ، فيمد نولستوي يده سريعاً الى جيبه ، ويناول المرأة قطعة من الفضة كي يضع حداً لكل ايضاح لاحق ، ومن ثم يولي الادبار بأقصى سرعة بمكنة فكأنه هارب من السجن . لقد اظلم بحياه ، وتلاشت فرحته .

- هذا اذن مايجري على ارضي - كلا ، بل على الارض التي أعطيتها لزوجتي وابنائى . ولكن لماذا انخفي دوماً ذنبي وخطيئتي وراء زوجتي ؟ ان نقل املاكى اليهم لم يكن الامهلة مثلت في سبيل خدع العالم ، ولم يكن شيئاً آخر قط ، اذ مثلما تغذيت انا بعناء الفلاحين ، فان اهلي يمتصون الان اموالهم ويتركونهم في مثل هذا البؤس الشديد . انى اعرف ذلك حق المعرفة : ان كل آجرة استعملت في بناء المسكن الذي اظن فيه قد صنعت بعرق هؤلاء العبيد . . . انها جسدهم وتعبهم مجبولين . كيف امكن ان اعطي زوجتي واولادى ما لا يحضني ، ارض هؤلاء الفلاحين التي يحرثونها ويستثمرونها ؟ يجب ان انجبل امام الذي ابشر باسه . انى ابشر ، انالىون تولستوي ، بالعدالة ، بينا انفرج يومياً ، من نافذتي ، على مشهد بؤس الاخرين وشقايمهم .

لقد اصبح بحياه غضباً بأمره ، وازداد ظلمة اكثر فأكثر عندما دخل ، بعد ان مر امام الأعمدة الحجرية ، الى حصن الدار الفضة ، فاندفع الخادم في لباسه الرسمي والسائس الذي ينتظر عودته ، وخرجا من الباب بسرعة عظيمة كي يساعدها على النزول عن صهوة جواده . ويهتف حائفاً في وليجة نفسه ، وقد اجتاحه ذل عظيم يدفعه الى اتهام نفسه : « عبيدي » .

ان المائدة الطويلة تنتظره منذ الآن في قاعة الطعام ، وقد ازدهرت بالبياض الناصع واكتست بالاووية الفضية المتألثة . ههنا توجد زوجته ، وبناته ، وابناؤه ، وامين سره ، والطبيب الخاص ، والقناة الفرنسية ، والقناة الانكليزية ، وبعض الجيران ، وطالب ثوري ينهض بأعباء وظيفة المدرس ، ومن ثم الصحافي الانكليزي : ان هذا الخليط البشري يغلي في فرخ واعتباط عظيمين في اضطرابه وتراكمه النامضين . ولكن الضوضاء تنقطع عندما يدخل على حين غرة ، دلالة على الاحترام والاجلال ، فيحيي تولستوي الضيوف في رزاة وادب نبيل ، ومن ثم يجلس الى المائدة دون ان يتفوه بكلمة واحدة . وعندما يقدم له الات الخادم الذي يرتدي لباساً رسمياً اطعمته المنتخبة من النباتات فقط (هليون مستورد من الخارج ومهيس ، على ادق صورة وأذها) ، فانه يفكر بالرغم منه في المرأة المهلهلة الثياب ، في الفلاحة التي اعطاها عشر كوبيكات . هذا هو يجلس هناك ، قائم الوجه ، وهو يسبر اغوار نفسه :

- لو يفهمون اخيراً اني لا استطيع ولا اريد ان اعيش هكذا ، محاطاً بالخدم ، وغداي الذي يتشكل من اربع اصناف يقدم الي في اوعيته من الفضة ، غارقاً في مختلف انواع التفاهات ، بينما الاخرون لا يجدون حتى اشد ما يحتاجون اليه ضرورة ! ولهم ليحرفون جميعاً مع ذلك اني لا اسألهم سوى هذه التضحية ، هذه التضحية الوحيدة ، ان يتنازلوا عن هذه الأبهة ، هذه الخطيئة ضد المساواة التي يريدنا الله ان نحكم بين الناس جميعاً بالعدل والقسطاط . ولكن هذه زوجتي التي يجب ان تقاسمني

أفكاري مثلما تقاسمني فراشي وحياتي ، تنتصب أمامي عدوة لأفكاري . إنها تتعلق بعنقي مثل رحي الطاحون ، إنها ثقل يئد على وجداني ، ويجرني الى حياة مغلوطة كاذبة . كان يجب ان اقطع الربط التي يقيدونني بها منذ زمن طويل . ماعلاقي بهم بعد الان ؟ انهم يعكرون صفو حياتي ، وانا اصنع الامر نفسه بجياتهم ايضاً . اني زائد ههنا . أثقل على نفسي وعلى سائر الناس .

ويدير عيني غضبه بالرغم منه ، حانقاً ، ويتطلع اليها ، هي صوفيا أندريفنا ، زوجته . ياإلهي ، لشدما شاخت ولشدما ابيضت ! ان الغضون تحفر جبينها ، هي الاخرى ، وان الحزن قد لوى فيها الهرم ، هي الاخرى ايضاً . واذا دوجة من الروداعة تملأ بعثة قلب الرجل .

انه يفكر :

— بالمهي . كم هي قائمة ، ولشدما تبدو كشيبة ، هي التي ادخلتها الى حياة فتاة ضاحكة بريئة ! لقد مضى حتى الان عمر رجل كامل ، اربعون او خمس واربعون سنة ونحن نعيش معاً ! لقد اخذتها فتاة صبية ، انا الذي كنت يومذاك رجلاً نصف مهترى ، ولقد منحني ثلاثة عشر سلبلا ، وساعدتني في تأليف كتيبي ، وارضعت ابنائي . وانا ، ماذا فعلت منها ؟ امرأة يائسة ، تكاد ان تكون مجنونة ، مرهفة الاعصاب دوماً ، يجب ان نخفي عنها المخدرات كي لا تنتزع حياتها بنفسها ، لشدة ماجعلتها شقية تاعسة ! اما ابنائي ، فاني اعرف انهم لايجبوني . اما بناتي ، اللاتي يقعدن ههنا الان ، فقد قرضت شباهن قرضاً . بينا اماناء سري يقيدون كل كلمة ألقظها ، وينقرون كل مااقوله مثلما تنقر العصافير الدورية روث الجياد . وهم قد هياؤا منذ الان ، في علبة خاصة ، المراهم والدهون اللازمة كي يحتفظوا بوميائي في متحف الانسانية . وهذا الابله الانكليزي ايضاً ينتظر ، ودفتره في يده ، ان اوضح له « الحياة » . خطيئة ضد الله وضد الحقيقة ، ذلك هو واقع هذه المائدة ، وهذه الدار

المليئة بالاسرار المقيمة ، والمجردة عن كل طهارة . وانا ابقى جالساً بالرغم من ذلك في هذا الجو ، اجد نفسي دافئاً مرتاحاً ، بدلاً من ان افترس الى الخارج وانطلق في حال سيئ . كان يفضل بالنسبة الي ، كان يفضل بالنسبة اليهم ، لو اني كنت ميتاً . اني اعيش طويلاً ، ولا اعيش كفاية في الحقيقة ، لقد حانت ساعتى منذ زمن طويل في الحقيقة .

ويقدم الخادم له اطعمة اخرى ، وثمراً محلاة ، محاطة بزبد حليبي ، ومبردة بالجليد . ولكنه يدفع الصحن الفضي بحركة حائقة من يده .

وتسأل صوفيا أندرييفنا - مالشد سذاجتها ! - في قلق :

- أليس الطعام جيداً ، أهو ثقيل جداً بالنسبة اليك ؟

ولكن تولستوي يكتبني بأن يجب في مرارة :

- ان ما هو ثقيل بالضبط بالنسبة الي ، هو كونه جيداً جداً .

ويتطلع الابناء اليه ، متعاطفين ، وتتنظر المرأة صوبه في دهشة ، ويستدير الصحفي بناظره نحوه في جهد : ان المرء يستطيع ان يرى انه يحاول حفظ هذه الحكمة .

وينتهي الغداء أخيراً ، فينهض الجميع ويدلفون الى قاعة الجلوس ، حيث يدخل تولستوي في نقاش حامي مع الثوروي الفتي الذي يرد عليه ، بالرغم من كل احترامه ، في جرأة وحمية . ان عين تولستوي ترسل بروقاً حادة ، وهو يتحدث في عنف بكلمات سريعة متلاحقة ، بل يكاد ان يصرخ صراخاً ، فالمناقشة ما برحت حتى الان تطبق عليه في هوى لا يمكن ترويضه او اخضاعه مثلما كان الصيد والتنس يفعلان به في غابر الزمان . ولكنه يضبط نفسه ، بغتة ، في الجرم المشهود نهياً ، للهباج والخلق ، فيجبر نفسه على التواضع ، ويخفف من حدة صوته ، في جهد ، وهو يقول :

- ولكن لعلي اخطىء فيما اذهب اليه . ان الله قد بعث افكاره بين الناس ،

وليس انسان يدري ان كان ما يعبر عنه هو الافكار الالهية لم افكاره الخاصة ليس غير .

وكي يبدل الموضوع ، يتوجه الى الاخرين بهذه الدعوة :
— فلنخرج الى الباحة في زهة قصيرة .

ولكن لا بد من وقفة قصيرة قبلاً : ان الزائرين من الطبقات الشعبية ، المستعطين
والمتشيعين ، هؤلاء « المظالمين » جميعاً ينتظرون تولستوي تحت شجرة الدردار
العتيقة جداً ، مقابل عتبة الدار عند « شجرة الفقراء » الشهيرة . لقد جاؤوا عن
بعد عشرين فرسغماً يحجون الى دار المعلم ، كي يسألوا نصيحة او يطلبوا قليلاً من
المال ، وهؤلاء هم وقوفاً هناك ، تحرقهم الشمس الالهية ، ويهتهم التعب والاعياء
الشديدان ، وقد اغبرت احذيتهم حتى اصبحت بيضاوية اللون .

وعندما يتقدم « السيد » ، « الاقطاعي » ، منهم ، ينحني بعضهم حتى الارض على
الطريقة الروسية ، بينما يذهب تولستوي اليهم بخطى سريعة متأرجحة :

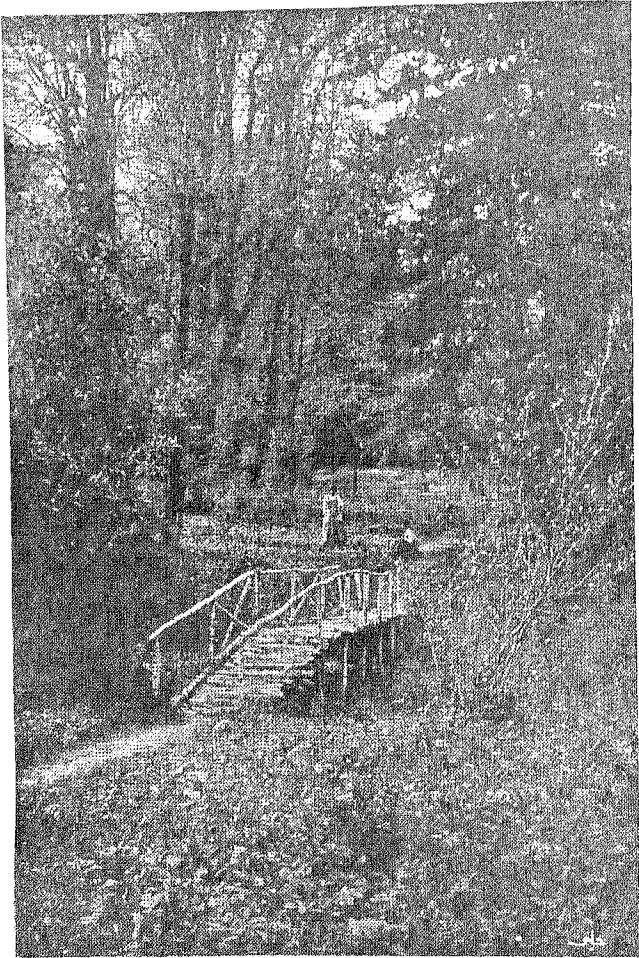
— ألدكم طلبات تقدمونها ؟

— اني اود ، ياسيدي . . .

فيقول تولستوي معنفاً :

— انا لست « ياسيدي » . ليس احد « ياسيدي » سوى الله .

ويروح الفلاح الصغير يقتل في فرق طاقيته بين يديه ، وأخيراً يتم ببعض
الاسئلة المضطربة المرتبكة ، يريد ان يعرف ما اذا كانت الارض ستصبح الان حقاً
ملكاً للفلاحين ، ومتى سينال هو حصته منها . ويرد تولستوي عليه في صبر فارغ ،
اذ ان كل نموض يثيره ويبعث الحنق في نفسه ، ومن ثم يلتفت الى غفير العابة الذي
يطرح عليه اسئلة عديدة تتعلق بالله ، فيسأله تولستوي ان كان يجيد القراءة ، فيجيبه
الاخر بالاجاب ، وعندئذ يرسل في طلب المؤلف الذي عنوانه : « ماذا يجب ان



احمر مساهر ياسنایا برلیمانا

نعمل ؟؟ و يصرف الرجل به . و حينئذ يقترّب بعض المستعطين الواحد في إثر الآخر ،
فيصرفهم تولستوي بسرعة ، و قد فرغ صبره منذ الآن ، و هو يعطي كلامهم خمس
كوبيكات . و اذ يلتفت ، يلاحظ ان الصحفي قد التقط صورته و هو يقوم بالصدقة
على هذا المنوال ، فيظلم حياه من جديد .

- هكذا يملونني ، انا تولستوي ، الكريم ، قرب الفلاحين ، انا الرجل المحسن ،
الانسان النبيل الذي امد يد المعونة الى الجميع ! ولكن لو انهم كانوا يستطيعون ان
يروا الى داخل قلبي لعرفوا اني لم اكن قط طبيباً ، و اني قد حاولت فقط ان اصح
كذلك . ان انامي هي الشيء الوحيد الذي شغلني بصورة فعلية ، و انا لم اكن محسناً في
يوم من الايام ، لأنني لم اعط الفقراء طوال حياتي نصف ما كنت اخسره فيما مضى ،
في موسكو ، في ليلة واحدة في لعب الورق . ابدأ لم يخطر لي على بال ان ارسل الى
دستوبفسكي ، الذي يشكو الجوع فيما اعلم ، المائتي روبلا التي كانت تنقذه شهراً كاملاً
وربما تنقذه الى مدى الحياة . ومع ذلك فاني اسمح بأن يجذبي الناس وان يجيوني
كأنبل البشر على الاطلاق ، بينما اعلم حق العلم اني ما برحت حتى الان
في بداية البداية !

انه في عجلة من امره ، يريد ان يقوم بنزهة في الحديقة ، فهو - هذا الشيخ
الصغير الرشيق ذو اللحية المنموجة - يركض في فراغ صبر عظيم حتى ان الآخرين
لا يستطيعون اللحاق به الا بصعوبة عظيمة . كلا ، لم تعد القضية بعد الان تقوم في
الاكثار من الحديث . بل كل ما يريد هو ان يحس عضلاته بكل بساطة ، و ان
يشعر بمرونة اوتاره ، و ان يلقي نظرة على بنساته اللواتي يلعبن التنس ، نظرة على
براءة اللعب الحكيم و رشاقتة . انه يلاحق كل حركة باهتمام فائق و يضحك فخوراً

لدى كل ضربة ناجحة ، ومن ثم يتابع طريقه - وقد أرتاحت حواسه واغتبطت -
عبر الطحلب ذي العيبق اللذيذ . ولكنه يعود بعد ذلك الى غرفة عمله يقرأ قليلا ،
ويرتاح قليلا : انه يحس في بعض الاحايين تعباً شديداً ، ويشعر بان ساقبيه ثقيلتان
جداً . وبينما هو يضطجع هكذا وحيداً على الديوان المشمع الجلد ، مغلق العينين ،
يحس التعب والشيخوخة ، يروح يفكر في سكون :

- ومع ذلك فإن الامور تسير على مايرام : اين هي تلك الفترة ، تلك الفترة
الرهيبه التي كنت ارهب الموت فيها ، مثلما ارهب شجاً مفزعاً ؟ اين هي الفترة التي
كنت اريد فيها ان اختبأ من وجه الموت وان انكر نفسي ؟ اما الآن ، أما الآن
فليس بي ادنى خشية على الاطلاق ؛ بل اني لأشعر بالارتياح قرب الموت ايضاً .

وينهض ، وتروح افكاره تنتقل في السكون . ويخط في بعض الاجايين كلمة
سريعه بالقلم ، ومن ثم يتطلع طويلا وفي جد عظيم الى الامام منه . وانه لجليل عندئذ ،
حميا الرجل العجوز المتعب الذي يرين عليه التأمل والحلم ، وهو وحيد مع نفسه ومع
افكاره .

ويهبط مساء الى حلقة الحديث مرة اخرى : بلى ، ان العمل قد تحقق . ويسأل
الصديق غولدينوزر ، العازف على البيان ، ان كان يستطيع ان يعزف شيئاً ما .

- بكل طيبة خاطر ، بكل طيبة خاطر .

ويستند تولستوي الى البيان ، ويدها تحيان على وجهه كي لا يرى احد كيف
يحتاجه سحر الاصوات المتناسقة . انه يرهف سمعه ، مغلق الجفنين ، وهو يأخذ
انفاساً عميقة جداً . يا عجباً ، ان الموسيقى التي طالما هاجمها بعنف شديد لتعني في
اذنيه بصورة مدهشة ، توقظ فيه كل ما في قلبه من حنان وعطف : انها تعيد الي
نفسه ، بعد سائر تلك الافكار الصارمة الناسية ، الوداعة والطيبة جميعاً .

ويفكر في وليجة نفسه في سكون :

- كيف امكنتي ان اهين الفن واحترمه ؟ اين يمكن ان يجد المرء العزاء الا في الفن ؟ ان كل فكر يثقل على الروح ، وكل علم يعكر صفوها ويبعث الاضطراب فيها ، فأين نستطيع ان نحس بكل وضوح حضور الله ان لم يكن في صورة الفنان وكلمته ؟ إيه يا بيتهوفن ويا شوبان ، انكما اخواني ! اني اشعر بنظر انكما تراح في " كليباً الآن ، وان قلب الانسانية ينبض في قلبي . اصفحا عني ، يا أخوي ، لأنني اسأت اليكما .

وتنتهي الموسيقى بمقطع رنان ، فيصفق الجميع ، وكذلك يفعل تولستوي بعد تردد قصير : لقد شفي كل قلق كان يثقل عليه . وينضم الى الجماعة المتأصلة هناك وعلى شفثيه ابتسامة عذبة ، ويتمتع بمذاق الحديث . واخيراً فإن شيئاً كالنبطية والسكون يسبح فيما حوله : ل يبدو ان اليوم ذا المظاهر المتعددة قد انتهى .

ولكنه يذهب مرة اخرى ، قبل ان يسعى الى فراشه ، الى غرفة عمله . ان تولستوي سيقاضي نفسه مرة اخرى قبل ان ينتهي النهار ، وسيحاسب نفسه ، مثله دوماً ، عن كل ساعة كما سيحاسبها عن حياته بكاملها . ويفتح « مذكراته » : ان هذه الاوراق البيض لأشبه ما يكون بهين الوجدان التي تراقبه . ويفكر تولستوي في كل ساعة من النهار المنصرم ويحكم عليها . انه يفكر في الفلاحين ، وفي البؤس الذي هو سببه ، والذي مر من امامه حينما خلال زهته على صهوة فرسه دون ان يقدم اليه اية معونة ، اللهم الا تلك القطعة الصغيرة من المال . ويتذكر انه كاتب فارغ الصبر مع المستعطين ، وان افكاراً فاسية وخبيثة قد راودته فيما يخص زوجته ، انه يسجل سائر الخطايا في كتابه ، كتاب الاتهام ، ويخط بقلمه حائق هذا الحكم :

« لقد كنت متوانياً مرة أخرى ، وكانت نفسي جبانة وعديدة . اني لم اصنع ما يكفي من الخير ، ولم اتعلم بعد ، كي احقق الفعل الصعب ، كيف احب البشر الذين هم حولي ، بدلاً من احب الانسانية .. مد لي يد المعونة بالهي ، مد لي يد المعونة » .

ومن ثم تاريخ الغداة ، وتلك الاحرف الغامضة السرية : « ا . ب . ح . » (اذا بقيت حياً) . لقد تم انجاز العمل الآن وهذا يوم آخر قد انتهى ، فهو يغدو - الرجل العجوز - ، وقد تخنى كنفاه ، الى العرفة المجاورة ، ويخلع قميصه وحذائيه الثقيلين ويمدد جسده ، جسده الثقيل ، في الفراش ويروح يفكر ، مثله دوماً ، في الموت اولاً . ان الافكار ، هذه الفراشات الملوثة ، تحوم مرة أخرى في اضطراب فوقه ولكنها تأخذ بالاضياح شيئاً فشيئاً كاتضع الفراشات في الغابة التي تزداد ظلمتها اكثر فاكثر باستمرار . لقد أخذ النوم يافه بظله القريب ...

ولكن هذا هو ينتفض ذعراً على حين غرة . أفلم يسمع لتوة صدى خطوات ؟ ... بلى ، ان شخصاً ما يسير في العرفة المجاورة ، غرفة عمله ، بهدوء وخطى سريعة . وسرعان ما يقفز من سريره نصف عريان ، دون ان يثير اية ضوضاء ، ويلصق عينيه اللاهتين في ثقب المزلاج . بلى ، ان هناك لبوراً في العرفة المجاورة التي داف اليها شخص ما يحمل مفتاحاً في يده ، وهو الان ينقب في مكتبه ، ويتصفح « مذكراته » ، السرية جداً ، كي يقرأ كلمات وجدانته وحاديته : هذا الشخص ، انها صوفيا أندرييفنا ، زوجته . انها تتجسس عليه حتى في اكثر اسراره خصوصية ، وهؤلاء الذين يجيئون به لا يتركونه وحيداً ، حتى مع الله . انه يحاط في كل مكان ، في كل مكان على الاطلاق ، في داره في حياته ، في نفسه ، بطموح البشر وفضولهم . وترتعش يدها غضباً وحنقاً ، ويمسك

بالمزلاج يريد ان يفتح الباب بصورة مباغنة ، وان يهجم على زوجته التي خانته .
ولكنه يتغلب على غضبه في اللحظة الاخيرة :

- لعل هذا ايضاً تجربة قد فرضت علي .

وحينئذ يجر نفسه حتى فراشه ، أخرس ، منقطع الانفاس ، متطلعاً في اعماق
نفسه مثلما يتطلع في قعر نبع قد نضب معينه وجف . وهكذا يظل يقظاً فترة طويلة
بعد ذلك ، هو ، ليون نيقولايفيتش تولستوي ، اعظم رجال عصره واقوام ،
مخدوعاً في ذات منزله ، معذباً بالقلق المرهق ، متجمداً بالوحدة القاسية .



المزم والتجاي

.كي يؤمن الانسان بالخلود ، لا بد له ان يعيش
على هذه الارض حياة خالدة .

تولستوي

« المذكرات » : ٦ آذار ١٨٩٦

ليون تولسنوي ، في عام ١٩٠٠ ، عتبة القرن الجديد وله من **اهتمام** العمر اثنتان وسبعون سنة . ان العجوز البطولي متيقظ الفكر دوماً ، يسير قدماً نحو الكمال وقد اضحى منذ الآن شخصية اسطورية . ان محبا هذا التائه الشيخ الذي يجرب ارجاء الكون العظيم ليشرق أكثر وداعة منه قبلاً تحت حيته الثلجية . اما جلده ، المصفر شيئاً فشيئاً ، فقد اصبح اشبه برق شفاف تغطيه غضون واخايد لاعدلها . وكثيراً ما تعشش الآن ابتسامة صبورة مستسلمة حول شفته المريحة التي هدأت واستكانت . اما الغضب فيندر ان يرفع حاجبيه الكئيبين ، بينما ساء آدم العجوز الخائى قد اصبحت رقيقة عذبة ، وكأنها قد تبدلت وتجلت .

ويقول اخوه مدهوشاً ، هو الذي عرفه طوال حياته متمرداً لاهباً :

- لشد ما اصبحت طيباً ا

وفي الحقيقة ان هواه الجامح قد اخذ ينطفئ ، فقد تعب وكل من النضال ومن تعذيب ذاته ، فنفسه لتنفس حالياً في ارتساح اعظم من ذي قبل ، وكثيراً ما تتمتع بشيء من الراحة من وقت لآخر . ان بريقاً جديداً من الوداعة ينور بحياه ، في ضياء المساء الاخير ، فاذا ما كانت الظلمة تطغى فيامضى من الزمان لدى تأمله ، فقد اتخذ الآن مظهراً مؤثراً في الحقيقة : لكأن الطبيعة قد جهدت طوال ثمانين عاماً كي يتظاهر أخيراً الجمال الصبيبي لهذا الرجل ، كي يتظاهر سر هذا الشيخ المصنوع من العظمة والعلم والغفران ، في شكله الاملل والنهائي . وان الانسانية لتحصد بالضبط هذا الحميا المتجلي ميراها لها ، لأنها ترى فيه وحده صورة تولستوي الحقيقية ؛ وان الاجيال سوف تحتفظ ، في اثر الاجيال ، بصورة وجهه الرزين الهادى . على هذا الغرار ، وهي تكن له اعظم الاحترام واعمه .

ان السن ، الذي يصفر عادة وجه الرجال الابطال ويشوهه ، يضفي على محبا
تولستوي جلاله الأكمل : هذه القسوة قد اصبحت عظمة ؛ والمهوى قد تحول الى
وداعة ؛ والعنف والصرامة قد صارا طيبة هادئة ونفها اخوياً لسائر الاشياء . وفي
الحقيقة ان المناخل الشيخ لا يرغب إلا في السلام وحده ، إلا في « السلام مع الله ومع
البشر » ، وفي السلام ايضاً مع ألد اعدائه - الموت . لقد مر ، لقد انقضى
- لحسن الحظ - ذلك الحوف المرعب ، الرهيب ، الحيواني ، من المنية ؛ والعجز
يتطلع الى النهاية التي تقرب بنظرة هادئة ، مستعداً لاستقبالها في اطمئنان عظيم .

« اظن انه من الممكن ألا أكون بعد على قيد الحياة في الغداة . اني احاول كل
يوم ان أتلف أكثر فأكثر هذه الفكرة ، فأعتاد عليها أكثر فأكثر دوماً . » . يا عجباً ،
ان الفكر الخلاق ليستجمع من جديد في هذا الانسان ، منذ اللحظة التي كف فيها
ذلك الذعر المحتلج عن اضطهاده وارهاقه بعد ان اقلقه وأقض مضجعه طويلاً . وكما
ان جوته يستدير ، وقد اضعى شيخاً حسناً ، عن تسلياته العلمية في نور المساء .
الاخير بالضبط كي يرجع الى « عمله الرئيسي » ، هكذا تولستوي المبشر ، الاخلاقي
يلتفت هو الآخر ، في سن غير معقولة ، بين سنتيه السبعين والثمانين ، نحو الفن الذي
طالما انكره ، فاذا اقوى شعراء القرن المنصرم واعظمهم يبعث الى الحياة مرة اخرى ، في القرن
الجديد ، بكل روعته السابقة . وهكذا يوتو الشيخ ، في جرة وأبس ، قوس وجوده الشيطاني ،
ويستغرق في تأمل احد احداث سنواته القديمة التي قضاها كواحد من القوزاق ،
وينظم بوجه هذه الاياداة ، هذه الملحمة العظيمة التي هي « حجي مراد » ، العاصم برنين
اسلحة الحرب ، اسطورة بطولية مروية بطريقة ساذجة وعظيمة ، كما كان تولستوي
يروي في ايامه الاكثر كالأ .

وإن مأساة « الجثمان الحي » ، والا قاصيص الرائعات : « ما بعد الحلقة » ،

و « كورني فاسيليو » ، وعددآ كبيرآ آخر من الاساطير الصغيرة لتثبت بصورة مجيدة عودة الفنان وانبعائه، واختفاء شراسة الاخلاقي وتلاشيها . ان المرء لا يستطيع في ابي موضع ، من المؤلفات المتأخرة ، ان يخمن يد العجوز المتعبة الكليبة ، لان نثرها يسيل مثل الزمان الذي يسقط تياره المتدفق الرنان في الابدية ، راثقآ حتى الدرجة القصوى ، حتى اعتمى أعماق النفس الخفية . ان عين العجوز العظيم الرمادية لتزن ، مصونه عن الخطأ ، عصية على الفساد مثلها دومآ ، مصير البشر المتحرك بصورة ابدية . ان قاضي الحياة قد عاد شاعرآ ، وذلك الذي كان فيما مضى عقائديآ يدعي فهم الحياة ويسبر اغوارها ، ينمحي في اعترافات شيخوخته الرائعة في احترام عظيم امام غموض الالهي وامتناعه عن الادراك . ان ذلك الفضول المتكبر العديم الصبر الذي يريد ان يحل مشاكل الحياة العظمى ليخلي مكانه لطريقة متواضعة في إرهاف السمع لتلك الضوضاء المقتربة ابدآ التي تثيرها موجة الانهاية . لقد اصبح طبيبآ ليون تولستوي ، ولكنه لم يتعب بعد ؛ انه ينقب في « مذكراته » ، من دون ان يستشعر كالأقط ، مثل فلاح من فلاحى العالم البدائي - حتى يقع القلم من يديه اللتين تهروان - حقل افكاره التي لا ينضب لها معين مطلقآ .

ذلك ان هذا الرجل الذي لا يعرف معنى التعب ، هذا الرجل الذي فرض القضاء عليه رسالة النضال حتى اللحظة الاخيرة في سبيل الحقيقة ، يجب ألا يجد الراحة بعد . لا بد له قبلاً من ان ينبج ويحقق عملاً أخيراً ، اكثر قداسة من سائر الاعمال الاخرى ، عملاً لا يتعلق بالحياة ابدآ ، بل بالأحرى بموته الخاص الذي يقترب . ان آخر مشاغل هذا المبدع العملاق سوف تقوم في نحت موت لائق وأمثلة من اجل ذاته ، فهو

يبدل - بصورة رائعة - كل ما بقي له من القوي في سبيل ذلك . ان تولستوي لم يعمل في اي من آثاره بمثل هذا الصبر وبمثل هذه الحمية ؛ ولم يدرس اية مشكلة بمثل هذا التعمق وبمثل هذا التفكير ؛ انه يريد بالضبط ، كفنان صادق يصعب ارضاءه ، ان ينقل الى الانسانية ، طاهراً خالياً من كل دنس ، هذا العمل - موته - آخر آثاره وأكثرها انسانية على الاطلاق .

وان هذا النضال في سبيل موت نقي كامل مجرد عن كل كذب ، ليصير معركة حاسمة في معمران هذه الحرب التي يشنها ذلك السبعيني العاجز عن العثور على السلام المرجحي ، وهي في الوقت نفسه اشد المارك ايلاماً وأكثرها قسوة ، لأنها نضال ضد دماثة بالذات . لامناص من انجاز فعل اخير بعد ، فعل تقهر امامه دوماً طوال حياته في تردد لانستطيع اليوم تفسير آله ، فعل هو النازل النهائي الحاسم عن ثرواته جميعاً . لقد أجل تولستوي دوماً في خشية ورجل - مثله في مثل كوتوزوف الذي يريد ان يتجنب المعركة الحاسمة ، والذي يأمل ان يتغلب على خصمه الرهيب بتراجع ستراتيجي مستمر - تدبير ثوته النهائي ، ملتجئاً ، هرباً من وجدانه ، الى « حكمة عدم العمل » .

ان سائر المحاولات التي بذلها في سبيل التنازل عن حقوقه في مؤلفاته ، حتى بعد وفاته ، قد لاقى دوماً معارضة عائلته الضارية ، بينما كان هو أضعف - وفي الحقيقة اكثر انسانية - من ان يحطم هذه المعارضة في قسوة وعنف . وهكذا فقد اكتفى طوال سنوات عديدة بالألا يتناول ، شخصياً ، شيئاً من المال ، وألا يستفيد من دخله . إنما (انه يعترف بذلك) « كان في اصل هذا الزهد كوني انكر مبدئياً كل ملكية ، وكوني لأهتم بشروتي بتأثير خجل مغلوطة تجاه الناس ، خوفاً من ن

يتموني بعدم الصدق في سلوكي». لقد كان دوماً ، بعد أكثر المحاولات تنوعاً ، هذه المحاولات الفاشلة دوماً التي كانت كل منها تعتبر مأساة في دائرة عائلته ، يبعد عنه القرار الحاسم الذي لا رجوع فيه ، الحاصل بوصيته ، ويؤجله الى تاريخ غير معين . ولكن عندما اكتسبت عائلته فرصة يوبئله عام ١٩٠٨ ، وهو في السننة الثمانين من عمره ، كي تشرع في طبعة كاملة لمؤلفاته بأرباح ضخمة للغاية ، اصبح يستحيل عليه ، هو العدو العلني لكل ملكية خاصة ، ان يبقى عاطلاً ، عن العمل ؛ كان لابد لليون تولستوي ، وهو في الثمانين ، من شن المعركة الحاسمة مكشوف الوجه . وهكذا تصبح ياسنايا بوليانا ، بحجة روسيا حيث تنضو الشمس الغاربة لمجد نجيم بجناحيه على العالمين معاً ، مسرح نضال عنيف وراء الابواب بين تولستوي وذويه ، نضال يتفاهم شره وبشاعته بمقدار ما يكون سببه شيئاً حقيراً - المال - نضال لا تعطي صيحات « المذكرات » المؤلفة الافكرة ناقصة عن شراسته وقوته .

ويتنهد خلال تلك الايام (٢٥ تموز ١٩٠٨) ، قائلاً :

« اواه ! ما أصعب ان يتخلص المرء من هذه الملكية القذرة المجرمة !

ذلك ان نصف عائلته كانت تتنازع هذه الملكية بأظافر اشبه ماتكون بأظافر الكبواسر ، فإذا مشاهد خليفة بأسوأ الروايات المبتذلة تتلاحق امام امام عينيه في أشد لحظات حياته اسي : دروج مخلوعة ، خزانات منبوثة ، احاديث يتجسس الآخرون عليها ، مساعٍ لوضعه تحت الوصاية ، أضف اليها محسوسات تبسها زوجته في سبيل الاتعار ، ووعيد بالفرار من قبله : ان « جسيم ياسنايا بوليانا » كما يسميه ، يفتح ابوابه على مصاريها . ولكن تولستوي ينهي الى ان يستقي ، في هذا الافراط من العذابات بالضبط ، قراراً حاسماً ، فيعزم اخيراً ، قبل وفاته بأشهر قليلة ، ألا يقبل

بعد الآن ابدأ بأي التباس او غموض في حياته ، لكي يؤمن نقاء موته وصدقته ، وأن يتروك للأجيال التالية وصية متممخ سائر ثرواته الفكرية الانسانية بصورة لامررد لها البتة . ولم يكن له بد ، في سبيل تحقيق هذا الفعل الأخير من الاخلاص ، من كذبة أخيرة ؛ فاذا هذا الشيخ البالغ اثنتين وثمانين سنة من العمر يمتطي جواده ويغدو - مادام يجد نفسه في داره مراقباً تخلص العميون كلاماً من حركاته - الى الغابة المجاورة ، غابة غرومونت ، وكأنه ذاهب في نزهة عادية ، وهناك يوقع أخيراً ، - تلك أشد لحظات عصرنا بأمره تأثيراً في الحقيقة - على أرومة شجرة عتيقة ، وبحضور ثلاثة شهود والجياد التي تنفخ في صبر فارغ ، تلك الورقة التي ستمنح ارادته الملسطة والصحة المتينتين فيما وراء حياته الراهنة .

لقد دمر الان سائر العقبات التي كانت تعترض سبيله ، فهو يظن اذن انه قد حقق العمل الحاسم أخيراً . ولكن عملاً أصعب وأشد ضرورة ينتظره بعد ، لأنه ليس من سر يقاوم بين جدران هذه الدار المصنوعة من الوجدان القويم الملتهب انسانية . ان الشكوك والشوشات تتسرب من مختلف الزوايا ، وتشق طريقها قطرة قطرة ، تنتقل من شخص الى آخر بالتدريج ، وما اسرع ماتعلم العائلة ان تولستوي قد اتخذ احتياطات خفية ، فيروح أهله يغتصبون بمفاتيح مزورة سر الدروج والحزائن ، وينبشون « المذكرات » كي يجدوا فيها سبيلاً يهديهم ، بينا الكونتس تهدد بالانتحار اذا لم يكف تشير كوف ، الشريك المكروه لتولستوي ، عن زيارته . ويدرك تولستوي انه لن يستطيع ههنا ، في وسط الاهواء والأطماع والبغض والاضطراب ، ان يؤلف أثره الفني الأخير ، كمال موته ؛ فهو ، المعجز ، يحشى « ان يسلبوه ، من وجهة النظر الروحية ، هذه الدقائق الثمينة التي ربما كانت اروع

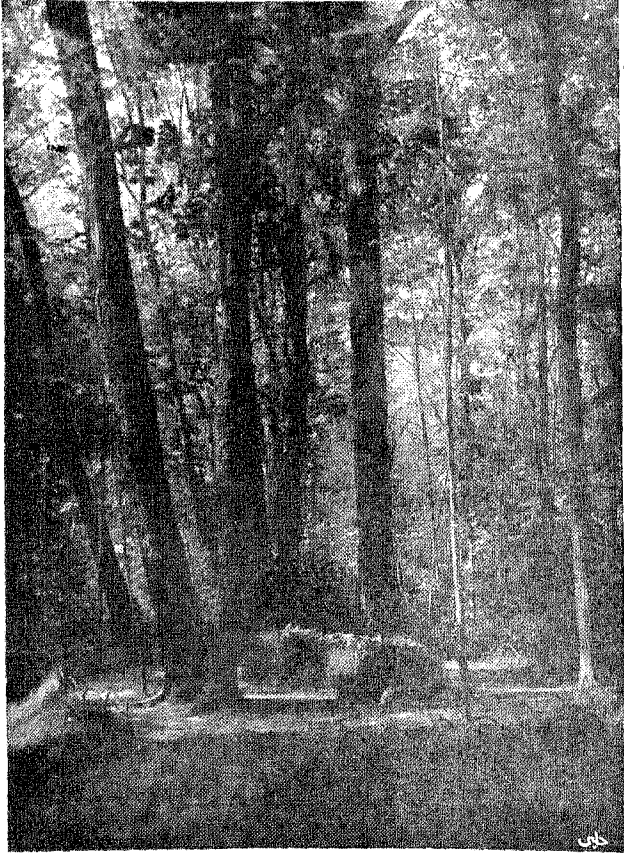
لحظات الحياة . . . وعندئذ تنبثق مرة أخرى ، من اعماق شعوره ، الفكرة بأنه يتوجب عليه ، اذا اراد ان يبلغ الكمال ، ان يفعل ما يطلبه الانجيل ، فيترك امرأته وأولاده ، ويتنازل عن الملكية والرياح ، كي يبلغ القداسة ويرتفع اليها .

لقد هرب مرتين حتى الان ، الاولى عام ١٨٨٤ ، لكن القوة أعوزته في منتصف الطريق ، فأجبر نفسه على الرجوع الى قرب زوجته التي كانت تعاني عندئذ آلام الحاض ، والتي أعطته في تلك الليلة بالذات ابنة جديدة ، هي الكسندرا هذه التي لا تبرح جانبه الآن ، والتي تحمي وصيته ، مستعدة دوماً لمساعدته في رحلته الاخيرة . ولقد ذهب مرة اخرى بعد ثلاثة عشر عاماً ، في سنة ١٨٩٧ ، تاركاً زوجته هذه الرسالة الخالدة التي يعرض فيها الامر الذي يفرضه وجدانه عليه : « لقد قررت ان اهرب ، أولاً لان هذا الوجود يثقل علي اكثر فأكثر بمقدار ما ترداد سنواني ، فأطمح بقوة متضاعفة ابدأ الى الوحدة ، ومن ثم لأن الاولاد قد كبروا الان ، فلم يعد وجودي في الدار ضرورياً بعد اليوم . . . إن أهم شيء هو ان تشبه بالهنود الذين يهربون في الغابات عندما يبلغون الستين من عمرهم ؛ فكل رجل ديني يشعر ، عندما يبلغ عتبة الشيوخة ، بالرغبة في وقف سنواته الاخيرة على الله وحده ، وليس على التسلية واللعب ، على التثرثر الفارغة والتنس . وكذلك فلإن نفسي تطمح بكل قواها حالياً ، بعد ان بلغت سنتي السبعين ، الى الراحة والجزلة ، كي أعيش في توافق مع وجداني أو كي أفلت على الأقل ، إن يكن ذلك الامر مستحيلاً تماماً ، من الاختلاف الصارخ القائم بين حياتي وإيماني . »

ولكنه رجع في هذه المرة أيضاً ، وقد تغلبت الانسانية فيه . لم تكن قوته أناة

الصميمية كبيرة بصورة كافية بعد ، ولم يكن نداء دعوته عنيفاً بعد بصورة كافية أيضاً . ولكن الجذب الجبار للابعاد القاصية يصبح أشد إبلاماً في الوقت الراهن منه في أي وقت مضى ، ثلاثة عشر عاماً بعد ذلك الفرار الثاني ، ومرتين ثلاثة عشر عاماً بعد الفرار الاول : ان هذا الوجدان من الحديد يحس قوة لايسبر غورها تجرفه بصورة عنيفة ورائعة في وقت واحد . ويكتب تولستوي في « مذكراته » ، في شهر حزيران من عام ١٩١٠ ، هذه الكلمات : « لست أستطيع ان أفعل شيئاً آخر سوى المهرب ، وان أفكر الان في ذلك بصورة جدية . الان أثبت مسيحتك ! هذا هو الحين او ان يكون ابدأ (بالفرنسية في النص التولستوي) . ههنا ليس أحد في حاجة لوجودي . مد لي يد المعونة ياإلهي ، علمني : انا لاأريد الا شيئاً واحداً ، ألا وهو ان أصنع إرادتك وليس ارادتي (١) . اني أكتب هذه الاشياء وأتساءل : أصبح ذلك حقاً ؟ افلست أتضع أمامك هكذا ؟ ساعدني ، ساعدني ، ساعدني . ولكنه يتردد دوماً بعد ، ان الحشية التي يبعثها مصير الآخرين في قلبه تعوقه دوماً ، وهو نفسه يخشى دوماً ان تكون رغبته مجرمة ، فيهدف السمع ، وقد انحنى فوق أناه الخاصة ، مرتعش الاوصال ، كي يعرف إن كان نداء يأتي من الباطن ، او رسالة من علي ، نداء او رسالة « يأمران » بصورة لاتقاوم حيث إرادته الخاصة ما برحت تتردد وتتمايل . وانه ليعترف في « مذكراته » بقلقه واضطرابه ، وكأنه جاث على ركبته في الصلاة ، امام تلك الارادة التي لايسبر غورها ، والتي استسلم اليها ، والتي

« ١ » قارن هذه الكلمات بكلمات السيد المسيح ، في بستان الجثمانية ، قبل الصاب يومين ، مخاطباً أباه السباوي : ولكن فلتكن ارادتك ، وليس ارادتي .



قبر نولستوي

يثق في حكمتها . وان ذلك الانتظار لاشبهه ما يكون بالجمي في وجدانه الملتهب ،
وهذا الاصغاء الى قلبه المرتعش لاشبهه ما يكون برجفان ينبأ كل كينونته ، فيروح
يفكر منذ الآن ان القدر لا يسمعه ، وانه قد اسلم الى الصدفة المحضة .

وعندئذ يعني فيه ، في الساعة المناسبة الصحيحة ، صوت رنان ، صوت
الاسطورة العتيق : « انفض ، وانتصب ، وخذ معطف الحاج وعصاه » . وانه
ليتمالك نفسه اذن ، ويدعو نحو كمال ذاته ...

الهرب نحو الله

« لا يستطيع المرء ان يقترب من الله الا وحيداً » .

تولستوي

« المذكرات »

في الثامن والعشرين من شهر تشرين الاول عام ١٩١٠ ، والزمن حوالي السادسة صباحاً ، وظلمة الليل المطبقة ما برحت معلقة بين الاشجار ، كانت بعض الاشباح تحوم بصورة غريبة حول دار الاءسياد في باسنايا بوليانا . ان بعض المفاتيح تطفطق ، وبعض الابواب تصرّ بصورة مسذعورة عجزلي ، والحوذلي يسرح الأحصنة الى العربية فوق قش الاسطبل في حذر شديد للغاية كي لا يثير ادني ضوضاء على الاطلاق ، بينما يلوح خيالان في غرفتين من الدار اشبه ما يكونان بشبحين رهيبين ، يتناوّلان رزماً من سائر الانواع وهما يتحسسانها تحسناً ، يسلمطان عليها ضوءاً ضعيفاً من مصباحي جيب اصين ، ويقفحان دروجاً وخزائن ، ومن ثم يتسللان عبر ابواب مقنوعة دون ضوضاء ، ويتمثوان خلال جذور الباحة الطينية وهما يهسان بشيء غير مفهوم . ومن ثم هذه عربة تجري نحو باب الباحة ، متجنبة الطريق التي تمر من أمام الدار ، سالكة طريقاً خفية .

ماذا حدث ؟ هل دخل بعض اللصوص الى القصر ؟ اهي شرطة القصر تطوق أخيراً بيت الكتائب المشبوه كثيراً ، كي تقوم بتفتيشها ؟ كلا ، ليس انسان فدتسلل بصورة سرية الى الدار ، بل هو فقط ليون نيقولايفيتش تولستوي الذي يفر أخيراً من سجن وجوده مثل لص سارق ، لا يرافقه الا طبيبه وحده . لقد وجه النداء اليه ، أخيراً ، اشارة حاسمة لامردها . لقد ضبط زوجته مرة أخرى ، أثناء الليل ، وهي تفبش في هوس مجنون مكتبه واوراقه ، وعندئذ انبثق فيه بصورة مباغته ، قاسياً عصبياً مثل الفولاذ ، العزم على هجرانها ، هي التي « هجرت نفسها » ، وعلى الحرب الى

اي مكان كان، نحو الله ، نحو نفسه، كي يبحث عن الموت الذي يلامه ، الموت الذي يجد به ربه . وهكذا فقد ألقى ، على حين غرة ، معطفاً فوق قميص نومه ، ولبس طاقية فظة ، وحذائيه المصنوعين من المطاط ، غير مصطحب من خيراتهِ الا بما يحتاجه الفكر كي يتصل بالبشر : « المذكرات » ، وبالإضافة اليها قلم وريشة ليس غير . . . وعندما بلغ المهطة ، خربش مرة أخرى رسالة الى زوجته ، وأرسلها اليها مع الحوذي : ولقد فعلت ما يفعله الشيوخ مثلي عادة : اني أهجر هذه الحياة الدنيوية كي أقضي أيامي الأخيرة في الرحمة والسكون . . . ومن ثم صعد الى القطار ، وهذا هو اذن ، ليون نيقولايفيتش تولستوي ، جالس على مقعد قذر في قاطرة من الدرجة الثالثة ، ملتف بمعطفه ، يرافقه طبيبه فقط ، يولي الأدبار كي يكون وحيداً مع الله .

ولكنه لم يعد يدعى ليون تولستوي: ان تولستوي قد ألقى الى الوراء منه ، مثله مثل شارل الحامس فيما مضى من الزمان ، هذا السيد الذي يحكم العالمين ، والذي ترك بجلء ارادته شعارات القوة كي يدفن نفسه في نعش أحد الاديرة ، ألقى الى الوراء منه ، بالإضافة الى ماله ، وبيته ، ومجده ، اسمه الخاص ايضاً ، فهو يدعى بعد الان ت . نيقولاييف ، وذلك اسم مبتدع لانسان يريد ان يبدأ حياة جديدة ، ويفتش عن موت نقي صالح . لقد تحطمت سائر الروابط أخيراً ، فهو يستطيع ان يكون بعد الآن التائه الذي يضرب على وجهه في طرقات غريبة ، يستطيع ان يكون خادم العقيدة والكلمة المخلصة . ويستأذن من شقيقته الراهبة أيضاً في دير تشاماردينو : هذان شبحاهما السريعا العطب والمتقدمان كثيراً في الشيخوخة يجلسان جنباً الى جنب بين رهبان وديعين قد تجلوا بالراحة وألحان الوحدة الطنانية .

ولا تلبث ، بعد يومين ، ان تأتي ابنته ، تلك الفتاة التي ولدت في ليلة الفرار الاول الذي باه بالفشل . ولكنه لا يجد الراحة هنا أيضاً ، في هذا الملبأ الذي آوى اليه ، فهو يخاف ان يعرفه البشر ، ويلاحقوه ويكتشفوه ، فيعاد مرة اخرى الى ذلك الوجود المضطرب الخاطيء . وهكذا فإنه يوقظ ابنته على حين غرة ، وقد لسته مرة اخرى اصبح خفية ، في الواحد والثلاثين من تشرين الاول ، ويلج على الذهاب الى ابعد من ذلك ، الى اي مكان كان ، الى بلغاريا ، او القوقاز ، او الخارج ، الى بقعة لا يستطيع المجد والبشر بلوغاً اليه فيها ، حيث يجد أخيراً الوحدة ، حيث يجد نفسه ويجد الله .

ولكن عدو حياته وعقيدته الرهيب ، المجد - هذا الشيطان الذي جعل كي يعبذه ويجر به - لا يقبل ضحيته بعد . ان العالم لا يقبل بأن يكون « تولستويه » ملكاً لنفسه ، ملكاً لارادته العميقة النيرة . وهكذا لا يسكد الحارث ان يجلس في جناحه ، وقد دفع بطاقيته كثيراً فوق جبينه ، حتى يعرف احد المسافرين المعلم الكبير . وما اسرع ما يعرف سائر الركاب هذا الخبر وما اسرع ما يفضح السر ، وما اسرع ما يتزاخم في الخارج ، على باب القاطرة ، عدد غفير من الرجال والنساء يريدون ان يروا اليه . ان الصحف التي يحملونها تحوي مقالات تملأ عدة عواميد عن الحيوان الثمين الذي فر من زنزاقته ؛ لقد اكتشف امره ، فهو مطوق من كل حدب وصوب ... ان المجد يقطع على تولستوي مرة اخرى ، المرة الاخيرة ، طريق الكال . هذه الاسلاك البرقية التي تزور طريق القطار المزجج تدوي بالبرقيات ، والشرطة تحظر سائر المحطات ، فيتجند سائر المستخدمين للبحث عنه ، بينما يطلب اهله قطارات خاصة ، وينطلق الصحفيون خلفه من موسكو ، ومن سان بطرسبورج ، ومن نييجني نوفجورود ،

ومن انحاء البلاد الاربعة ، يلاحقون الطريدة الهاربة ، ويرسل المجمع كاهناً كي يلقي القبض على التائب ، في حين يصعد سيد الى القطار بصورة مباغتة ، ويروح يردون انقطاع أمام جناح تولستوي ، يرتدي في كل مرة فناعاً جديداً : انه بوايس سري . كلا ، ان المجد لايسمح لأسيره بالافلات ، ولبون تولستوي لايستطيع ، لايحق له ان يكون وحيداً مع نفسه ، والبشر لايقبلون ان يكون ملكاً لذاته ، وان يحقق تقديسه ...

هذا هو منذ الآن وقد احبط وطوق من كل حدب وصوب ، ولم تبق له أية أجرة يستطيع ان يرمي بنفسه فيها . وعندما وصل القطار الى الحدود ، رفع احد المستخدمين قبعته عالياً يحياه في أدب جم ، ورفض ان يسمح له بالمرور . ان المجد سيأتي ، حيناً فتش عن الراحة ، كي يعسكر قبائله ، واسعاً.مدوياً بألاف أصواته ! كلا ، إنه لايستطيع الاغلات ، فالاظفار تطبق عليه بصورة متينة . ولكن هذه ابنته تلاحظ بغتة ان ارتعاشاً جليدياً قد هز جسد ابها الأسيب ، وهذا هو يستند ، مرهقاً شديد الاعياء ، الى خشب الدكة القاسي . ان العرق ينبثق من سائر سمام كينونته المرتجفة ويقطر من جبينه ، وحمى صادرة عن دماائه والمرض ، تنقض عليه كي تنفذه ، وهذا الموت يسرع فيرفع معطفه القاتم كي يخفيه عن النظر مضطهده .

لم يكن بد من التوقف في استابوفو ، وهي محطة صغيرة على طريق السكة الحديدية : ان المريض لايستطيع ان يذهب الى ابعد من ذلك . ولم يكن هناك

فندق ، او خان ، او قصر ، يستطيع ان تستقبله ، فيقدم رئيس المحطة ، مضطرباً قليلاً ، مكتبه الصغير ، في بيت خشبي وحيد الطابق هو بناء المحطة الوحيد (انه كعبة يهيج اليها العالم الروسي منذ ذلك الحين) . ويقودون الشيخ الذي يرتجف من البرد الى ذلك المكتب ، واذا اكل ما حلم به يتحقق الان أمام عينيه : هذه الغرفة الصغيرة ، الواطئة ، العابقة بالدخان ، المليئة بالهواء السميك والفقر ؛ وهذا السرير الحديدي ، والنور البخيل الذي يرده المصباح البترولي ؛ وهاتان الرفاهية والأبهة اللتان فر من وجههما بعيدتان هذه المرة كل البعد عنه . ان كل شيء يحيط به ، في ساعة تزاعه ، في لحظات حياته الاخيرة ، هو بالضبط مثلما تمنته دوماً ارادته الصبيبية ان الموت يخضع ليد الفنان عنده بصورة كاملة ، نقياً ، مجرداً عن كل خبث . رمزاً عظيم الجلال والمهابة ، والبناء العظيم لهذه المنية يرتفع في ايام قليلة ، فأكيداً فغمسا لعقيدته لن يستطيع حسد البشر ان يدمره بعد الان ابدأ ، ولا ان يعكر صفوه ويجريه في بساطته القيمة بالعصور البدائية .

عبثاً يقف المجد خارجاً ، أمام الباب المغلق ، يتربص لاهثاً ، متعطش الشفتين ؛ عبثاً يتدافع وينتظر الصحفيون ، والفضوليون ، والجواسيس ، ورجال الشرطة والدرك ، والكاهن المرسل من قبل المجمع المقدس ، والضباط الموفودون من قبل القيصر نفسه ؛ ان ضوءاهم الصارخة المجردة عن الحياة لن تستطيع بعد الآن شيئاً ضد هذه العزلة المثلى والحاسمة . ان ابنته وحدها تسهر عليه ، برفقة الطبيب وصديقي واحد ، بحيث يحيطه بالسكون هكذا حب متواضع هادئ ، بينما يرتاح على

المائدة الكراس الصغير الذي يكتب فيه « مذكراته » - انه حامل صوته كي يتصل مع الله ! - لكن اليدين المحمومتين تعجزان بعد الآن عن الامساك بالقلم ، فيروح يجلي على ابنته ، لاهت الرئتين مطغماً الصوت تقريباً ، أفكاره الاخيرة : انه يدعو الله « هذا الكل غير المحدود الذي يشعر الانسان بأنه جزء محدود منه ، بأنه تظاهرة في المادة ، والزمان ، والمكان » ، وينادي بأن اتحاد هذه الكائنات الارضية بحياة كائنات اخرى لا يمكن ان يتحقق إلا بالمحبة . انه يوتر سائر حواسه ، حتى قبل يومين فقط من وفاته ، كي يسك الحقيقة المثلى ، الحقيقة العصية على الادراك ، ومن ثم تنتشر الظلمة شيئاً فشيئاً فوق هذا الدماغ المنير وتغطيه . . .

ان البشر يضطربون في الخارج ، يحرقهم الفضول والتشوق الى فكشف الاسرار . ولكنه لم يعد يحس وجودهم مطلقاً . وان صوفيا أندرييفنا ، امرأته ، لتقف هناك ايضاً ، امام النوافذ ، مرهقة بالتوبة والندامة ، تسعى ان ترى الى الداخل من خلال العبرات التي تسيل من عينها بغزارة ، هي التي اتحدت اليه طوال ثمان وأربعين سنة ؛ انها تقف هناك ، تبرص كي ترى مجيء مرة أخيرة ، ولو من بعيد : انه لا يعرفها ! ان امور الحياة تصبح غريبة اكثر فاكثر عن نظرتها - اكثر النظرات الانسانية نفوذاً ؛ والدم يسيل اشد سواداً وأكثر ثقلاً دوماً في اورده التي تتعلم . ويصحو مرة اخرى في ليلة الرابع من تشرين الثاني ويتنهد : « ولكن ،

الفلاحون ، كيف يموت الفلاحون إذن ؟ ، ان هذه الحياة الجبارة لتدافع عن نفسها دوماً ضد الموت الجبار ، فلا تستطيع المنية ان تبلغ هذا الخالد الا في السابع من تشرين الثاني ، فيتهاوى الرأس المتوج بالبياض بين الوسائد ، وتنطفئ العينان - هما اللتان شاهدتا العالم بوضوح اشد مما شاهدته اية عين اخرى . وعندئذ فقط يعرف المنقب الفارغ الصبر الحقيقة ومعنى كل الحياة اخيراً ...



الخاتمة

« ان الانسان قد مات ، ولكن موقفه من الكون بأمره يستمر يفعل في البشر ، ليس مثلما كان يفعل اثناء حياته فحسب ، بل بقوة اعظم ايضاً . وان تأثيره ليمتد بقدر ما كان يملكه من عقل وعبرة ، وهوينمو ، مثل كل شيء حي ، دون انقطاع ودون نهاية . »

من رسائل تولستوي

دعا مكسيم جوركي ، ذات يوم ، تولستوي « إنسان الانسانية » ،
لهم وتلك كلمة لاتناولها كلمة اخرى في حقيقتها . ذلك انه انسان مثلنا

جميعاً ، قدمجل من الطينة السريعة العطب نفسها ، غير بريء من النقائص الأرضية
ذاتها التي غلكها جميعاً ، ولكنه يعرفها بصورة اعمق منا ، ويتألم بسببها بصورة أشد
أيضاً . لم يكن ليون تولستوي من جنس يختلف عن بقية مفكري العصر ، اويسو
عليهم . لكنه كان فقط اعظم انسانية من معظمهم ، واعمق اخلاقاً ، واكثر شدة
وأشد استنارة ، واعظم يقظة واندفاعاً ، تجربة اولى اشد وضوحاً - اذا جاز
التعبير - لذلك الشكل البدائي غير المرئي ، المصنوع في معمل خالق الكون .

أن يحقق بطهارة تامة ، وبكل الكمال الممكن ، في وسط عالمنا المختلط ، تلك
الصورة للانسان الأبدي التي توجد مسودتها غير الواضحة ، لكن القابلة للادراك في
معظم الاحايين ، في صميمنا جميعاً ، ذلك هو العمل الجوهرى الذي فرضه تولستوي
لحياته - عمل لا يمكن ان يكمل ويتحقق بصورة تامة قط ، فلا يكون إلا بطولياً
بصورة مضاعفة لهذا السبب بالضبط . لقد بحث عن الانسان في تجده الأمثل وصنعه ،
بفضل إخلاص فكري لامثيل له . لقد فتش عنه واستجوبه في السر الغامض لذات
وجدانه ، هابطاً الى اعماق لا يبلغها المرء الا اذا جرح نفسه . لقد نبش نفسه بجد
لا يعرف معنى الرحمة ، وبقسوة لاتدرى سبيلاً الى الشفقة ، نبش نفسه دون اي تحفظ
على الاطلاق ، كي يخلص تلك الصورة البدائية من قشرتها الارضية ، وكي يظهر
للانسانية جماء حياها وقد صار انبل واكثر شبيهاً بالله ، معتبراً هذا العمل غاية
جهود البشر جميعاً على حد سواء . ان هذا الفنان الذي لا يخاف شيئاً ليشغل طوال
وجوده كامل ، دون ان يرتاح قط ، ودون ان يرضى ابداً ، ودون ان يمنح فنه

لحظة واحدة ذلك الفرح البريء الذي ينشأ عن لعب الاشكال الساذج ، في هذا العمل العظيم الذي يقوم في تحسين أناه بتمثيل هذه الأنا . ليس من شاعر قد اعطانا ، منذ جوته ، مثل هذا الكشف عن ذاته ، وعن الانسان الابدي في الوقت نفسه .

ولكن هذه الارادة الوطيدة في الطهارة والمعرفة التي يتمتع تولستوي بها لم تنته إلا بصورة ظاهرة مع حياته : ان محياه البطولي ، الحلاق دوماً ، ما برح يفعل في الحاضر ، لانه قد دخل في عصرنا ، هو آخر محيا عظيم عرفه القرن الماضي . انه ما يزال موجوداً ، يشهد على وجوده الارضي عدد غفير من الناس الذين شاهدوا عينيه النافذتين ، الذين لمسوا يديه الابويتين ؛ ومع ذلك فان حياة ليون تولستوي قد اصبحت اليوم اسطورية حتى أجيال وأجيال - خرافة جديدة تعلن عن جيروت حب مجبول من التواضع .

ذلك ان الانسانية تقش دوماً ، عبر فرار الزمن ، عن الانسان الذي يمكن ان يكون شعاراً ومثالاً يحتذى ، كي تجعل منه رمز حسها الاخلاقي الباحث عن الابدية ، ولا تختار الا اقوى الجميع من بين العدد الوفير - كي تثبت قوتها . انها لا تجسد ارادتها إلا في الانسان الذي يبذل اعظم الجهود ، وينقب في حيا جبارة فقط ؛ انها لاتعرف علمها وحقيقتها الا في انسان الحقيقة وحده ، من دون سواه ...

الفهرس

	صفحة
الاهداء	٤
تصدير	٦
المقدمة	١٧
صورة تولستوي	٢٤
حيوية تولستوي وتقيضها	٣٢
الفنان	٥١
تولستوي كما يصف نفسه	٧٣
الازمة والتحول	٨٩
المسيحي المصطنع	١٠٣
عقيدة تولستوي والضلال الذي فيها	١١٧
النضال في سبيل التحقيق	١٤١
يوم من حياة تولستوي	١٦٣
العزم والتجلي	١٨٣
المهرب نحو الله	١٩٥
الخاتمة	٢٠٥

درراً

تشرها

بين بديك

فرييا

واراليقظة العربيت
للشيف والترجمة والنشر

تطلب منشوراتنا من عموم وكلائها وعملائها في ارجاء العالم العربي

من

سلسلة عميون الأدب العالمي

دوستوفيسكي

في روايته الخالدة

الإخوان كرامازوف

قصة الصراع الابدي بين الله والشيطان في النفس البشرية المعذبة .. لوحة رائعة عن يتابع الخير والشر في الانسان ، رسمتها ريشة أعظم ملهم عرفه تاريخ الآداب العالمية جميعاً .

بشر يتحررون من كل ما هو أرضي الطبيعة ، ليواجهوا بكل ما في ارواحهم من قوة وضعف ، السر الالهي الخفي ، المعصي على الادراك ، وكي يتردوا في الهاوية السحيقة ، هاوية الله وهاوية المعدم على حد سواء .

يقع في ثلاثة مجلدات كل منهما في زهاء ستمائة صفحة من القطع الكبير . مزينة بمجموعه كبرى من الصور خصيصا لهذه الطبعة العربية وبصورة كاملة غير منقوصة .

مقدم بدراسة عن مشكلة الألم عند دوستوفيسكي

سلسلة عيون التراث العربي

ديوان

إيليا أبو ماضي

شاعر المهجر الأكبر

شاعر المهجر الأكبر

كتب مقدمته جبران خليل جبران

الديوان نفحة مهجرية عربية عطارة . فيها سر شاعرية المهجر مصقولة بديباجة عربية مشرقة تضع إيليا أبو ماضي في المرتبة التي يستحقها من حيث العبقرية والخلود ...

ديوان ينشر لأول مرة

وقف على نشره وقدم له بدراسة وافية

زهير ميوزا

لبسانييه في الآداب من الجامعة السورية

يقع الديوان في زهاء أربعين صفحة من القطع الكبير على ورق أبيض صقيل طبعة اتيقة وأخراج جميل

كتاب اليوم

مشاكل العالم العربي

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

تأليف الاستاذ الكبير
محمد عزة دروزه

والكتاب نال جائزة الجامعة العربية وطبع بطلب منها
وفيه بحوث تحليلية من المشاكل التي تعوق المجتمع العربي عن التقدم في الاقتصاد
والاجتماع والسياسة والاخلاق ولفضل الطرق لمعالجتها
ويحتوي

فصولا في مشاكل التعليم والامية والمدارس الاجنبية، والطائفية والاقليمية والامية
والشيعية، ومسألة المرأة العربية، والتنظيم الشعبي وواجب الشباب، وميومة
أخلاق الناشئة وضعف الوازع الديني، وشؤون القرية والعمال ومشاريع البر،
وضعف استثمار امكانيات البلاد العربية، وجهاز الحكم والاساليب الحزبية، وبواعث
الانقلابات في سورية ومصر وخطواتها، وعلاقات الدول العربية ببعضها، والعقبات
القائمة في طريق الوحدة العربية، وتأثر فلسطين ومشكلة اللاجئين، وقضايا مصر
والعراق والاردن والمغرب العربي وأمارات الجزيرة العربية، ومسألة الدفاع المشترك..
ويقع الكتاب في نحو اربعمئة صحيفة من القطع الكبير. اخرجته الى
العالم العربي

واراليفظة العربية للأليف والترجمة والنشر سورية

من

مسرد عميون الأدب العالمي

المؤلفات الكاملة للكاتب الروسي الكبير

أنطون تشيخوف

تصدر قريباً المجموعة الأولى

كآبة فانكا

على الدرب اثر في

غريمان مذكرات رجل نزق

الرهان الحرباء

الراهب الاسود فرحة

يوم في البرية بعد المسرح

ما هذه؟ يفوس في مكتب البريد

في المنفى الفار

« هل خلط بين ماحييه وما ابتدعه و كف عن تمييز الواحد من الآخر؟ .. »

كل هذا ممكن في وقت واحد ان الحياة الخفيفة وعجيبة معاً... »

أنطون تشيخوف



سلسلة عيون الأدب العالمي

المؤلفات الكاملة للكاتب الروسي الكبير

انطون تشيخوف

المجموعة الثانية :

عرد الثقاب السويدي	المنزل ذو الجناح المتوسط
ذكريات	صاحبة الكلب الصغير
عبث بري	القبلة
الطبيب	فولوديا
الجنادب	كاشتانكا
بزة الرئيس	خلق
الشار	الحذاء وقوى الجحيم
	الحذاء

« ان هذا الاستسلام المطلق الى الواقع وهذه الرقة في تصوير الانسان ، وهذا الحرف من الموت الذي يحتاج مؤلفاته وهذا العذاب الاليم الذي يجرب ان يخفيه ، كل هذا يجعل من تشيخوف كبيرنا ومعلمنا فلنقتنع بأنه اذا كان درسه ناقصاً ، فلقد اراده هو بالذات ان يكون كذلك بحيث حتماً بهذه الموهبة الفائقة التي يملكها كبار الكتاب فقط على البحث والتنقيب بالاحرى من ان يكون قد ثقفنا» .

دانييل روسي

Bibliotheca Alexandrina



0431177